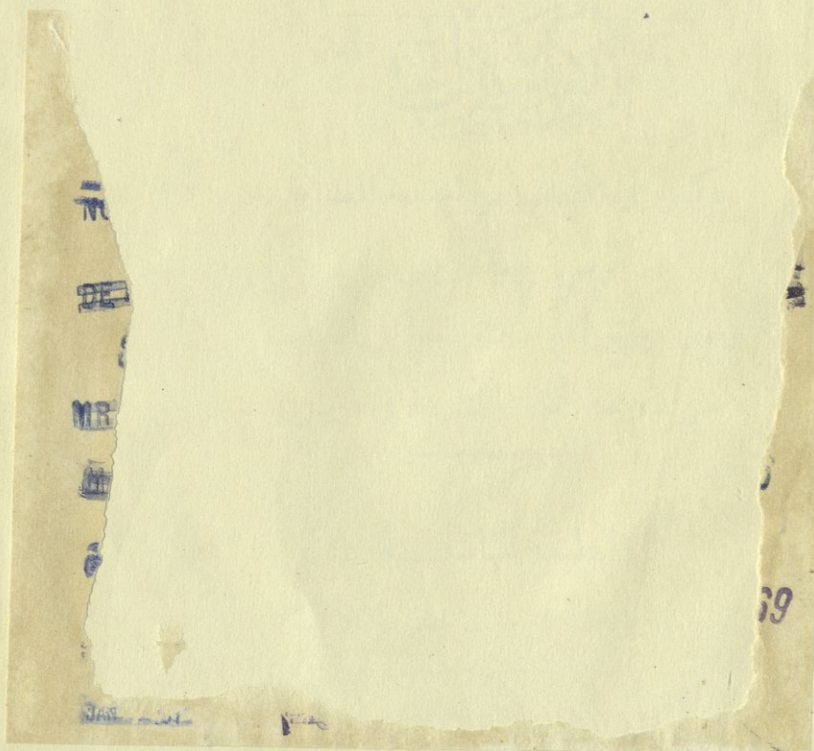
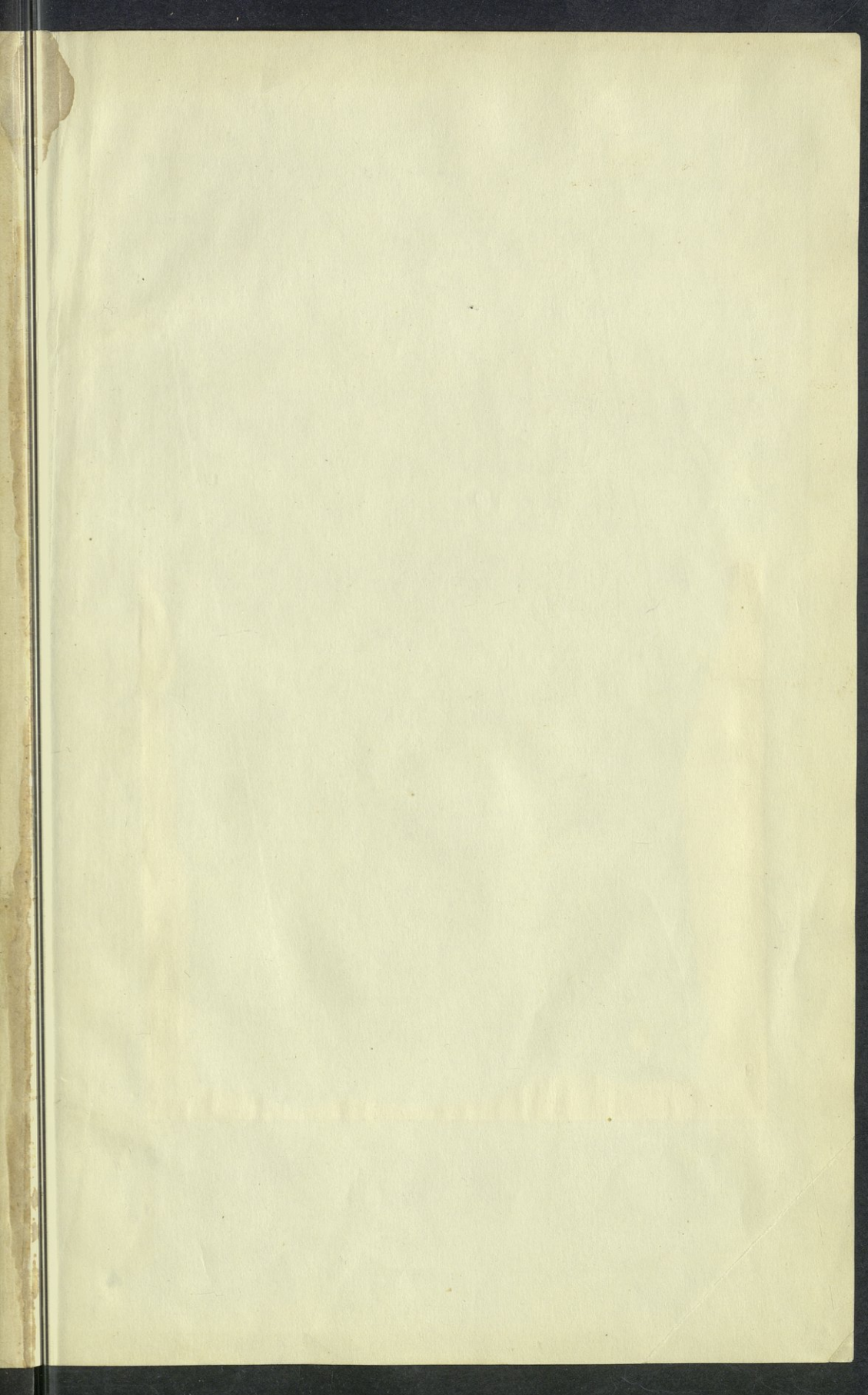


تجلد صالح الدفر

تلفون ۲۲۹۷۷





الموازن بين الشعراء

لجحاير

في أصول النقد وأسرار البيان

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب

من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

الطبعة الثانية

وبهازيادات على جانب عظيم من الأهمية

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧١٧

التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ

فِي الْأَدَبِ وَالْأَخْلَاقِ

كتاب في مجلدين كبيرين

يظهر بعون الله في العام المقبل

الاهداء

إلى حضرة صاحب السعادة الأستاذ الجليل :

أحمد لطفي السيد باشا

وزير المعارف الأسبق ، ومدير الجامعة المصرية

أهدى هذا الكتاب

تَذْكَرَةً للعطف الذي غَمَّرَنِي بِهِ فِي مَطْلَعِ حَيَاتِي الْأَدَبِيَّةِ ،
وَتَذْكَرَةً لِلدَّرْسِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَصَّنِي بِهِ يَوْمَ الْقَائِنِ فِي الْيَمِّ بِلا
إِسْفَاقٍ ، فَأَصْبَحْتُ بِفَضْلِ ذَلِكَ الدَّرْسِ مِنْ أَقْدَرِ السَّابِحِينَ عَلَى
مُغَالَبَةِ الْأَمْوَاجِ فِي خِصْمِ الْوُجُودِ ، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ حُكَّاءُ الْآبَاءِ ،
بِأَقْوِيَاءِ الْأَبْنَاءِ . وَاللَّهُ يَحْفَظُ حَيَاتِهِ الْغَالِيَةَ ، وَيَشْكُرُ لَهُ مَا أَسْدَى
إِلَيْنَا مِنْ جَمِيلٍ .

زكي مبارك

مُدَرِّسٌ سَابِقٌ بِالْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ

مصر الجديدة في { ٢٩ رجب سنة ١٣٥٥
١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦ }

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .
أما بعد : فهذا كتاب « الموازنة بين الشعراء » أقدمه مرة ثانية إلى
المنصفين من أهل الأدب والبيان ، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة
منذ سنين ، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفذوا نسخ الطبعة الأولى في
أقل من سنتين ، وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عدداً من السنين .
أقدم إلى القراء هذا الكتاب ، وما أنكر أنى به مفتون ، فقد أنشأت
فصوله ، وأنا في غاية من عافية الذوق ، وشباب القلب ، وغفوان الروح .
فجاء مجداول الحقائق ، مصقول الأضاليل ، وفي الأدب الحق هدى وضلال
وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في
ربيع سنة ١٩٢٥ ، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة - وهو نحو مائتي صفحة -
أنشئ في ربيع سنة ١٩٣٦ فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب
عشر سنين ، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل ، وإن كنت أعلم
علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق ،
ومن أزهدهم في اللغو والفضول .

هذا كتابي أقدمه يميني . وأنت يا رباه - تباركت وتعاليت - تعلم أني
خدمت به لغة القرآن . ولم يبق غيرك - يا رباه - من أنتظر منه حسن الجزاء
(وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

فُطِرَ الناس على حُبِّ المفاضلة بين الوسائل التي ترمى إلى غرض واحد ،
والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد ، وقد ظهرت هذه الفطرة
واضحة جليّة حين ظهر الشعر ، وتبارى في قرضه الشعراء .

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد ، يتميز بها الرديء من
الجيد ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب
قوة في الأدب ، وبصراً بمناحي العرب في التعبير ، ومن هنا كان القدماء
يتحاضرون إلى النابغة تحت قبته الحمراء ، في سوق عكاظ ، إذ كان في نظرهم
أقدر الشعراء على وزن الكلام .

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من
الشعراء في عصر واحد : فوازنوا بين امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ،
والأعشى في الجاهلية ، وبين جرير ، والفرزدق ، والأخطل في الدولة
الأموية ، وبين أبي نؤاس ، ومسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية ، وبين ابن المعتز
وابن الرومي ، وبين أبي تمام والبُحْثَرى في الدولة العباسية ، وكذلك عُقِدَت
الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذي نعيش فيه ،
والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد

المصرية والسورية ، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم ،
أو عاصرهم من الشعراء .



ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّروا قديماً
أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصر واحد ، أو اشتراكا في
الإبانة عن غرض واحد ، وأن نضع ميزاناً يعتمد عليه في وزن ما للشعراء من
الحسنات والسيئات ، ليستطيع المتأدّب الفصل بين شاعرين اختلف من
أجلهما الناس .

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يُرشّح نفسه للموازنة ،
وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير
المعاني ، واختيار الألفاظ .



يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُليا في فهم
الأدب ، وأن يُصبح وله في النقد حاسة فنيّة تنبّأ به عما يُفسد حكمه
من الأهواء والأغراض ، التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب
على البعد عن جادة الصواب ، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء .
فقد نجد من الناس من يطرب للشعر ، لا لأنه شعر ، بل لأنه طرق موضوعاً
يحبّه ، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه ، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً

من الوجهة الفنية ، أفيُعتبر هذا الإعجابُ دليلاً على حُسن ما أُستَحْسِنَهُ هذا الذي تشبعت نفسه بغرضٍ خاص ؟

ومن هنا نستطيع غض النظر عن أحكام المتأدين الذين يُفضّلون القديم مطلقاً على الجديد ، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء ، أو يفضلون الجديد مطلقاً على القديم بحيث يرون القديم صورة من صُور الجُود ، وإنما نقضُ النظر عن أحكام هؤلاء لأن التشيع للقديم أو الجديد صَرَفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تطرب للجيد المُمتع من ثروة القدماء والمحدثين .

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال : وما أكثر ما نرى ونسمع عن حُفاظ اللغة وجِلّة الرُواة ممن يلهجُ بعيب المتأخرين ، أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فاذا نُسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ، ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً ، وأقل مرزأً من التسليم بفضيلة المُحدث ، والإقرار بالاحسان لمولّد ، وحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيُبَلِّ الصَّدَى وَيُشْقِي الْغَلِيلُ
إِنَّ مَاقَلَ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ

فقال : هذا والله الديباج الخسرواني ! ولمن تنشدني ؟ فقلت إنهما ليلتهما . فقال : لاجرم ، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر !!
ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خلفُ الأحمر من الشعر باسم شعراء

الجاهلية ، لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسِينُونَ أكثر ما أضيف
إلى القدماء من ألوان الكلام !!

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تَتَّسِمُ بِسَمَةِ الْغَيْرةِ على
الجنس ، والدفاع عن النوع : كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سُكَيْنَةُ
بين الشعراء ، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي :
في محاضراته بالجامعة المصرية : من أن السيدة سُكَيْنَةُ كانت ترى فضل
الشعر في الصدق ، والرفق ، وجميل الأحداث ، استناداً إلى الحديث الذي
نقله صاحب الأغاني ، فسيرى القارئ أن نقد السيدة سَكينة متأثر بالعطف
على المرأة ، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية .

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية ، ولكنه يظل قيماً في
نظر الأديب الفَنَّان .

وأنا أَشْرِكُ القارئ في الحكم على ذلك الحديث . ذكر صاحب الأغاني
أنه اجتمع في ضيافة السيدة سُكَيْنَةَ جَرِيرٌ والفرزدقٌ وجميلٌ وكثيرٌ
ونصيبٌ ، فكثوا أياماً ، ثم أَذِنَتْ لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تَرَاهُمْ
ولا يرونها وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفةً لها وَضِيئَةً قد رَوَتْ
الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال : هأنذا . فقالت :
أنت القائل .

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا أُنْخَطَّ بَازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهُ^(١)

فلما استوت رجلای بالأرض قالتا
 فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا
 وأقبلت في أعجاز لیل أبادرُهُ (١)
 أبادرُ بوايينِ قد وُكِّلَا بنا
 وأحمر من ساج تبصُ مسامرُهُ (٢)
 قال : نعم ! قالت : فادعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك
 وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هانذا .
 قالت : أنت القائل :

طرفتكَ صائدةُ القلوب وليسَ ذا
 وقتَ الزيارة فارجعي بسلام
 تجرى السواك على أغر كأنه
 بردٌ تحدر من مثنون غمام
 قال : نعم ! قالت : أولاً أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت
 عفيفٌ وفيك ضعف ! خذ هذه الألف والحق بأهلك ؟

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم كثير ؟ فقال : هانذا .
 فقالت : أنت القائل .

وَأَعْجَبَنِي يَاعَزُ مِنْكَ خَلَاتِقُ
 كِرَامٌ إِذَا عُدَّ الْخَلَاتِقُ أَرْبَعُ
 دُنُوكِ حَتَّى يَدْفَعَ الْجَاهِلُ الصَّبَا
 وَدَفْعُكَ أَسْبَابَ الْمَنَى - يَنْ يَطْمَعُ
 فَوَاللَّهِ مَا يَذَرِي كَرِيمٌ مُمَاطِلُ
 أَيَّنْسَاكَ إِذْ بَاعَدْتَ أَوْ يَتَصَدَّعُ
 قال : نعم ! قالت : ملعت وشكلت ! خذ هذه الألف والحق بأهلك .
 ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : هانذا .
 قالت : أنت القائل :

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصِيبُ لَقُلْتُ بِنَفْسِي النِّشَاءُ الصَّغَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَضُومٍ حَشَاهَا إِذَا ظُمْتُ فَلَيْسَ لَهَا انْتِصَارُ
قال : نعم ، فقالت : ربينا صغاراً ، ومدحتنا كباراً ! خذ هذه الألف
والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ! مولاتي تُقرُّك
السلام ، وتقول لك : والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك :
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً بَوَادِي الْقُرَى إِنْ إِذَا لَسَعِيدُ^(١)
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْرُوقِ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ يَنْهَنُ بِشَاشَةٍ وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ
جَعَلَتْ حَدِيثَنَا بِشَاشَةٍ وَقَتْلَنَا شُهَدَاءَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك .

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينه لم تهتم ولم تحرص
إلا على أخلاق الأدباء ، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوجهم إليه - كما
ذكر أستاذنا المهدي - وإنما هو حديثٌ صريحٌ في الإبانة عن حرص
السيدة سكينه على نعيم المرأة بوجه خاص .

ألا ترى كيف عَقَّبَتْ على قول جرير :
طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقْتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
إنها قالت له : أولاً أخذتَ بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت
عفيف ، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجملُ بالشاعر أن يأخذ بيدها ، وأن يقول لها

(١) وادي القرى : هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء .

ما يقال لثلاثها ، فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يُؤخَذ
ييد المرأة حين تطرُق عاشقها بليلاً !

ثم مامعنى هذه الجملة « أنت عفيف ، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب
أن يُعفينى القارئ من شرح مافى هذه الجملة من ألوان الفتون !

وقد رضيت السيدة سكيئة عن تلك الفتاة اللعوب ، التى تدنو حتى يركب
الجاهل رأسه ، ويُسخّر لصباه ، وتنفر حتى تنقطع بالغوى أسباب المني
والمطامع ، والتى لا تزال تلعب حتى يُغلب الحب على أمره ، فبايدرى
أيصْدِفُ وينسى ، أم يُمسى وهو مُتيمّ مجروح الفؤاد .

وفى هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية ، فلم تذكر إلا أنه ملح
وشَكِل^(١) ، وأنه بلغ بذلك غاية البيان .

وما الذى أعجبها فى شعر نُصَيْبٍ ؟ أعجبها أنه ربّاهنّ صغاراً ، ومدحهنّ
كباراً ! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع ، ولهذا
أعجبها من جميل أنه جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهنّ شهداء !

ويؤيد هذا الرأى ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك
الذى يقول :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقْوُدُنِي بُيْتِنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً فى شعره .

ألا تراها رَضِيَتْ بما رَضِيَ الشاعرُ لنفسه من العمى والصمم مع

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالكسر ، وهو رقة الغزل .

سلامة محبوبته ، وهى التى أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويُرْوَع حين
فزعت ورُوِّعت من أجله صاحبته ؟

ونستطيع أيضاً أن لانبأى بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير الفكرة
الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة ، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف ،
والمألوف ، والمستحسن من خصال الناس ، فقد قيل لعُمر بن عُبيد :
ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع
رشدك ، وعواقب غيك .

فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد ، والنهى عن الغي ،
والتنفير من طاعة الهوى . مع أن من الكلام ما يهوى بصاحبه إلى أعماق
الجحيم ، وهو فى الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان .
ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ،
ثم قال بلهجة جدية : لا عيب فى هذا الكتاب إلا أنه لم يحتم بفصلٍ فى النهى
عن العبث بالنساء (!)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،
ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية ، وأريد النزعة الدينية
الصرفة التى تخلو من النفحة الشعرية ، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض
الشعراء ألشد المأمون فى مدحه :

أَصْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَعِلًا بِالْدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلًا

فغضب لذلك ولوى وجهه مع أن هذا البيت يُصوّر مطامع كثير من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه . ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة ، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة .

قلت لك : إن الشعر قد يُسائر الأغراض الدينية ، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية ، وعندى لهذا شاهدٌ بديع ، وهو قول بعض الحجازيين في ذم جماعة من عبيد الراح :

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَيْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمْو لَمْ يُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِّي صَاحِبُ النَّارِ
لَكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحَ الْمِسْكِ يَقَعُّنِي وَعَنْبَرُ الْهِنْدِ أَذْكِهِ عَلَى النَّارِ
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ رِيحِي حِينَ أَبْصَرَنِي وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزَّقِّ وَالْقَارِ
فهذا نهى عن الحر ، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي :
وَدَعَ الْخُمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلَ
لأن هذا ينقصه ما يبنى عليه الشعر من رائع الخيال .



وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق ، فلا يبتئس بما نقول ، على أنى قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر البليغ ، ولأدرس معه نظرية « الفن للفن » لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلاق أم تربية الأذواق^(١) .

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب « النثر الفني » .

البحث الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية ، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد ، والتشيع بالأفكار الدينية ، أو الصوفية ، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء .
والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء .

١ -

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول ، والشاعر أبصر بالشعر من سواه ، فحكمه قيمة خاصة ، تفوق أحكام المتأدين من رجال اللغة والرواية ، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر ، وكان في حكمه من الخاطئين ، وإليك البيان :

كان ابن الرومي مُسرفاً في التطير ، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون ، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع على جاره كان نازلاً بإزائه ، وكان أحذب ، يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر إليه رجع ، وخلع ثيابه ، وقال : لا يُفتح الباب ! فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن

يُشْرَف مَنْ فِيهِ عَلَى الْهَلَاكِ ! وَعِلْمُ مَعَاصِرِهِ بِإِفْرَاطِهِ فِي التَّطْيِيرِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ
أَحْدَهُمُ وَأَنشَدَهُ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُؤْذِنُ صَرْفُهُ بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّئْتُهَا عَلَى رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا فَأَيَّامُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَخَذْ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ وَكُنْ حَذِرًا مِنْ كَامِنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكْرَ الْفَالِ وَالزَّجْرِ وَاطَّرِحْ تَطْيِيرَ جَارٍ أَوْ تَفَاوُلَ صَاحِبِ

فَبَقِيَ ابْنُ الرُّومِيِّ بَاهِتًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَبَيَّنَ الْحَاضِرُونَ أَنَّهُ شَغَلَ قَلْبَهُ بِحِفْظِ
هَذِهِ الْأَبْيَاتِ

أَفِيحَسِبُ الْقَارِئُ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ - وَهِيَ وَسَطٌ فِي أَلْفَاظِهَا
وَمَعَانِيهَا - كَانَتْ تَشْغُلُ مِثْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ ، وَتُظْفِرُ بِاحْتِلَالِ قَلْبِهِ ، لَوْلَا بَغْضُهُ
لِلتَّطْيِيرِ ، وَمِثْلَهُ مِنْ تِلْكَ الْوَسُوسَةِ الَّتِي كَدَّرَتْ عَلَيْهِ مَوَارِدَ الْحَيَاةِ ؟
إِنَّ النَّاقِدَ مَفْرُوضٌ فِيهِ الْبُرْءُ مِنْ جَمِيعِ الْأَغْرَاضِ ، لِأَنَّ النِّقْدَ نَوْعٌ مِنَ
الْقَضَاءِ ، فَذَا سَيَّطَرَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةٌ خَاصَّةٌ صَيَّرَتْ حُكْمَهُ طُعْمَةً لِلظُّنُونِ ،
وَسِوَاءُ فِي ذَلِكَ الْأَفْكَارِ الدِّينِيَّةِ ، وَالنَّزْعَاتِ الْجَنْسِيَّةِ ، وَالِاتِّجَاهَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي
تَصْبِغُ التَّفَكِيرَ بِلَوْنٍ خَاصٍ .

إِنَّ الشَّعْرَ الْوَسَطَ قَدْ يُوَثِّرُ تَأْثِيرَ الشَّعْرِ الْبَدِيعِ حِينَ تَسْتَعِذُّ لَهُ النَّفْسُ ،
وَلَكِنْ هَذَا التَّأْثِيرُ لَا يَسْمُو بِالشَّعْرِ الْوَسَطِ إِلَى مَنْزِلَةِ الشَّعْرِ الْجَيِّدِ ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ
ذَلِكَ مَا رَوَى مِنْ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ تَزَوَّجَ جَارِيَةً مِنْ رَهْطِهِ وَطَمَعَ فِي أَنْ

تلد له غلاماً ، فولدت له جارية فهجرها وهجر منزلها ، وصار يأوى إلى غير

بيتها ، فرّ بجباؤها بعد حول ، وإذا هي تُرقص بنتها ، وهي تقول :

مَا لِأَبِي حَمَزَةٍ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضَبَانِ أَنْ لَا تَلِدَ الْبَنِينَ تَالَهُ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا

نُنبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء ، فقبلها وقبل

أبنتها ، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية في ألفاظها ومعانيها ، ولكن لا تنس أن

الرجل الذي نالت من نفسه ، وراضته بعد جموحه : رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه

إلى زوجه وأبنته ، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لأحراق الهشيم ! فليست تدل

هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات ، وإنما هي شاهدٌ « على ضرب

من المعاملات ، وعلى أحوال الاجتماع ، وعلى ما للمرأة من لين الجانب

ورقة الأخلاق » (١) .

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من

الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس ، وصُور العقول .

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة

قومية أو حزبية ، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدّروا للفصل

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦

بين شعراء الأحزاب ، وإنك لتجد أمثلة ذلك منشورة هنا وهناك : حين ترجع للعصور التي أصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية ، وحين تُراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر ، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده :

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا	أَبْدَى النَّوَاجِذَ يَوْمَ عَارِمٍ ذَكَرُ ^(١)
الْخَائِضُ الْغَمْرَةُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ	خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعَصِمُونَ بِهَا	مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُسْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَافُو الْخَنَا أَنْفُ	إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
لَا يَسْتَقِلُّ ذَوْوُ الْأَصْغَانِ حَرَبُهُمْ	وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ
شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ	وَأَوْسَعُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ^(٢)
هُمْ الَّذِينَ يَبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا	قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا
بَنِي أُمَيَّةَ نِعْمَا كُمْ مُجَلَّلَةٌ	تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرُ

أقول : لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال :
الأنادي في الناس أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : حسبي شهادتك
يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك ، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان ، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية ، فقد كان الأخطل سليط اللسان خبيث الهجاء ، وكان عبد الملك قد استعان به

(١) العارم : الشديد ، والنواجذ : الأياب . (٢) شمس : جمع شمس ، وهو الصعب المراس .

على لدّع من يُثاؤهُ من رجال السياسة وشُعراء الأحزاب ، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه ، وكان ما رَوَوْا من أنه كان يحيئه وعليه جبة خزّ ، وفي عنقه صليب ذهب ، وفي ملاحه نشوة الصهباء ، مع أن عبد الملك خليفة المسامين ، والدين في عنفوانه ، والناس على نصره حِراس ، ولكن السياسة ، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتّاب وخطباء وشُعراء ، والحرص على تحقير المعارضين ، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل ، والحكم بأنه أشعر الناس !

ولو أن ابن رشيق تنبّه لهذا الغرض لما ظن أن المسامين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره ، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الاسلامية حين قال :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِأَكِلٍ لَحْمِ الْأَصَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَنْسًا بُكُورًا إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ^(١)
وَلَسْتُ مُنَادِيًا أَبَدًا بِلَيْلٍ كَمَثَلِ الْغَيْرِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلِجِ الصَّبَاحِ^(٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره ، وتقدمه على معاصريه ، ولذلك قال « ومن الفحول المتأخرين الأخطل ، وأسمه غياث بن غوث ، وكان نصرانياً من تغلب ، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادى عبد الملك بن مروان ، وأركبه ظهر جرير بن عطية

(١) العنس : النافة الصلبة .

(٢) الشمول : هي الحمر التي تعصف بالعقل كما تعصف بالنبات ريح الشمال .

ابن الخطافى ، وهو تقيّ مسلم . ثم قال : « وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبى سفيان ، وقيل بل بأخته هند بنت معاوية ، ولولا شعره لَقُتِلَ دونَ أَقَلِّ من ذلك ، وقد ردّ على جرير أقبح ردّ ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم ما لا ينجو مع مثله علوىّ فضلاً عن نصرانىّ » .

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره ، ولكنّ دفاعه عن بنى أمية ، وهجاءه لخصومهم ، كانا سبباً في تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء .

وكما كان عبد الملك يؤثّر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثّر شعر منصور النخعي ، ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر ، ولا العلم للعلم ، وإنما يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية ، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت النخعي من الرشيد ، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخى الآداب العربية ، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمارة العباس وأهله ومنافرتة لآل على ابن أبى طالب ، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الآيات :

بني حَسَنٍ وَقُلِّ لِبَنِي حُسَيْنٍ	عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي	وَأَحْلَامًا يَعِدْنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسَمُّونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي	مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ،

ولكن رسول الله وخاتم النبيين». ويذكرون أن الرشيد قال له : ماعدوت
ما في نفسي ، ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب ، كما قال صاحب
زهر الآداب ، مع أن للآية وجهاً غير هذا الوجه ، وتأويلاً غير هذا التأويل .
ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله :

أَلِ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمُو يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(١)
أَمِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٢)
إِلَّا مَصَالِتَ يَنْصُرُونَهُمُو بَظُبًا الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبْلِ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله . ففضى الرسول فوجده قد مات .
فقال الرشيد : لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها !^(٤)

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنة حين
تسيطر عليه فكرة حزبية ، أو قومية ، ولولا أنى أعرف في شعراء العصر
ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مسائرة الأحزاب ، خوفاً
من النقد والموازنة تحت وحي الأغراض ، ولهم العذر في هذا الدهاء ، فإن
الأمّة التي تكاد تصدّق أكثر ما يقال ، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا
حساباً لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بين الشخصية
الأدبية ، والشخصية السياسية ، فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزبا

(١) يتطامنون : يسكنون . (٢) الأزل : الشدة .

(٣) المصالت : جمع مصلت ، وهو المقدام ، والقنا الذبل : هى الظماء إلى الدم ، والمفرد ذابل ،
ويجمع أيضاً على ذوابل . (٤) فى كتاب : « المدائح النبوية فى الأدب العربى » . فصل مطول
عن اخلاص بعض الشعراء فى حب أهل البيت .

غير الحزب الذى أنصره ، وأكون فى الوقت نفسه نصيرك كعالم
أو أديب ، أو فنّان .

البحث الثالث

أنفس الشعراء

- ١ -

قد رَأَيْتَ أن الموازنة نوعٌ من النقد ، وهى كذلك نوع من الوصف ،
فالذى يُوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن
من التحديد ، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق فى دراسة حياة الشاعر الذى
يضع شعره فى الميزان ، وأن يَجتهد فى أن يرى الأشياء بعينه ، ويدركها
بشعوره ، ليستطع وزن ما يقول ، فان الشاعر إنما يؤدى «رسالته» إلى جيل
خاص فى قُطر خاص ، ومن التحكم أن تُطالبه بأن يرى الأشياء بعينك ،
ويدركها ببصيرتك ويتذوقها بوجدانك ، مع أن بينك وبينه مئات الفروق ،
وهو لم يعيش معك ولا لك ، وإنما خضع فى شعوره لغير ما تخضع له من
ظروف الزمان والمكان .

وقد رَأَيْتُ من الأدباء من يستنكر قول زهير فى دار محبوبته ، وقد
نال منها العفاء :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلَا يَأْ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ (١)

(١) لأيا عرفتُها ، وعرفتُها بعد لأى : أى بعد مشقة ، وهو تعبير جاهل لم يحيه فى العصر الحديث
إلا المنفلوطى رحمه الله . والحجة بالكسر : السنة .

وَهُوَ يَرَى أَنَّ هَذَا وَصَفٌ ضَمِيلٌ لِلدُّرُوسِ وَالْعَفَاءِ ، وَذَلِكَ غَفْلَةٌ ظَاهِرَةٌ ،
فَإِنْ مَنَازِلَ الْأَعْرَابِ تَعْفُو وَتَدْرُسُ فِي أَقَلِّ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ
لِدُرُوسِهَا عَشْرَاتِ الْعُقُودِ ؟

وَرَأَيْتُ مَنْ يَسْتَهْجِنُ ابْتِدَاءَ كَعْبِ بْنِ زَهِيرٍ بِقَوْلِهِ :

بَآتٍ سَعَادٌ قَقْلِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ
وَمَا سَعَادٌ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرَفِ مَكْحُولٌ
وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ أُنْشِدَتْ فِي حَضْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَمِنْ
الْأَدَبِ أَنْ لَا تَبْدَأَ بِالنَّسِيبِ ، وَهَذَا أَيْضًا خَطَأٌ لِأَنَّهُ بَدَأَ الشَّعْرَ بِالْغَزَلِ كَانَ مِنْ
التَّقَالِيدِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُسْتَمْلَحَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَنْكُرُهَا إِذْ ذَاكَ حَتَّى يُنْسَبَ كَعْبٌ
إِلَى مَا هُوَ مِنْهُ بَرَاءً .

وَكَانَ الْجَاظُ يَقُولُ : لَا أَعْرِفُ شَعْرًا يُفْضِلُ قَوْلَ أَبِي نَوَاسٍ :

وَدَارِ نَدَامَى عَطْلُوهَا وَأَدْجَلُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَدْتُ عَنْهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ حَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارِثُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقِسَى الْقَوَارِسُ
فَلِخَمَرٍ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ثُمَّ جَاءَ صَاحِبُ الْمَثَلِ السَّائِرِ ، فَقَالَ « فَصَاحَةُ هَذَا الشَّعْرِ عِنْدِي هِيَ
الْمُوصُوفَةُ لَا هَذَا الْمَعْنَى ، فَانْهَ لَا كَبِيرَ كُفْلَةٍ فِيهِ لِأَنَّ أَبَا نَوَاسٍ رَأَى كَأْسًا

من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة ، فان هذه الحمر لم تحمل إلا ماء يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلائس التي على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر .

فانظر كيف صغرت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان : « حكاية حال مشاهدة البصر » . مع أنه إنما عظم لذلك في عين الجاحظ .
ورأيت من ينكر قول ابن الدمينية :

وَلَوْ أَنَّنِي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبٌ^(١)
واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فتهية) وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية ، وأنه قال هذه الكلمة العذبة ، قبل أن يوجد التكلف في الفقه ، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء !

ومن النقاد من فضّل قول مسلم بن الوليد :

تَظَلَّمَ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءُ ظَلَامًا
واستقبح قول أبي نواس :

بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
استناداً إلى أن المال لا صوت له . وهذا أيضاً خطأ : لأن أبا نواس قريب العهد بـمال الأعراب ، ومال الأعراب ناطق ، وطالما اضطربت الإبل لسكين الجزار عند قدوم الضيفان .

(١) ابن الدمينية رقيق النسب ، وهو صاحب هذا البيت النفيس :

وإنّ لأستحيك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب

فَعَلَى الناقِد أن يَتَبَيَّنَ العَهْدَ الَّذِي عَاشَ فِيهِ الشَّاعِرُ ، وَأَنْ يُعْنَى فَوْقَ ذَلِكَ
بِمَعْرِفَةِ مَا دَرَسَهُ مِنَ الْأَدَبِ الْقَدِيمِ لِمَا لَدُنْكَ مِنَ الْأَثَرِ فِي أَذْوَاقِ الشُّعْرَاءِ .
فَقَدْ أَنْكَرُوا عَلَى شَوْقِي قَوْلَهُ :

ارْزُقْنِي السُّتْرَ وَحَيِّي بِالْجَبِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحَ الْمُبِينِ
وَقِنِي الْهُودَجَ فِيْنَا سَاعَةً نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
وَأُتْرِكِي فَضْلَ زِمَامِيهِ لَنَا نَتَنَاوَبُ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينُ

مع أن أم المحسنين إنما ركبته يومئذٍ سيارة تنهب الأرض ، ولكن
هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي ، لإيمانه في دراسة الشعر القديم ...
وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي سِيَارَةِ الدُّكْتُورِ مُحْجُوبٍ :

لَكُمْ فِي الْخُطِّ سَيَّارَةٌ حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَةِ
وَأَسْتَخْفُوا كَلِمَةً : « حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَةِ » . وَفَاتَهُمْ أَنَّ الدُّكْتُورَ مُحْجُوبَ
يَسْكُنُ فِي حَيٍّ قَدْ لَا يَعْرِفُ أَهْلَهُ غَيْرَ الْخَيْلِ ، وَالْبَغَالِ ، وَالْحَمِيرِ !
وَأَسْتَنْكَرُوا قَوْلَ حَافِظٍ عَلَى لِسَانِ الْيَتِيمِ :

أَمْشِي يُرْنَحْنِي الْأَسَى وَالْبُؤْسُ تَرْنِيحَ الشَّرَابِ
لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران ، ولكن حافظ
يرى هذه المناظر في الصباح والمساء^(١) .
وَأَسْتَغْفِرُوا قَوْلَ مَطْرَانَ فِي رِثَاءِ إِسْمَاعِيلِ صَبْرِي :

شُهْبٌ تَبِينُ فَمَا تَوُوبُ فَكَأَنَّهَا حَبٌّ يَدُوبُ

أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطَّلَا دُرَّرًا وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِي لُجِّ الدُّجَى طَفُو الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا فِيمَا يَتُوبُ

لأن مقام الرثاء يحل عن ذكر الحب والكأس ، وليس لك أن تشبه
الشهاب حين يغيب ، بالحب حين يذوب ، ولكن يجب أن نعرف كيف
يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه المراح .

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور :

ضَرَبُوا الْقَبَابَ عَلَى الشَّبَابِ وَثَوَّوْا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ
هَمْدُوا وَكُلُّ مُحَرِّكٍ يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي التُّرَابِ
نَزَلُوا عَلَى ذَنْبِ الْبَلَى فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الدُّثَّابِ
وَكَأَنَّهُمْ صَرَغَى كَرَى بِالنَّعَاقِ أَوْ صَرَغَى شَرَابِ
فَإِذَا صَحَّوْا وَتَذَبَّهَوْا فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالنَّائِبِ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية
مقتضى الحال ، وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحقته من شتى الألوان ، كما
أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية :

مَا أَنْتَ يَا أَرُونِيَا نَائِمٌ ؟ أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ ؟ أَمْ بَسَاطُ سُلَافِ
نَعْمَاؤُكَ الرِّيحَانُ إِلَّا أَنَّهُ مَسَتْ حَوَاشِيهِ تَقِيعَ رُغَافِ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبهه بتشبيهات ابن المعتز ؟

فقال أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله في الهلال :

أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عُنْبَرٍ

فقال له زدني ، فأنشده :

كَأَنَّ أَرْزُونَهَا غِيبَ سَمَاءٍ هَامِيَةٍ
مِدَاهِنُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذلك إنما يصف
ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن أنظر إذا وصفت
أين يقع قولي من الناس ، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام :

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِيَ الْجَنُوبِ مَطَارِفًا

مِنْ الْجَوِّ ذُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ

يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ عَلَى أُنْهَرٍ فِي أَصْفَرٍ إِثْرٌ مُبَيِّضٌ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلِ مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ
وقولي في صانع الرقاق :

مَا أَنَسَ لَا أَنَسَ خَبَازًا مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرِّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّمَحِ لِلْبَصَرِ
مَبَايِنَ رُؤُوسِهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةً وَبَيْنَ رُؤُوسِهَا قَوَرَاءَ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنَدَّاحُ دَائِرَةٌ فِي جُلَّةِ الْمَاءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع تشبيه
الآزريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك أن تقدم
ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز ، وهو يدحو الرقاق ، فان
السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتت لكل من الشعارين
ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق ، وإنما يجب عليك أن تعتمد إلى الشاعر
وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء ، فقد يكون

ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال .

- ٤ -

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية ،
لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوى في بداوته
أشعر من الحضري في حضارته ، كما قال أستاذنا المهدي ، ومعنى ذلك أن
البدوى قد يكون شعوره بالريح السَّموم في مجاهل البیداء أقوى من شعور
الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء .

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته :

فَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبِيرِ بِفِيهَا يُعْلُ بِهَ الزَّنَجِيلُ

بأقلَّ من قول الشريف الرضي :

يَسْمُنَ عَنْ بَرْدِ الْغَمَامِ وَبَرْدِهِ رَيَّانَ يُغْبِقُ بِالْمُدَامِ وَيُصْبِحُ
ولا يفضلهما من قال : « كَأَنِّي أَلْتَقِطُ مِنْ فِيهَا حَبَّ الرِّمَانِ » . لأن
الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر ، بغضَّ النظر عن تفاوت
الأوصاف ، فقد يكون الزنجيل أجمل ما تُعْطِرُ به الأفواه في البادية كما تكون
الحمر ، أو حَبَّ الرمان ، أحلى ما تُعْطِرُ به الشيايا في الحاضرة ، ولكل شعب
وجهة في تناول الأشياء .

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه :

أَنْتَ كَأَلْكَبٍ فِي حِفَاظِكَ لِلوَدِّ وَكَالْتَيْسٍ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر ، وإن كان جاسي اللفظ بادي الخيال ، لأنه
أعجب بما له من قوة الشاعرية ، وهي رُوح البيان ، ثم أسكنه قصرًا من

قصور بغداد ، وأستدعاه بعد ذلك ، وقد صقلته الحضارة ، فأنشده تلك الرؤية
البديعة التي يقول في أولها :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجَسْرِ

جَلَبْنَ الْهُوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرَى وَلَا أَدْرَى

أَعْدَنَ لِي الشَّوْقَ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنْ جَمْرًا عَلَى جَمْرٍ
سَامِنَ وَأَسَامِنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ^(١)
خَلِيلٍ مَا أَحَلَى الْهُوَى وَأَمَرَهُ وَأَعْرَفَنِي بِالْحُلُوِّ مِنْهُ وَبِالْمُرِّ
بِمَا يَنْتَنَّا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتِمَا

أَرَقَّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

والخلاصة أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية ، ويفاضل بين
بصيرة وبصيرة ، ويقارن بين إدراك وإدراك ، بغض النظر عن الفروق
الموضعية التي يقضى بها اختلاف الأقاليم ، والفوارق الزمنية التي يوجبها
اختلاف العصور . وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة ، ولكنها
ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته ، وأن يفنى في شخصية
الشاعر الذي يدرسه : بحيث يبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ،
ليَسْتَبْرَ كما قلت أغوار نفسه ، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء .

(١) المثقفة السمر : هي الرماح .

البحث الرابع

شعراء الأحزاب

- ١ -

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل ، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف ، وعلى الأخص إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية ، أو فتنة من الفتن السياسية ، فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب ، وثانيهما من الحزب المغلوب ، ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع ، وتُبقى العصبية الحزبية على ما ترك شاعر الأكثرية من الغثّ والسمين ، والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة الراشدة ، استناداً إلى ندرة ما روى من شعر ذلك العهد ، وقلة مَنْ عُرِف فيه من الشعراء .

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى الشعر والشعراء لترثوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس ، فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وغزيراً ، وكان الشعراء في كثرة وعزّة ، ولكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيه ، فعمد إلى إخفات صوتهم ، وكان ما أراد .

فان كنت في ريب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية :
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .

ثم اذ كر أن عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت
قالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أننا شعراء ،
هلكننا ! فأنزل الله :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » .

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم^(١) .

ومعنى ذلك أن الشعراء لا يُذم إلا إن أُعِدَّتْ به حَمَلَةٌ عَلَى النُّبُوَّةِ ، وإلا
فقد روى أن النبي عليه السلام قال ليلةً وهو في بعض أسفاره : أين
حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لييك يا رسول الله وسعديك ! قال :
اخذ ! فجعل يُنشد وَيُصْنِى إِلَيْهِ ، فما زال يستمع إليه وهو سائق
راحلته حتى فرغ من إنشاده ، فقال عليه السلام : لهذا أشدُّ عليهم من وقع
النَّبْلِ ، وروى أيضاً أنه قال له : اهجهم ! فوالله لِهَجَاؤُكَ أشدُّ عليهم من
وقع السهام ، في غَلَسِ الظلام ! وكذلك كان حسان يقول لأهل مكة :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كِدَاءُ^(٢)
يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُضْغِيَّاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ^(٣)

(١) راجع أسباب النزول . (٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند الحصب .

(٣) الأسل : الرماح ، ومفردها أسلة ، والأعنة جمع عنان ، وهو اللجام .

تَظَلُّ جِيَادَنَا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخَمْرِ النِّسَاءُ^(١)
فَإِذَا تُعْرِضُوا عَنَّا أُعْتَمِرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَأَنْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَالَا فَاصِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عُرَضَتِهَا اللَّقَاءُ^(٢)
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَائِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَحْتَلِطُ الدِّمَاءُ
وَجَبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ^(٣)
بَانَ سَيُوفُنَا تَرَكَتَكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتِهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ كَمَا خَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ

وإنما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لأنها تمثل خصومة ذلك
العهد أصدق تمثيل ، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول
يقارعون شعراء الرسول ، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء
يجمعون بين حسن القول وظلمة الارتياب ، وحسبك أن تعرف أنه كان
فيهم من يقول :

فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرَ يُمُو عَلَيْنَا وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذَهَبُ
ولكن رأى النبي أن يقضى قضاءً مبرماً على من عارضه من شعراء

(١) متمطرات : مسرعات ، وتلطمنهن النساء : تمشح ما عليهن من الغبار .

(٢) العرضة بالضم : المهمة . (٣) المغلغلة الرسالة : تحمل من بلد إلى بلد .

قريش ، وشعراء اليهود : لأن الدين في نفسه أعزّ من أن يُهادن أعداءه أو يُفتر عن حرب خصومه من الشعراء ، وكذلك باد وأتقرض ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد من الآثار الأدبية والفنية ، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون ، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأيد ، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة ، لم تلوثها الأغراض والأهواء ، وأقول : الأغراض والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة للاهواء الجاحمة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام من الوجهة الروحية ، والعقلية ، والاجتماعية .

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطّم الأركان ، مهدّم الجوانب ، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان ، ثم جاء الإسلام ، فلم يجد غير أتناقض من المهتم ، وأطلال من العزائم ، وخرائب من العقول والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية ، لترى كيف تقارعت الحجج ، وتداولت البراهين ، ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء ، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال : « فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ » . وبعنف الخصومة حين قال : « لِنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » . وبسحر البيان حين قال : « أَاهْتَنَّا

خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . وبشدة المكر حين قال : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . وبرجاحة العقل حين قال : « فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » .

ونعرد فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لَدَدِ شعراء اليهود ، وتوثب شعراء المشركين ، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية ، فرأيانهم يسرفون في بُغْضِ الشعر ، والنيل من الشعراء ، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكا أعجمياً ! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان - وقد قال قوم : إنها تنقض الوضوء - فقال :

بُنْتُ أَنْ فَتَاةً كُنْتُ أُخْطَبُهَا

عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثُمَّ قَامَ فَأَمَّ النَّاسَ !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفَثِ القول ؟ فأُشْد :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيدَا إِنْ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نِكَامِي سَا

وقال : إنما الرَفَثُ عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على السنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين ،

فرأيانهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر في فقهك

وورعك ؟ فأجاب : لا بُدَّ للمصدور أن ينفث !

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ دَرَزْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلَتَأَمَّ الْفُطُورُ
تَغْلَغَلَ حُبُّ عَشْمَةٍ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَلْفَى يَسِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

ورأيناهم يزعمون أن الامام الشافعى قال :

وَلَوْ لَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُرَى لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدٍ

ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين فى بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون

ليس من الأمور ذوات البال !

ولا أدل على هوان الشعر فى نظر الفقهاء من قول الغزالى : « وأما الشعر فكلام حسنهُ حسنٌ وقبيحهُ قبيح » . وهذا كله من أثر الحملة التى وجهت إلى الشعر والشعراء .

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التى كلف بها الانسان منذ عهد بعيد ، والمسامون ككل الأمم لم يكن لهم بُدٌّ من حياة الفنون ، وكذلك نهضوا داعين إلى رواية الشعر ، وإجازة الشعراء ، ولكنهم لم يدعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل ، وإنما دعوا إليه باسم الدين ، فقالوا ان النبى كان يرتجز بقول ابن رواحة ، وقد أصيبت إصبه فى إحدى المواقع :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

وحبروا الفصول الضافية فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء : فنسبوا

لأبى بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :

أَمِنْ طَيْفِ سَلَمَى بِالرَّمَاكِ الدَّمَائِثِ أَرِقْتَ أَوْ أَمْرٍ فِي الْعَشِيرَةِ حَادِثِ

ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات ، ونسبوا إلى علي طائفة من القصائد ، ونقل الفيروزابادي عن المازني وصوبه الزخشي أنه لم يصح أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين :

تِلْكَمُ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِي لِمَتَّقَتْنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنُ ذِمَّتِي لَهُمُ بِذَاتِ وَدَقَيْنٍ لَا يَعْقُو لَهَا أَثَرُ

وقال ابن رشيقي بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة :

« وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً ، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة . والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طوييت ، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به . »

وحسب الشعر هو انما أن تقول إنه مباح !

أقترى بعد هذا البيان أن في مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف ، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب ، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره ، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة ، ولنصل بها إلى علم اليقين ، فقلما تنفع الظنون .

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا تخطيت عهد النبوة ، وانحدرت إلى عهد بني أمية ، أو عصر بني العباس : هناك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال ، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية ، وشعراء

الأمويين في عصر بني العباس ، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان
العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية ،
ومنازعتهم السياسية ، وأكتفى الآن بمثال واحد ، ولو شئت لضربت لك
عشرات الأمثال :

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه الى دمشق قد وجد في
حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأيات :

أَيَا مَنْزِلًا بِالَّذِي أَصْبَحَ خَالِيًا	تَلَاعَبُ فِيهِ شَمَالٌ وَدَبُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْكَ يَبِضٌ أَوْ أُنْسٌ	وَلَمْ تَتَبَخَّرْ فِي فِئَاثِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أَمْلَاكِ عِبَاشِمُ سَادَةٌ	صَغِيرُهُمْ عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ
إِذَا لَبَسُوا أَذْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسُ	وَإِنْ لَبَسُوا تِيَجَانَهُمْ فَبُدُورُ (١)
عَلَى أُنْبَهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَاغِمُ	وَأَنَّهُمْ يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ
لِيَالِي هِشَامٍ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنُ	وَفِيكَ أَبْنَةُ يَادِيرُ وَهُوَ أَمِيرُ
إِذِ الْعَيْشُ غَضُّهُ وَالْخِلَافَةُ لَذَنُ	وَأَنْتَ طَرِيرُ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ
وَرَوْضُكَ مُرْتَاضٌ وَنُورُكَ نِيرُ	وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ
بَلَى فَسَقَاكَ اللَّهُ صَوْبَ سَحَابٍ	عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرِّوَاكِ بُكُورُ
تَدَكَّرْتُ قَوْمِي خَالِيًا فَبَكَيْتُهُمْ	بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ	لَهُمْ بِأَلَّتِي تَهْوَى النُّفُوسُ يَدُورُ
فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسُ	وَيُطْلَقَ مِنْ ضَيْقِ الْوَثَاقِ أَسِيرُ
رُؤْيَاكَ إِنَّ الْيَوْمَ يَتَّبَعُهُ غَدُ	وَإِنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراى وسأله عنها ،
فأنكر أن يكون علم من كتبها ، فهم بقتله ، فسأله الندماء فيه ، وقالوا :
ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة . فتركه . ثم بان أن الأبيات من شعر
رجل من ولد روح بن زنباع الجذامى من أخوال ولد هاشم بن عبد الملك .
وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب ، وتهدمت
صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسى فيما خلا من العصور ،
وكلنا يدكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد .
ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط
بهما من مختلف الظروف ليكون فى حكمه قريباً من الصواب ، فقد رأينا
كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ .

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف : إن الموازنة نوع من القضاء ، والآن نريد أن نبين أن
الناقد كالقاضى ، فكما يجب على الحكم أن يُنَزَّه نفسه عن جميع الأغراض
حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك يجب على الناقد أن يبرىء نفسه من
جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء .

فاذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك ، فإن رأيت

في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين ، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع ، وآنت في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد - ولعالم الأدب أيضاً رسوم وتقاليد - فتقدم إلى الموازنة ، وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين .

وأنا ذا كَرِهْتُ لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة ، ومن يؤبه إليه في علم الشعر ، مجلس بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحثري ، وتفضيله إياه على أبي تمام ، ووجدت صاحب المجلس مُؤثِّراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى ، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحثري إنجاءً أسرفت فيه ، وأقصدت زناد الرجل : فتكلم وتكلمت ، وخضنا في أفانين من التفضيل والمائلة ، غلوت في جميعها غلوّاً شهدته جميع من حضر ، وخضنا في أفانين في المجلس ، وكانوا جِلَّةَ الوقت وأعيان الفضل ، فاضطُّرُّ إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدىء ، ولا أن يخرج ، ولا أن يختم ، ولو لم يكن للبحثري عليه من الفضل إلا حسن ابتدائه ، ولطف خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقع التسليم له ، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاظة وجدة ؟

ثم أقبل على فقال : أين يذهب بك عن ابتدائه :

عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبُّ حَتَّى أَضَاءَ الْأَقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ (١)
وَأَخْضَرَ مَوْشَى الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَأَ مِنْهُمْ دِيْبَاجُ الْخُدُودِ الْمَذْهَبُ
وَأَيْنَ لِأَبِي تَمَامٍ مِثْلَ خُرُوجِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

أَدَارَهُمُ الْأُولَى بِدَارَةِ جُلْجُلٍ سَقَاكِ الْحَيَا رِيْحَانُهُ وَبَوَاكِرُهُ
وَجَاكِ يَحْكِي يُوسَفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتَكِ رِيَاهُ وَجَادِكِ مَاطِرُهُ
وَأَتَى لِأَبِي تَمَامٍ مِثْلَ حَسَنِ انْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

إِلَيْكَ الْقَوَافِي نَارِعَاتٍ شَوَارِدَا يُسَيِّرُ صَافِي وَشَيْهَا وَيَنْتَمِمُ
وَمُشْرِقَةً فِي النِّظْمِ غُرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَتَبَّهَا لَكَ تَنْظُمُ
وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أَلَسْتُ الْمَوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ أُقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ الْأَنْجُمَا
ثَنَاءً تَخَالُ الرُّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرَا ضُحَى وَتَخَالُ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمَّنَا
وَلَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْتَرِيُّ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي قَوْلِهِ :

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْمِعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاوراة التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارىء إلى اختبار « نفسية » الحاتمي صاحب هذا الحديث ، فاناجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظره للبحتري ، وتفضيله إياه على أبي تمام ، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحتري ليقندح زناد خصمه ، وأنه غلا في المائلة غلوًا شهدده

(١) الأشنب : من الشنب بفتحين ، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان .

جميع من حضر ، وأنه أضطرَّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن
الابتداء ، ولا الخروج ، ولا الانتهاء ، إلى آخر ما قال .

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة ، وهي مصحوبة بهذا العمد ، ومسبوقة
بذلك الإصرار ؟

ثم قال : « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، وكأن الجماعة أعجبهم
ذلك عصبية على لا على أبي تمام ، لأنني كنت كالشَّجَا معترضاً في
لهواتهم ، وأسرَّ كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئ به إلى استيلاء الرجل
على ، فلما استتم كلامه ، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت
فقلت : لست ممن يُقَعِّعُ له بالخصي ، أو تقرر له العصا ، لا إله إلا الله !
استنَّت الفِصَالُ حتى القَرْعُ ! هل هذه إلّا عَوَانٌ مقترعة ، قد تقدم
أبو تمام إلى سَبْكِ نضارها ، واقتضاض أبقارها : وجرى البحتري على
وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها . »

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين ،
وإنما هي مُقَارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه ، وأن
يفوز باعجاب الحاضرين ، ألا ترى كيف فطن الخاتمي إلى رضى الجماعة عن
فوز البحتري ، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام ، وكيف أسرَّ
كل واحد منهم إلى صاحبه مشيراً إلى استيلاء الرجل عليه ، ثم انظر كيف
غضب وكيف ثار : لترى أنه لم يغضب للحق ، وإنما غضب لنفسه ،
ولم ينتصر للأدب ، وإنما انتصر لهواه .

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطباً الدار :

وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوَّتَكَ رِيَّاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ
مأخوذ من قول أبي تمام :

وَيُؤْتِيهَا فِي الْقَلْبِ نُؤْيُ شَفَهُ وَلَهُ بِظَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ
وَكَأَنَّمَا اسْتَسْقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ مِنْ سَوْمٍ مِنْ مَنِ الْحَيَا فِي زُخْرَفِ
وَأَنْ الْبَحْتَرَى أَخَذَ قَوْلُهُ :

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل أحد لفظاً رشيماً ومعنى دقيقاً :

دِيمَةٌ سَمَحَةٌ الْقِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَعِيثٌ بِهَا التَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بَقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نَعْمَى لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ
وَأَنْ قَوْلُهُ فِي صِفَةِ الْقَوَافِي :

يُسِيرُ ضَافِي وَشَيْهَا وَيَنْتَمِ

وقوله في صفتها :

ثَنَاءٌ تَخَالُ الرُّوضَ فِيهِ مُنَوَّرَا ضَعَى وَتَخَالُ الْوَشَى فِيهِ مُنَمَّمَا
إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامَ :

حَلُّوا بِهَا عُقْدَ النَّسِيمِ وَتَمَنَّمُوا مِنْ وَشَيْهَا لَشَرًّا لَهَا وَقَصِيدَا
ومن قوله الذي أبدع فيه :

وَاللَّهِ لَا أَفْكَ أَهْدَى شَوَارِدَا إِلَيْكَ تَحْمَلُنَ الثَّنَاءَ الْمُبَجَّلَا
تَخَالُ بِهِ بُرْدَا عَلَيْكَ مُحَبَّرَا وَتَحْسِبُهُ عِقْدَا عَلَيْكَ مَفْصَلَا
الَّذِي مِنَ السَّلَوى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً مِنْ الْمِسْكِ مَفْتُونَا وَأَيْسَرَ مَحْمَلَا
أَخَفَّ عَلَى قَلْبِي وَأَثْقَلَ قِيَمَةً وَأَقْصَرَ فِي قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأَطْوَلَا

وأن قول البحتري :

هِيَ الْأَنْجُمُ أَقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ الْأَنْجُمَا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء إحسانه حيث يقول :
أَصْحَ تَسْتَمِعُ حُرَّ الْقَوَافِي فَأَنْبَهَا كَوَاكِبُ إِلَّا أَنْهَنَ سَعُودُ
وَلَا يُمْكِنُ الْإِخْلَاقُ مِنْهَا فَإِنَّمَا يَلْدُ لِبَاسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدُ
وبعد بيان هذه المأخذ يذكر الحاتمي أنه قال لمناظره :

«فهذه خصال صاحبك فيما عدته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره،
ونشرت مطوى أسرارهِ . حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية
مرتجعة ، ووديعه منتزعة» .

والعناد ظاهر في هذا الكلام .

ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته ، ونماذج من
حسن تخلصه ، ولطف اقتضابه ، وبراعة وصفه للقوافي ، فاستحسن
ابتدائه إذ قال :

لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدَّيَّارُ دِيَّارُ خَفَّ الْهُوَى وَتَقَضَّتِ الْأَوْطَارُ

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدئ بمثل ابتدائه حيث يقول :

طَلَلَ الْجَمِيعَ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَلِكَ شَهِيدَا
دِمْنٌ كَانَ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِبَا دَيْنًا لَدَى آرْمَهَا وَحُقُودَا

وحيث يقول :

مَا فِي وَفُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْضِي حُقُوقَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تَجُودَ بِدَمْعِهَا وَالْذَمُّعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُؤَاسِي

وَأَسْتَمْلِحَ اقْتِضَابَهُ حِينَ قَالَ :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالشُّيُوفُ عَوَارٍ فَخَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

وَأَسْتَجَادَ تَخْلُصَهُ إِذْ يَقُولُ :

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا أَقْوَاتَهَا لِيَصْرِفَ الْإِحْرَاسَ

فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرَّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَاسِ

الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ فِيهِمْ وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِ

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطع أحد وصفها به فقال :

جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ سَمَطَانٍ فِيهَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ

إِنْسِيَّةٌ وَخَشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِهَا حَرَكَاتُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سُكُونُ

يَنْبُوعُهَا خَضِلٌ وَحَلَى قَرِيضُهَا حَلَى الْهَدَى وَلَسِيْجُهَا مَوْضُونُ

قَدْ حَاكَهَا صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمْدُهُ حَسْبُ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامَ مَعِينُ

أَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ أَبْكَارُ إِذَا نُصَّتْ وَلَكِنَّ الْقَوَافِي عَوْنُ

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي ، وهو طويل ذكره برمته صاحب

زهر الآداب ، والذي يعينني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحتری

والإصرار على كبت منافسه ، وظهوره عليه ، وظفره به ، وانظر كيف

يقول في ختام هذا الحديث : « هل يستطيع أحد أن ينسب هذا ، أو شيئاً

منه إلى السرقة والاختلاس ؟ وهل يستطيع مماثلته بشئ من شعر

البحتری ، أو أشعار المحدثين في عصره ، ومن قبله ؟ فعي عن الجواب

قصوراً ، وأحجم عن المساجلة تقصيراً ، وحكمت الجماعة لى بالقهر ، وعليه

بالنصر ، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة

البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين ، وكان يوماً مشهوداً» (١).

٢

وهذا النوع من النقد لا قيمة له ، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور في مناهج القدماء ، فقد كان بشار يقول : أنا أشعر الناس ، فإذا سُئِلَ في ذلك أجاب بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر ، ومن ندرله اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس . وكانوا يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق ، ثم يفضلون جريراً لأنه قال :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبَلْبُكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غِيَضُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنِي لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

فإذا سألتهم كيف سما جريراً بهذين البيتين حتى بدّ الفرزدق ؟ أجابوك بأن الفرزدق في فسوقه وفجوره ، لم يُجِدِ التشبيب كما أجاده جرير في تحرّجه وعفاهه ، وقد يقولون : جرير أشعر لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم يبكها إلا برائية جرير في أمراته ، وهي القصيدة التي مطلعها :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي أَسْتَعْبَارُ وَلَزَرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وكانوا إذا ذُكِرَ شعراء الجاهلية قدم فريقٌ منهم امرأ القيس لقوله :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ خَوْمِلِ

وقالوا : إنه بكى وأستبكى وذكر الأعبة في بيت واحد !!

(١) ومع هذا التحامل كان الحاتمي من أئمة النقد الأدبي . انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني : من كتاب « النثر الفني » لترى قيمة هذا النافذ ، وتعرف ماله وما عليه .

وقدم آخرون النابغة الذبياني لقوله :
 بُنْتُ أَنْ أَبَا قَابُسٍ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
 أولقوله :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ
 ومنهم من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار :
 أَنَا وَاللَّهِ أَشْهَى سِحْرَ عَيْنِيكَ وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَاقِ
 وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْتٍ قَالَهُ الْعَرَبُ قَوْلُ أَبِي ذُوَيْبٍ الْهَذَلِي :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة ، لنقد الشعر
 والنثر غير ذلك المنهج الذي يرتكز على تأمل الشطرة في نقد الشعر ،
 والفقرة في نقد النثر ، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين ، فتراهم
 يُعْنَوْنَ حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ
 وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم والوضع
 الجديد . وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء ،
 فلم يجد وجهاً لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ ، فرد عليه
 الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ ، فحافظ إبراهيم
 مخطئ في نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة ، وهو مصيب في
 نظر علام سلامة لقربه من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة ، والفقرة ، واللفظة ، لا يقدم

ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء ، فلا يمكن أن تصبح الخطبة ، أو الرسالة ، أو القصيدة جيدة : لأن ألفاظها جميعاً مختارة ، ولا أن تسمى سقيمة : لأن فيها ألفاظاً نائية ، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يعنى به الكاتب ، والشاعر ، والخطيب . وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية : « الصور الشعرية » . وحين أتكلم عن إعجاز القرآن . وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي تركز على استقراء الآيات المختارة في الموازنة بين الشعراء ، فإن كان في ريب مما أسلفناه فيجب على هذا السؤال : أيرضيه أن أقول إن شوقي أشعر الناس لقوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه . نازعتني إليه في الخلد نفسي

ومطران أشعر الناس لقوله :

بنات الدهر عوجي لاتبابي خلا الوادي من الأسد الغضاب

وحافظ أشعر الناس لقوله :

عمدتم على عز الجمد وذلنا فأغليتموطينا وأرخصتمودما

إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطة المهمة ، لأنها تبيح لمثل أن يزعم أنه أشعر الناس لأنه يقول :

بقية من صباك الغض باقية وجذوة من غرامي وقدها باقية

تعال نحني شهيد اللهو ثانية

ونصرع الهم بين الكأس والساق

البحث السادس

الحاسة الفنية

- ١ -

هذا تعبيرٌ حديث يقابل : « سلامة الذوق » . أو : « الذوق السليم » .
في عُرف المتقدمين ، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق لأن
فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجد في التعبير القديم ، وهي ترجمة
لكلمة Sens التي يُراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز ،
أو قوة الإدراك ، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة :
« الذوق » . فأنها قد تكون بمعنى الشعور بالحُسْن ، وقد تكون عبارة عن
الميل الخاص .

وقد بينا في البحث الأول : أنه يجب أن يصل من يتصدّر للموازنة
بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب ، وأن يصبح وله في النقد حاسة
فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض ،
وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر ، بل لأنه طَرَقَ
موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه ، وقد لا يكون ما سمعه ،
أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ، ثم ضربنا لذلك الأمثال .

والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل : فنذكر
كيف عوّل عليها المتقدمون من رجال البيان ، ونبين الوسيلة إلى الظفر

بهذه الموهبة العزيزة المنال ، ثم نيط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة ، التي لا تظهر ظهوراً جلياً إلا حين تمنع في الخفاء .

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وأن الثربة والادمان أجدي على القارئ نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً ، وأنهما يُريانه الخير عياناً ، ويجعلان عسره من القول إمكاناً ، وكل جارحة منه قلباً ولساناً » . ويقول لقارئ كتابه « نخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدراك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طَبَعَ سيفاً ، ووضع في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال » (١) .

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تؤثر القارئ « الذوق » ولا تمنحه « الحاسة الفنية » . وإنما يكسب ذلك بالثربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ ، والقواعد لا تنفع من لا ذوق له : كما لا ينفع السيف من لا قلب له .

وَأِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالٌ (٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق ، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم ، والتذوق لجمال القول وسحر البيان . أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال - كما يفعل رجال

اللغة والرواية - فانه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية ، وهذا أبو العباس
المبرد كان في علمه واطّلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فلتة ،
أو التماس حاجة ، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه ، ثم لا يجد
سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ولا سبب لذلك فيما نرى إلا أن
المبرد لم يُعَنِّ بدرس أسرار البلاغة ، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية ،
والنحو ، والتصريف . ومن هنا لم يحسن الاختيار .

قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا
غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت
على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام
والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك الزيات .

ولم يبيّن الجاحظ سبب هذا ولا فسر له ابن رشيق ، وقد بينت لك
أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب
وشغفهم بالوقوف على سر البيان ، لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء ،
لا من طريق النقل ، والفرق بين الوجهين بعيد ، ومن ثمّ كان الكتاب :
« أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلام ألفاظاً وأطفهم
معاني ، وأقدرهم على التصرف ، وأبعدهم من التكلف » .^(١) وكانوا يرونهم
دهاقين الكلام ، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين ، كقول
إبراهيم بن العباس الصّولي :

(١) عبارة صاحب « العمدة » في أشعار الكتاب .

إِبْتِدَاءً بِالسَّجْنِ وَأَقْتِضَاءً بِالنَّظْرِ
وَأُسْتِفَاءً بِتَجَنُّدِ كَ لِأَعْدَائِكَ مِنِّي
بِأَبَى قُلُوبِي لِي لَكِي أَعُوذُ
قَدْ تَمَنَّى ذَاكَ أَعْدَاؤِي فَقَدْ نَالُوا التَّمَنِّي

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات :

قَامَ بِقَلْبِي وَقَعْدُ يَاصَاحِبَ الْقَصْرِ الَّذِي
لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجَلْدُ أَسْهَرَ عَيْنِي وَرَقَدَ
وَاعْطَشْتِي إِلَى فَمٍ يَمِجُّ خَمْراً مِنْ بَرْدِ
إِنْ قُسِمَ النَّاسُ خَفَسَ بِي بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ

وكقول ابن رشيقي :

قَدْ أَحْكَمْتَ مِنِّي التَّجَا رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ جُودِي
أَبْدًا أَقُولُ لَيْزَنَ كَسْبُ تِ لَا قَبِضَ يَدِي شَدِيدِ
حَتَّى إِذَا أَثَرَيْتُ عُذُ تِ إِلَى السَّمَاحَةِ مِنْ جَدِيدِ
إِنَّ الْمَقَامَ بِمِثْلِ حَا لِي لَا يَتِمُّ مَعَ الْقُعُودِ
لَا بُدَّ لِي مِنْ رِحْلَةٍ تُدْنِي مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي يقول : « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالحكاية كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ، ولا يحول في ميدان فسيح من المعاني ، ولا يقدر الأشياء قدرها ، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مزعزع ولا مدافع » .

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب) ، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ ، والمقارنة بين المفردات والأساليب ، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب ، ويدنيه من الفهم الصحيح .

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال ، ومع هذا يدّعيها جميع الناس ، وإنما كانت عزيزة المنال ، لأننا نزن بها البيان ، والبيان كالجمال كثير التعقيد . ألا ترى أنك لا تعتدّ برأى من يحسب البياض نصف الحسن ، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط ، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس ، والذي يُعرف بتناسب الأعضاء ، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذة التي يَهْشُّ لها صغار الأحلام من النساء والأطفال . أما الجمال المعقد - وما أروع الجمال المعقد - فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق ، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود ، وسحر العيون ، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك ، يرجع إلى دقائق من الحسن ، وغرائب من الملاحظة ، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال .

حدثني بربك كم في هذه « الأعداد » التي تراها في طريقك ممن يتذوّق جمال اللفّة ، والخطرة ، والمشية ؟ ، وكم فيهم ممن يتخطى سواد

العين ، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز وألغاز ، وفي العين ما شئت
وشاء السحر من اللبس والتعقيد !!

وكم فيهم ممن يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو وَحَبَّهَا عَجُوزًا وَمَنْ يُحِبُّ عَجُوزًا يُفْنَدِ
كَرْدُ الْيَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرَفَعَتْهُ مَاشِدَتْ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضرى حين قال :

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَزِيدَتْ مَلَاَحَةً

وَحُسْنًا عَلَى النَّسْوَانِ أَمْ لَيْسَ لِي عَقْلٌ

وهو الذى صدق فى وصفه أبو نواس إذ قال :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه مُعَقَّدٌ وبسيط . أما البيان البسيط فهو ذلك النوع

السهل الذى يفهمه سواد الناس كقول طرفة بن العبد :

سَتَبْدَى لَكَ الْآيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدِ

وكقول لبيد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَيْمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وكقول شوقي :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُوهُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ويكثر هذا النوع فى القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير ، كقوله

تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ

ثُمَّ لَا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُونَ عَنْهَا حَوْلًا : وكقوله عز شأنه . « وَمَا نُرْسِلُ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا يَسْتَكْبِرُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .
وكقوله تبارك اسمه : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا
إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات ، وقد تجب فيه البساطة
المطلقة حين يُسْتَعْدَمُ في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود ، وما إلى
ذلك مما تُحَدِّدُ به العلاقات بين الأمم والأفراد ، وهذا النوع لا يحتاج إلى
الحاسة الفنية ، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ
لَسِحْرًا » . والذي قيل فيه : « شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا : الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ » . وفي
الناس من يفتنه إشراق الديباجة ، وتخلبه رشاقة الأسلوب : كما يسحره الجبين
المشرق ، ويضله القدر الشيق .

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني ، فلست أريد
اللبس والغموض حين أتحدث عن البيان المعقد ، كما لا أريد الوجوه الملتوية
حين أتكلم عن الجمال المعقد ، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين
يكون للوجه الوسيم ، والأسلوب الجميل ، قوة في التأثير يحار في تعليلها
اللييب ، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين ،
ومن أَقْدَرُ من الشيطان على العبث بالعقول ؟

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة

فبُصِرَ فيها بالنبي عليه السلام ، وهو إذ ذاك غلام مُراهق ، فقال لمن حضر من القوم : إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لَبُوءة ، وتارةً بعيني عذارٍ خَفِرَة ، فلو أن نظرتَه الأولى كانت سهماً لا تنظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرتَه الثانية كانت نسيماً لأُشِرت أمواتكم ! هذه القصة فيها شئٌ من التعليل للجمال المعقد ، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس ، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعقَد إلا حين تُعقَدُ النفس ، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج ، أو كال ميدان تشتجر فيه الرِّماح ، أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان ، ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ... فما نظن أن صواحباته قطعن أيديهن ، وعذرُن فيه امرأة العزيز : لأسالة خده ، وسواد شعره ، وإشراق جبينه ، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تُضمَر ما تضمَر من دقائق الغيوب ، تلك النفس الجبارة السحَّارة ، القاهرة ، تلك النفس المفردة في عالم النفوس ، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد تمزيق القلوب . وسبحان من يعلم ما كان يحول بخاطر ذلك الغلام الجميل محمد ابن عبد الله ، وهو في دار الندوة ، حتى حار ذلك القَيل في أمره ، فلم يذرَ أن ينظر بعيني لَبُوءة ، أم بعيني عذارٍ خَفِرَة ؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان يُعدّه لحمل الرسالة ، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يَرِنُ في أجواز الوجود .

ولبيان المعقد مثل هذا النصيب من بُعد الغور ، ودقة المدلول ، فهو ذلك النوع المُعْجَز الذي تسكن إليه القلوب ، وتحمّر في تعليله العقول ،

هو ذلك النوع الذى يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ، ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به ، ويحارون فى تعليل حُسْنِهِ ، ثم لا يُحْسِن واصلهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال .

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارةً يرتكز على سمو الخيال ، كقول بعض الحكماء : « من غَمَس يده فى مال السلطان ، فقد مشى بقدمه على دمه » . وفى هذه الحكمة من روعة التخيل ، وحسن التصوير ، ما يدهش العقول ، ويحير الألباب . وكقول أرطاة بن سُهَيْبَة المُرِّي :

فَلَوْ أَنَّ مَا نَعْطَى مِنَ الْمَالِ نَبْتَعِ بِهِ الْحَمْدَ يُعْطَى مِثْلُهُ زَاخِرُ الْبَحْرِ
لَظَلَّتْ قَرَايِرٌ صِيَامًا بِظَاهِرٍ

مِنَ الضَّحْلِ كَانَتْ قَبْلُ فِي لُجَجِ خُضْرٍ (١)

فقد صور لك البحر الذى عجزت عن حربه الليالى بصورة بَشَعَة خفيفة يهابها الوهم وتغامها الضنون ، فهو يذكر أن البحر الزاخر ، الذى يُجِنُّ مَا يُجِنُّ ، ويظهر ما يُظهر ، والذى يروعك منظره ، ويهولك مخبره ، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد فى سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُباباتٍ من الماء ، وقد كانت قبلُ فى لُجَجٍ رهية السواد ، وهذه

(١) القراير السفن : والمفرد قرقر على وزن عصفور ، وصيام السفن : ركودها ، والضحل : الماء القليل لا عمق له ، واللجج الخضر : هى السواد .

الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد ، وإن
عزّ البحر عن النظائر ، وجلّ عن الأشباه .

ومن رائع الخيال قول أبي نواس :

أَلَا أَرَى مِثْلِي أُمْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمِ

تَغَصُّ بِهِ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهْمِي

أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَظَنَنْتِي كَلَا ظَنٍّ وَعِلْمِي كَلَا عِلْمٍ
فأنت تراه ، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء ، وغيره
الدروس ، حتى أرتاب فيه ، وغصت به عينه ، ولفظه وهمه ، ثم أغرقك
في بحر من التخيّل حين قال :

أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَظَنَنْتِي كَلَا ظَنٍّ وَعِلْمِي كَلَا عِلْمٍ

وعليك أن تستوعب هذا المعنى ، فقد فتحت لك الباب .

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُوَابَةٌ شَارِبٌ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ
وكان يقول : قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل ! وهذا
كما ترى أبدع ما يُصوّرُ به النشوان .

ولا تنس القرآن ، فانه غاية الغايات في روعة الخيال ، وأنظر قوله تعالى :

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ » .

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بآساء الحياة ، ورأى كيف

يكون هَوَجُ الريح ، وجنون الموج ، وعسف الظلام ، وكم في الحياة من أهوال !

وقد يركز البيان المعقد على بساطة الأداء ، وهذا أحسن تأويل لكلمة : «المطعم الممتع» فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير ، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك وأمتنع ، وإليك قول ابن الدمينه يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة ، وبالصلابة حين يجور اللاثمون :

وَكُونِي عَلَى الْوَاشِينَ لَدَاءَ شَعْبَةٍ كَمَا أَنَا بِالْوَاشِي أَلَدُ شَعُوبُ
وَكُونِي إِذَا مَالُوا عَلَيْكَ صَلِيبَةً كَمَا أَنَا إِنْ مَالُوا عَلَيَّ صَلِيبُ
فهذا كلام سهل ، يسكن إليه القلب ، وتخلد إليه النفس ، ولكنه يعز على من يرومه ، ويطول على من يسمو إلى محاكاته . ومثله في بساطته ودقته قول بعض الأعراب :

إِذَا اجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبْرِحُ وَالْهَوَى عَلَى الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ
وهي فسكاهة رقيقة ييسم لها نعر الحزين . وأظرف منه قول الآخر ، وقد تردت عليه امرأته وضربت على إيدائه :

يَا رَبِّ إِنْ قَتَلْتَهَا فَعُدْ لَهَا فَلَنْ تَمُوتَ أَوْ تُجِيدَ قَتْلَهَا
فقد مثلها بالحية النضناض ، التي يُقَتِّلُهَا المرءُ تقتيلاً ، ثم لا تزال تبدو لعينيه ، وكأنها تسعى :

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين : من شاعر ،

أو كاتب أو خطيب ، فان هناك نفوساً خطرة قد تُضلكَ ، وقد تهديك
حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون . وأنظر قول موسى بن جابر ، وقد
رأى تجمع الأعداء وتوثبهم :

وَقُلْتُ لَزِيدٍ لَا تُتَرَتِرْ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
فَإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فَضَعَهَا وَإِنْ أَبَوْا
فَعَرَضَةُ عَضِّ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي
وَإِنْ رَفَعُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتِي تَرَى

فَشُبُّ وَفُودِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ
فهذه النفس المعقدة في أغراضها وراميها هي التي وقفك موقف الحيرة
أمام هذه الآيات ، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه شجاعته ، ولا
إقدامه ، ما يحيط به من عظامم الأخطار ، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالذر
والرفق ، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء ، وإلى شُبِّ وفودها
بالحطب الجزل إن أبوا إلا القتال ، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة ،
وقلَّ من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال .

وأنظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء :
وَقُلْتُ لِغَلَاقٍ بَعِيرٍ نَانَ مَا تَرَى فَمَا كَادَ لِي عَنْ ظَهْرٍ وَاضِحَةٍ يُبْدِي
تَيْسَمَ كَرْهًا وَأُسْتَبْنْتُ الَّذِي بِهِ

مِنَ الْحَزَنِ الْبَادِي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ
إِذَا الْمَرْءُ أَعْرَاهُ الصَّدِيقُ بَدَتْ لَهُ
بِأَرْضِ الْأَعَادِي بَعْضُ أَلْوَانِهَا الرُّبْدِ

وتلك أيها القارئ خواصَّ يُراد بها التقريب لا التحديد ، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية ، وهى قد تدقَّ حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ . والآمدى يضرب المثل بالفرسَيْنِ السليمين من كل عيب ، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية ، وبالجاريتين البارعتين فى الجمال السليمتين من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلاً كبيراً ، بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق ، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دُرْبته وطول ملاسته ، وكذلك الشعر ، كما يقول الآمدى ، قد يتقارب البيتان الجيّدان النادران ، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود : إن كان معناهما واحداً ، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفاً^(١) .

وحكى إسحاق الموصلى قال : سألتى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما . فاخترت فقال : من أين فضّلت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقارباً ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبرُ عنه اللسان .

والطبيعة فى كلام إسحاق : هى ما نريده من الحاسة الفنية . وفى هذا القدر كفاية ، فقد طال بنا الحديث .

(١) انظر تفصيل رأى الآمدى فى الجزء الثانى من كتاب : «النثر الفنى» .

البحث السابع

خطر الإبهام والغموض

- ١ -

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة ، لا إبهام فيها ولا غموض ، ليظفر الناقد باقتناع القارئ ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان .

وأخطر ما يعرض للنقد والمماثلة أن يعتمد الموازن إلى التعابير المصنوعة في قوالب المجاز ، فانها بنس الأداة في الفصل بين الشعراء ، كأن يقول : « هذا شعر أبدت صدوره متونه ، وزهت في وجوهه عيونه ، وانتادت كواهل لهواديه ، وأشبه الروض في وشى ألوانه وإشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشى في اتفاق رُقومه ، واتساع رُسومه ، وتسطير كفوفه ، وتجبير حروفه ، وحكى العقد في التثام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان يا قوته بدرّه ، وفريده بشذره ، قد كشف الإيجاز موارد ، وصقلت مداوس الثربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله » .

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشئ في وصف الشعر الجميل ، وهو صاحب هذه المنظومة :

الشَّعْرُ مَا قَوَّمتَ زَيْغَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بِالتَّهْذِيبِ أَسْرَ مُتُونِهِ

وَرَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِيحَازِ غَوْرَ عُيُونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ وَوَصَلْتَ بَيْنَ مُجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَعَهَدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِي شَبَهَا بِهِ فَقَرْنَتْهُ بِقَرِينِهِ
وهي منظومة طويلة عنى بها المتقدمون ، كما عُنُوا بمنظومته الأخرى التي
يقول فيها :

إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي النَّظْمِ م وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونًا
فَاتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاطِرِينَا
فَكَانَ الْأَلْفَاظَ فِيهِ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَنَ فِيهِ عُيُونَا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يعنى في تحديد الموصوف : بل يلقى
عليه أستاراً من اللبس والغموض ، فانه لا قيمة لمدح الشعر بتقويم زيغ
صدوره ، وشد أسر مؤنونه ، والجمع بين قريبه وبعيده ، والوصل بين مجمه
ومعينه ، وما إلى ذلك من الصفات المهمة التي يغرم بها المتكلفون .

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في مقاماته إذ قال : « جلسنا
يوماً نتذاكر الشعر والشعراء ، وتلقأنا شاباً قد جلس غير بعيد ينصت
وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر
الجدل فينا ذيله ، قال أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو شئت للفظت ،
ولو أردت لسردت ، وجلوت الحق في معرض بيان يسمع الضم ، ويردى

العُصم ، فقلت يا فاضل أدن فقد منّيت ، وهات فقد أثّنت ، فدنا وقال :
سلونى أجبكم ، واستمعوا أعجبكم .

قلنا : فما تقول فى امرى القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ،
وأغتدى والطيرُ فى وُكُناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر
كاسباً ، ولم يُجد القول راغباً ، ففضل من تفقّق للحيلة لسانه ، وأنتجع
للرغبة بنانه .

قلنا : وما تقول فى النابغة ؟ قال : ينسب إذا عشق ، ويشلب إذا حنق ،
ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، فلا يرمى إلا صائباً .

قلنا فما تقول فى طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى
ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه .

قلنا : فما تقول فى جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً ، وأغزر
غدرًا ، والفرزدق أمتن ضميرًا ، وأكثر نخرًا ، وجرير أوجع هجوأ ،
وأشرف يومًا ، والفرزدق أكثر رَوْمًا ، وأكرم قومًا ، وجرير إذا نسب
أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا وصف أوفى ،
وإذا احتقر أزرى .

قلنا : فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال :
« المتقدمون أشرف لفظًا ، وأكثر فى المعانى حظًا ، والمتأخرون أطف
صنمًا ، وأرق نسجًا » .

ولو عُدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التى
تصلح لبوساً لكل موصوف ، فكل شاعر فيما أظن : « ينسب إذا عشق

ويثلب إذا حق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب . ومن اللبس أن تقول في وصف شاعر : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها » أو أن تقول : « إنه أمتن صخرأ وأكثر روما » . ومن المجازفة أن تقول : « المتقدمون أشرف لفظا ، وأكثر في المعاني خطأ » . وقد ظرّف من لاحظ أن الاغتداء والطيّر في وكناتها من خواص اللصوص ، وهذا بالطبع لا يتدح في سُمُو تلك العبارة إلّا حين تُرسل بلا تقييد ، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
على أن هذا البيت لا يدل على أن : « صاحبه أول من اغتدى والطيّر في وكناتها » . كما قال بديع الزمان .

وقال ابن دُرَيْد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جدد أحسن ، وإن هزل ظرّف ، وإن وصف بالغ ، يلتقي الكلام على عواهنه لا يبالى من أين أخذه .

قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه ، على أن في شعره خللاً كبيراً .

قلت : فروان ابن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه ، يستحسن كل ما جاء منه ، مُعْجَب لا يرى أن أحداً يتقدّمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة .

قلت: فسلم بن الوليد؟ قال: خَلِيجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر، كالزند يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت: فأبو العتاهية؟ قال غشاء جم، واقتدار سهل، وشعر نكرز الزجاج، وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت: فعباس بن الأحنف؟ قال: يُبَلِّق دلوهُ في الدلاء، فيغترف الصفو أحياناً والحماة أحياناً، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت: فسلم الخاسر؟ قال: مُثَلٌّ مداح، شعره ديباج وعهن، يموء الردىء حتى يُشَبِّه الجيد.

قلت: فأبو الشَّيْص؟ قال: جدُّه كُلُّهُ فيه حلاوة وبشاعة، كالسَّدرَةِ التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع.

قلت: فعلى بن جبلة؟ قال: بَحَّاثٌ عن الكلام الفخْم، والمعنى الرائع، لا ينال مرتبة القدماء، ويحلّ عن منزلة النظراء.

قلت: فأبو تمام؟ قال: مسيلٌ كثير الغناء، غزير الغمار، جم النطاف، فإذا صفا فهو السَّلاف بالماء الزلال.

قلت: فعبد الصمد بن المعدل؟ قال: خرَّاج ولَّاج: يعتسف تارةً ويهتدى أخرى.

قلت: فعلى بن الجهم؟ قال: كلامٌ رصين، ومسلِكٌ وعر، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت: فبكر بن النطَّاح؟ قال: تشبه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولدين فأسهب، فهو الساقط بين القريتين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء ،
ولكننا نستنكر أن تحدد شاعرية شاعر بأنه : « خَرَّاجٌ ولَّاجٌ ، يعتسف تارةً
ويهتدى أخرى » أو بأنه : « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنه :
« لا ينال مرتبة القدماء ، ويحل عن منزلة النظراء » .

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإيهام كان يغلب على المتقدمين ، ولم يسلم
منه الجاحظ على بَصَرِهِ بالبيان والتبيين ، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية
بأنه : « أَمْلَسَ المَتُونُ ، ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى
معنى محدود .

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال ، وإطلاقهم الحكم بلا بيئة
ولا دليل ، في حين أن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال
الشعراء في مختلف الأغراض .

وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكُتَّابِهِ ، فنجد مصطفى
الرافعي يقول في وصف الشعر : « لو كان طَيْرًا يَتَغَرَّدُ لكان الطبع لسانه ،
والرأس عشه ، والقلب روضته ، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين
من الشعراء » .

ونجد محمد السباعي يصف شكسبير بأنه : « منحة الطبيعة وجائزة الدهر » .
ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيغو فتكون غايته أن يقول :

مَا تُعَوِّرُ الزَّهْرُ فِي أَكْثَامِهَا ضَاحِكَاتٍ مِنْ بُكَاءِ الشَّجَبِ
نَظَمَ الْوُسْمِيُّ فِيهَا لَوْلُؤًا كَشَنَايَا الْغَيْدِ أَوْ كَالْحَبِّ

عِنْدَ مَنْ يَقْضَى بِأَبْهَى مَنَظَرًا مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي
بَسَمَتْ لِلذَّهْنِ فَاسْتَهْوَتْ نُهْيَ مُعْرَمِ الْفَضْلِ وَصَبَّ الْأَدَبِ
ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطى فى الأستاذ الشيخ عبد العزيز
جاويش : « لولا مقامه فى اللواء ، ومذهبه فى الهجاء ، لكان وهو فريد
وجدى سواء » .

وقوله فى المرحوم قاسم أمين : « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله » .
وتلك كلها عبارات مبهمه لا تقنع طلاب البيان .

— ٥ —

- إنما يجب على الناقد الذى استوفى ما أسلفناه من الصفات :
- ١ — أن يذكر حياة من يُوزَن بينهم من الشعراء ، وأن يُعَيِّن ما فى حياة كل
شاعر من ألوان الشِّدة ، أو صنوف الرِّخاء .
 - ٢ — وأن يُبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه
من الاعتلال .
 - ٣ — وأن يقدر السن التى قيل فيها ما يُريد وَزَنَهُ ونَقْدَهُ .
 - ٤ — وأن يُحدِّد الصفات التى اشترك فيها من يُوزَن بينهم ، والصفات التى
انفرد بها كل واحد منهم ، ثم يتغلغل فى تحليل المعانى ، والألفاظ ،
والأساليب ، ويوازن بين القصائد والمقطوعات ، والأبيات اليتيمة .
 - ٥ — وأن يدقِّق النظر فى تمييز المعانى المبتدعة من المعانى المسبوقة ، ويبين
كيف تناول الشاعر المعنى الذى سُبِقَ إليه ، وكيف هذَّبَهُ ، وكيف

بَسْطُهُ ، حين يَجُودُ أَخْذُهُ وتَلَطَّفُ سرقة ، وكم في الشعراء من سارق لطيف !

٦ — وأن يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد أخذه ، وما ابتكره ، وما انفرد به ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ، ثم يُغلب عليه حين يقصر في تأديته ، وقد يبتكر المعنى ، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء .

٧ — وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد ، وحين يختلفان في ذلك .

٨ — وأن يبين أسباب السبق ، وأسباب التخلف ، مع التعمق في استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس ، ولفتات القلب ، ونوازع الوجدان .

٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضوعيّة ، التي اقتضاها زمانه ومكانه ، والمعاني الإنشائية ، التي تصلح لجميع الناس ، على تباين الأمكنة واختلاف العصور .

١٠ — وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من : « الصور الشعرية » .
وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان .



البحث الثامن

الصور الشعرية

- ١ -

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء . أُلقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١ ، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه ، فساعدني ذلك على تحديده ، وضبط المراد منه ، وكشف ما يعتوره من الغموض ، وإلى القارئ البيان :

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المُفلق الذي يصف « المراتب » وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدرى أيقراً قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ، والذي يصف « الوجدانيات » ودفاً يخيل للقارئ أنه يناجى نفسه ، ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد .

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح :

صَهْبَاءُ تَبْنِي حَبَاباً كُلَّمَا مَرَجَتْ	كَأَنَّهُ لَوْ لَوْ يَسْلُوهُ عِقْيَانُ
كَانَتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ	مِنْ حُرٍّ شَحْمَتَهَا وَالْأَرْضُ طُوفَانُ
فَلَمْ تَزَلْ تَعْجِمُ الدُّنْيَا وَتَعْجِمُهَا	حَتَّى تَخَيَّرَهَا لِلْخَبَاءِ دَهْقَانُ
فَصَانَهَا فِي مَغَارِ الْأَرْضِ فَاخْتَلَفَتْ	عَلَى الدَّفِينَةِ أَرْمَانُ وَأَرْمَانُ

بِلَدَةٍ لَمْ تَصِلْ كَلْبٌ بِهَا طُنْبًا وَلَا خِبَاءٌ وَلَا عَبْسٌ وَذِيَانُ
لَيْسَتْ لِدُهْلٍ وَلَا شَيْبَانِهَا وَطَنًا لَكِنَّهَا لِبَنِي الْأَحْرَارِ أَوْطَانُ
أَرْضٌ تَبَنَّى بِهَا كِسْرَى دَسَا كِرَهُ فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الْأَعْرَابِ إِنْسَانُ
وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرَجَةٌ وَلَا بِهَا مِنْ غِذَاءِ الْعُرْبِ خُطْبَانُ
لَكِنِ بِهَا جُلُنَارٌ قَدْ تَفَرَّعَهُ آسٌ وَكَذَلَهُ وَرْدٌ وَسُوسَانُ

ولو عُرِضَتْ هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر ، أو لو أنها عُرِضَتْ على رجل من الأدباء في الأعصر الحالية لَوُصِفَتْ على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب ، متينة التركيب ، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء ، لاحظ لها من الروعة ، ولا نصيب لها من الجمال .

أراد أبو نواس أن يصف الخمر ، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعمير ، وما لها من العبت بالعقول ، واللعب بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك ، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حَبَابًا كَأَنَّهُ لَوْلُو يُتْلَوُه عَقِيَان ، ثم اندفع يذكر أنها عتيقة ، وأن عهدا بالوجود قديم ، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب ، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح ، وأنها ما زالت تغالب الدهر ، وتصانع الحدثان ، حتى ظفر بها دهقان ما كر دفنها في مغار الأرض ، وأخفاها عن عيني الزمان ، ولم يكفه ذلك ، بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية ، لم ينصب فيها خبَاءٌ لعبس ولا ذبيان ، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان ، بل زينها الجلنار ، والورد ، والآس ، والسوسان .

إِذَا أَخْطَأَ أَبُو نَوَاسٍ حِينَ غَلَا فِي الْإِشَادَةِ بِعَتَقِ الصَّهْبَاءِ ، لِأَنَّ عَشَاقَهَا
لَا يَشْعُرُونَ بِالْحَاجَةِ إِلَى إِقَامَةِ الْبَيْتَةِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ عَهْدِ الطُّوفَانِ ، مَهْمَا أَحْبَوُا
أَنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ الْعَهْدِ بِالْوُجُودِ ، فَقَدْ يَكْفِيهِمْ أَنْ تُوصَفَ بِالْقَدَمِ ، وَأَنْ
تَكُونَ لِقَدَمِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ الرَّوْمِيِّ :

لَطُفَتْ فَقَدْ كَادَتْ تَصِيرُ مُشَاعَةً فِي الْجَوِّ مِثْلَ شُعَاعِهَا وَلَسِيمِهَا
أَوْ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ :

جَرَتْ - رَكَاتُ الدَّهْرِ فَوْقَ سُكُونِهَا
فَذَابَتْ كَذَوْبِ الثَّبَرِ أَخْلَصَهُ السَّبْكُ
فَقَدْ خَفِيَتْ مِنْ صَفْوِهَا فَكَأَنَّهَا
بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُدْرِكُهُ الشَّكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الحجر ،
ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية ، وما تنبت
البلاد الفارسية ، إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر ،
وما بأرض الفرس من ورد وآس ، ويسخر مما للعرب من طُنب وخباء ،
وما بأرضهم من عرفج وخطبان .

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الحجر بالقدم
شيء من الروعة ، أو كان على الأقل مما تسيفه النفوس ، فما نظن أحداً
يستنكر قول البحترى في وصف الشمول :

بِكُرٍّ تَقَدَّمَتِ الزَّمَانُ بِغَرَسِهَا إِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّهْرِ شَيْءٌ يُغْرَسُ
ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الحجر بالقدم ، وأنه في ذلك غير

مُسْبِق ، أفيكفى أن يوصف الشئ من ناحية واحدةٍ مهما كان وصفها
سابقاً ليصبح الموصوف وهو ممثِّلٌ من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !
ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشئ من الأشياء قد تصرف الشاعر عما
عداها من الصفات ، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل ، فقد
تكون الراح جبارة قهارة ، وهى فى مِئَةِ الصبا وعنفوان الشباب ، وغيرى
عنده الخبر اليقين .

— ٢ —

ولننظر قول أبى نواس من كلمة ثانية :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ	وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا	لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّ سَتُّهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ	فَلَا حَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَأُرْسِلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةٌ	كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاقِيهَا	لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا	حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه صورة شعرية للراح ، ألم فيها الشاعر بصفاتِها المختلفة ، أو بأشهر
مالها من الصفات ، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللاتئين ، بل جعل اللوم نوعاً
من الإغراء ، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء ، لما أورثت من
داء ، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون ، وأن الحزن لا يحل لها ساحة ،
وأن الحجر لو مسها مسته السراء ، وأنها حين قامت بإبريقها هتكت الظالماء ،
بما لوجهها من لألاء ، وأنها حين أرسلت صافيةً من فم الإبريق أخذت

تَلْعَبُ بِالْعُيُونِ كَأَنَّهَا الْإِغْفَاءُ ، وَأَنَّهَا لَطْفَتْ حَتَّى مَا تَلَأَّمِ الْمَاءُ ، وَلَا يَشَا كُلُّهَا
الْمَاءُ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَشْعِشَعَ بِالْعَذْبِ الْفَرَاتِ ، فَإِنْ عَجَزَ الْمَصْطَبِحُ
أَوِ الْمَغْتَبِقُ عَنْ شَرْبِهَا صَرْفَةً فَلْيَمْزِجْهَا بِالنُّورِ ، فَانْهَ لَهَا مَزَاجٌ ، وَهِيَ لَهُ
لِبَاسٌ ، وَمِنْهُمَا تَتَوَلَّدُ الْأَنْوَارُ وَالْأَضْوَاءُ .

وَقَدْ يُلَاحِظُ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ بَعِيدٌ عَنْ مَتَنَاوُلِ الْعُقُولِ ، وَنَجِيبٌ بِأَنَّهُ
لَا جِهَالٌ لِلشَّعْرِ إِلَّا إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ مِنَ الْخِيَالِ ، وَقَدْ يَكُونُ
هَذَا الْخِيَالُ حَقِيقَةً ثَانِيَةً لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأُولَى إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا فِي
الْوَاصِفِ وَأُخْرَاهُمَا فِي الْمَوْصُوفِ ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَصِفُ شَيْئًا إِلَّا مُتَأَثِّرًا
بِحُسْنِهِ أَوْ قُبْحِهِ ، فَهُوَ حِينَ يَذْكُرُ الشَّيْءَ الدَّمِيمَ يَذْكُرُ بِجَانِبِهِ نَفَرْتَهُ مِنْ
الدَّمَامَةِ ، وَحِينَ يَصِفُ الشَّيْءَ الْجَمِيلَ يَصِفُ بِجَانِبِهِ غَرَامَهُ بِالْجَمَالِ ،
وَرُبَّمَا خَضَعَ الشَّاعِرُ لِعَاطِفَتِهِ ، فَاتَّقَلَ مِنْ وَصْفٍ إِلَى وَصْفٍ ، كَأَن يَتْرَكَ
الْحَدِيثَ عَنِ الرَّاحِ وَيُنْخَدِرُ إِلَى وَصْفِ السَّاقِ مِثْلًا ، وَهَذَا لَا مَنَدُوحَةَ
مِنْ أَنْ يَنْتَقِلَ النَّاقدُ مَعَ الشَّاعِرِ لِيَعْرِفَ أَقْصَرَ فِي وَصْفِ مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ
أَمْ أَجَادَ ، وَتَكُونُ الصُّورَةُ الشَّعْرِيَّةُ لِلْمَوْصُوفِ الثَّانِي ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ
ابْنِ عُيَيْنٍ :

وَمُدَامَةً لَمْ يَبْقَ طَوْلُ ثَوَائِهَا	فِي خِدْرِهَا إِلَّا وَمِیْضَ شُعَاعِ
مِنْ كَفِّ مَصْفُولِ الْعَوَارِضِ آئِسٍ	يَرْنُو بِمُتَمَلِّةٍ جُودَرٍ مُرْتَاعِ
وَقَفَّتْ عَوَارِضُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ	حَيْرَى وَبَاتَتْ فِي الْقُلُوبِ سَوَاعِي
رَاضَتْ خَلَاتِقَهُ الْعُقَارُ وَبَدَّلَتْ	نَرَقَ الصَّبَا بِمُوقَرٍّ مِجَازِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الحجر ، وليست من ذلك في شيء ، إنها هي تشبيب ، ومثلها قول البحترى ، وقد صرعت نديمه الصهباء :

وَنَدِيمٍ حُلُوِ الشَّمَائِلِ كَالَّذِي نَارِ مَحْضِ النَّجَارِ عَذِبِ الْمُصَقِّ
بِتُ اسْقِيهِ صَفْوَةَ الرَّاحِ حَتَّى وَضَعَ الْكَأْسَ مَائِلًا يَتَكَفَّ
قُلْتُ عَبْدُ الْعَزِيزِ تَقْدِيكَ نَفْسِي ! قَالَ لَبَّيْكَ ! قُلْتُ لَبَّيْكَ أَلْفَا !
هَا كَمَا ! قَالَ هَاتِيهَا ! قُلْتُ خُذْهَا قَالَ : لَا اسْتَطِيعُهَا ، ثُمَّ أَغْنَى
وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة ، وليس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون ، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تتمثل لك رفق النديم ، وجناية الكأس عليه ، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق .

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسماع ، ألا ترى أن قول بعض الأندلسيين :

أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي رَقِيبِي وَمِنْ عَيْنِي وَعَيْنِكَ وَالزَّمانِ
وَلَوْ أَنَّي وَضَعْتُكَ فِي عُيُونِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي
أقل تأثيراً في النفس من قول ابن الرومي :

أَعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِ
وَأَنْتُمْ فَاهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيَمَانِ

وَلَمْ يَكْ مُقْدَارُ الَّذِي فِي مِنَ الْجَوَى
لِيَرْوِيَهُ مَا تَلَّمُ الشَّفَقَاتِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَرَوِي غَلِيلَهُ
سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَرِجَانِ

لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء ، وتنقل بالقارىء والسامع من حال إلى حال ، وذكر أموراً فطرية يشعر بمثلها كل متيم مشغوف ، ثم علل شرهه في صبوته بِحَظَرِ لوعته وفرط جواه . وتحليل المعنى وتعليقه من أقرب الوسائل إلى تمكينه في النفوس ، وفي تحليل المعاني وتعليقها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء .

البحث التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارىء شيئاً عما أريده من الصُّور الشعرية ، ولكنه شئ يسير لا يغنى في إمطة اللثام عن هذا الفن الجديد ، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية ، والتمثيل المعروف في علم البيان ، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية ، وهو خطأ مبين .

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس ، لأن غاية الكلام البليغ من ثر أو شعر إنما هي التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من

تحليل المعنى وتعليقه كافية في تحقيق غاية البيان ، ولنضرب لذلك الأمثال .

محمد بن عبد الله
شعر

وإنما الأول

- ١ -

من الحكم المأثورة قول أبي الدرداء : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ » . يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه مِلْكًا لأخيه . هذا هو أصل المعنى ، وتلك هي صورته الأصلية ، فلننظر كيف بَسَطَهُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ حين قال :

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى

ظَمِئْتَ وَآىُّ النَّاسِ تَصَفُّوْا مَشَارِبُهُ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ » . كلمة مُبْهَمَةٌ لا تقهر في النفس إلا بعد التأمل والترديد : ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك ، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقى الصديق الذى لا تعاتبه ، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب ، وأنتك مضطر إلى إحدى اثنتين : إما أن ترضى الوحدة ، وإما أن تصل أخاك ، فقد يقارف الذنب مرة ويحاجبه مرة أخرى ، وإذا لم تشرب « مراراً » على القذى ظمئت ، وآى الناس تصفوا مشاربهم في هذا الوجود ؟

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس ، وأملأ للقلب ، من كلمة أبي الدرداء ، وإليك كلمة الشريف الرضى في نفس المعنى :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَلَرُمَحٍ زَاغَتْ كَعُوبُهُ

أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَقَوَّمَ
تَقَبَّلَتْ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا
فَأَبْدَى كَرَوْضَ الْحَزَنِ رَقَتْ فِرْعُوعُهُ

وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الْخِدَارِيَّ مُظْلِمًا

وَلَوْ أَنَّي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ
أَقَمْتُ عَلَى مَا يَنْتَنِي الْيَوْمَ مَا تَمَّا
فَلَا بَاسِطًا بِالسُّوءِ إِنْ سَاءَ نِي يَدًا
وَلَا فَاعِرًا بِالنِّمِّ إِنْ رَابَنِي فَا
كَعُضُو رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِقَادِحٍ
وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ تَأَلَّمَا
إِذَا أَمَرَ الطَّبَّ اللَّيْبُ بِقَطْعِهِ
أَقُولُ عَسَى ضَنَّاهُ بِهِ وَلَعَلَّمَا
صَبَرْتُ عَلَى إِيلَامِهِ خَوْفَ تَقْصِيهِ
وَمَنْ لَمْ يَلَمْ مَنْ لَا يَرْعَوِي كَانَ أَلْوَمَا
هِيَ الْكَفُّ مَضُتْ تَرْكُهَا بَعْدَ دَائِمَا

وَإِنْ قُطِعَتْ شَانَتْ ذِرَاعًا وَمِعْصَمًا

أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيًا
أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمُطِيعِ وَأَكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمَلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَدَى
فَلَا تَنْجَلِي يَوْمًا وَلَا تَبْلُغُ الْعَمَى
دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا ذَمَّتْهُ
وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فَتَنْدَمَا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْمَلِكْ إِلَّا قَطَعْتَهُ
عَلَى مَضَضٍ لَمْ يَبْقَ لَحْمًا وَلَا دَمَا
وَمَنْ لَمْ يُوْطِنَ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى
تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلَ وَأَعْظَمَا

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف الرضي ،
وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه ، وكيف شبهه بالرمح
الذي زاغت كعوبه ، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم ، وكيف تقبل من

ذلك الصديق ظاهره المتبلج ، وتغافل عن باطنه المتجهّم ، وكيف مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه ، وما أضمره بظلمة الليل ، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مآتماً أى مآتم ، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه ، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه ، ثم انظر كيف صوّر هذا الصديق الذى كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذى رمته الليالى بقادح ، والذى يؤلم حمله ، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء ، ومن ذا الذى يجهل أن داء الكف مضى بغيبض ، ولكن من ذا الذى يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع ؟

ولم يقف الشريف الرضى عند ذلك ، بل مثل صديقه بالعين لج بها القذى ، وهو أفضل من العمى على كل حال ، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة
دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا ذَمَّتْهُ وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالُ فَتَنْدَمَا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعْتَهُ عَلَى مَضَضٍ لَمْ تَبْقَ لَحْمًا وَلَا دَمَا
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً ، وكلمة الشريف الرضى ثانياً ، أدعى لتمكين المعنى فى النفس من كلمة أبى الدرداء ، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله ، وذلك داعية التأثير ، وهو ثمرة الكلام البليغ .

رثى مؤيلىك المزموم امرأته أم العلاء فقال :

امْرُؤٌ عَلَى الْجَدَثِ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْعَلَاءِ فَنَادَاهَا لَوْ تَسْمَعُ
أَنِّي حَلَمْتُ وَكُنْتُ جِدَّ فَرُوقَةٍ بَلَدًا يَمُرُّ بِهِ الشُّجَاعُ فَيَفْزَعُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ إِذْ لَا يُلَاقُكَ الْمَكَانُ الْبَلَقُ

فَلَقَدْ تَرَكْتَ صَغِيرَةً مَرْحُومَةً لَمْ تَذَرِ مَا جَزَعُكَ عَلَيْكَ فَتَجَزَعُ
فَقَدَّتْ شَمَائِلَ مِنْ لِزَامِكَ حُلُوةً فَتَيِّتُ تُسَهِّرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ
وَإِذَا سَمِعْتُ أُنَيْنَهَا فِي لَيْلِهَا طَفِقْتُ عَلَيْكَ سُؤوُنُ عَيْنِي تَدْمَعُ
وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلى طفلها وتروح إلى عالم الفناء ، وهي
بعد التحليل ترجع إلى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة
الهيوب في ذلك المكان البلقع . والثانية الأسف على ما لقيت طفلتها من
فقد شمائلا الحلوة . وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف ،
وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئا من الوضوح ، وأن يعتمد في
الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبشء ، لأن الغرض من
الشعر إنما هو التأثير .

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمَفَارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَذِرَانِ
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأُبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَثِرَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَتَحَيَّانِ
وَبَاتَ وَحِيدًا فِي الْفِرَاشِ تَحُمُّهُ بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
أَلَا إِنْ سَجَلًا وَاحِدًا قَدْ أَرْقُمُهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
فَلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا أَدَاوِي بِهِذَا الدَّمْعِ مَا تَرَيَانِ
وَإِنْ مَكَانًا فِي النَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَمَهْلُ أَثْمًا إِنْ عُجْتُ مُسْطَرَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ

ضَعِيفِ الْقَوَى لَا يَعْرِفُ الْأَجْرَ حِسْبَةً
وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ



أَلَا مَنْ أُمْنِيهِ الْمُنَى فَأَعْدَهُ لِعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَصَرَفَ زَمَانِي
أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غَبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي
فَلَمْ أَرَ كَأَلْقَدَارٍ كَيْفَ يُصِبنَنِي

وَلَا مِثْلَ هَذَا الدَّهْرِ كَيْفَ رَمَانِي

فإذا وازناً بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الأخيرة صورة شعرية
بديعة ، تمثل الطفل المفجع في أمه ، والرجل المفجع في زوجه . وانظر كيف
صور الطفل اليتيم بقوله :

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأُبْنَهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَئَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمٍ اخْفَقَانِ

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه ، وجهله بالأجر والتأسي ،
وتأمل كيف فهم قدر الحليلة ، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من
الرفق ، وما للرجل من الأُنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل ،
وكيف اعتمد عليها فأعدها لعشرة أيامه وصرف زمانه ، وكم في الأيام من
عثرات ، وكم في الدهر من صروف !

وأى كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينة من قوله في تلك
الفقيدة الغالية :

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غَبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي

وأحب لو أعاد القارئ النظر في هذين البيتين :

وَإِنَّ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتَمَّا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَإِنِّمَا غَايَةً فِي تَمَثُّلِ الْحَنُوِّ عَلَى الْقَبْرِ الْمَاهُولِ بَرَفَاتِ الْحَبِيبِ ، وَسَقَى اللَّهُ
كُلَّ بَقْعَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ !

— ٣ —

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه ، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر
ما يغني عن القطيعة ، وذلك قوله :

وَيَا رُقَّةً مَرَّتْ بِجِرْعَاءِ مَالِكٍ تَوْثُمُ الْحِمَى أَنْضَاوُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَشَدَتْكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا نَشَدُوكُمْ بِهِ شُعْبَةً أَضَلَّتْهَا مِنْ فَوَادِيَا
وَقُلْتُمْ لِحَيٍّ نَازِلِينَ بِقَرْبِهِ أَقْلُمُوا بِهَا وَأُسْتَبْدَلُوا بِجَوَارِيَا
رُوَيْدَكُمْ لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنْ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وأصل هذا المعنى لإياد بن القائف إذ يقول :

فَأَكْرِمْ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَاعِشْتُمَا مَعًا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زُرْتُ أَرْضًا بَعْدَ طَوْلِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُ صَدِيقِي وَالْبِلَادُ كَمَا هِيَا

ولننظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنِ ذَمَّتْ صُرُوفُهُ

إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَّتْ مُدَّةً وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُسْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةً إِنَّ حُصُلُوا أَفْنَاهُمْ التَّحْصِيلُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ
فَلَنْ سَبَقْتُ لَتَبَكَيْنَ بِحَسْرَةٍ وَلَيْكَثُرَنَّ عَلَى مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ حَبْلُ الْوَفَاءِ بِجِبْلِهِ مَوْصُولُ
وَلَنْ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لَيَمْضِينَ

مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَى خَلِيلٍ
وَلَيَذْهَبَنَّ بِهِاءَ كُلِّ مُرُوءَةٍ وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَاهَا الْمَاهُولُ
وَأَرَاكَ تَكَلَّفَ بِالْعِتَابِ وَوَدُنَا صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وَدَّ بَدَا لِنَدْوَى الْإِخَاءَ جَمَالُهُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ بِهِجَةٌ وَقَبُولُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتَبُنَا وَيَطُولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليقه : فانا نراه ابتداءً بشكوى الزمان ، ونصح صديقه بانهاب الفرص السوانح ، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحر في الدنيا قليل ، وبأن من الحزم أن لا يتجنى المرء على صديق لا ذنب له ، فقد تصدع بينهما أحداث المنية ، أو عاديات الليالى .

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه ، ومستعظم خيخته فيه ، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء ، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التآلف والاستعطاف . وانظر كيف دق ولطف في قوله :

وَلَنْ سَبَقْتُ - وَلَا سَبَقْتُ - لَيَمْضِينَ

مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَى خَلِيلٍ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف . وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة ، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف ، وأبرع من أبيات الطغرأى ، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه : من ردّ صديقه إلى شرعة الألفة ، وصرفه عن موارد الصدود .

— ٤ —

أراد العباس بن مردّاس السلمي أن ينصف أعداءه ، وهو يفخر بقومه ، ويذكر صبرهم على الجِلَاد ، وصدقهم في اللقاء ، فقال :

وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصَبِّحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسَا
أَكْرَرْتُ وَأَنْحَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِيسَا^(١)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَضَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِ وَالرِّمَاحِ الْمَدَاعِيسَا^(٢)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحٍ نَكْرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعُنَ إِلَّا عَوَابِيسَا
ولهذه الأبيات قيمة أى قيمة : ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى ، وتمكينه في النفس ، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى :

أَلَا حَيِّتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحْيِيهَا وَإِنْ كَرُمْتَ عَلَيْنَا
رُدَيْتُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضْمَاتِنَا وَقَدْ اخْتَوَيْنَا^(٣)
فَارْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَيِّبًا فَقَالَ أَلَا أَنْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا
وَدَشُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فَلَمْ نَعْدِرْ بِنَارِ سِهْمٍ لَدَيْنَا
نَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجِئْنَا كَمَثَلِ السَّيْلِ نَزَكَبُ وَازِعَيْنَا

(١) جمع فونس ، وهو : أعلى الرأس . (٢) من الدعس ، وهو الطعن .

(٣) الأضمات : الأحقاد ، والاختواء : خلو الجوف من الطعام .

تَنَادَوْا يَا لِبُهْثَةٍ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْبًا جُهِينَا
 سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
 فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَنَّا لِلْكَلاكِيلِ فَأَرْتَمِينَا^(١)
 فَلَمَّا لَمْ نَدْعِ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
 تَلَلَوْا مِرْنَةً بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدِينَا^(٢)
 شَدَدْنَا شِدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ فَتِيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا
 وَشَدَدُوا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلٍ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُودِينَا^(٣)
 وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا
 فَأَبَوْا بِالرِّمَاحِ مُكْسِرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ انْخَبَيْنَا
 وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَأَمِي سَرِينَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل . وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق ، وتراه في الوقت نفسه صادقاً فيما يقول ، إذ لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه ، أورميه بالغلو والإسراف ، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صُرع بهذا البيت السهل المقبول :

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا

وأى فتى لا يتمنى أن يرمى بنفسه في سعي تلك الحرب التي يقول فيها هذا الفتي النبيل ، وهو فيما يقول غير ظنين :

تَنَادَوْا يَا لِبُهْثَةٍ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْبًا جُهِينَا

(١) الكلاكل: الصدور . (٢) حجل : تربث في مشيه على رجله ، وردى : أسرع .

(٣) جوين : هو أخو الشاعر وسيرته أشرف رثاء بالبيت التالي .

سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ خَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَنَا لِلْكَلاَ كُلِّ فَأَرْعَمِينَا
فَلَمَّا لَمْ نَدْعُ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
تَلَلُوا مُزْنَةً بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدِينَا

- ٥ -

والشاعر الواحد قد يكلف بتريد معنى من المعاني فلا يزال يبدى ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد ، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد ، ووجود الحب ، فقد أقتن في هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة ، فتارة يعتذر عن هجره فيقول :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهِجْرَكُمْ إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِي وَتَسْتَرِي أَذْنِي لِرِوَالِكٍ مِنْ دُونِي فَاصْحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود :

سَأَهْجُرُ إِلَيْنِ وَهَجْرَانَهَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودُ الْخُدُودِ
كِلَانَا حُبٌّ وَلَكِنَّا نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِالصَّدُودِ

وتارة يُعَلِّلُ الكتمان فيقول :

سَأَسْتُرُ وَالسُّرُّ مِنْ شَيْمِي هَوَى مِنْ أَحِبٍّ بِمَنْ لَا أَحِبُّ
وَلَا بَدَّ مِنْ كَذِبٍ فِي الْهَوَى إِذَا كَانَ دَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبِ

وحينما يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول :

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقَا
جَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَ كُمُ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال :

كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي

سَلَوْتُ لِكَيْمَا يُشْكِرُوا حِينَ أَصْدُقُ

وَمَا مِنْ قَلِيٍّ مِنِّي وَلَا عَنْ مَلَاةٍ وَلَكِنِّي أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَشْفَقُ

عَظَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا قَيْصًا مِنَ الْكِتَابِ لَا يَتَخَرَّقُ

وللقارىء أن يحلل هذا المعنى ، فقد مهدت له السبيل ^(١) .

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية ، وسماها هذه الاعشى والهنوء

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند

شاعرين ، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه

منه ، وكان أحمد بن خالد ذكره له ، ووشى به إليه :

قَالُوا جَزَعْتَ فَقُلْتُ إِنَّ^(١) مُصِيبَةً جَلَّتْ رَزِيئَتُهَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ

كَيْفَ الْعَزَاءِ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ عَنَّا فَوَدَّعْنَا الْأَحْمَ الْأَشْهَبُ

دَبَّ الْوُشَاةُ فَأَبْعَدُوهُ وَرُبَّمَا بَعْدَ الْفَتَى وَهُوَ الْحَبِيبُ الْأَقْرَبُ

لِلَّهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنِّي ظَاعِنًا وَسَلَّيْتُ قُرْبَكَ أَيْ عَلَّقِي أُسْلَبُ

(١) ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب : (مدامع العشاق) .

(٢) ان - هنا - حرف جواب بمعنى نعم ، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون .

الآن إذ كملت أذاتك كلها ودعا العيون إليك لَوْنُ مُعْجِبُ
وأختر من سرِّ الحدايد خيرها لك خالصاً ومن الخلي الأغربُ
وغدوت طنان اللجام كأنما في كلِّ عضوٍ منك صَنِجٌ يُضْرَبُ
وكانَّ سرجك إذ علاك غمامةٌ وكأنما تحت الغمامة كوكبُ
ورأى على بك الصديق مهابةً وغدا العدوُّ وصدره يتلهَّبُ
أنساك؟ لا برحت إذا منسيةً نفسى ولا زالت بميثلك تُشكَبُ

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه ، فلنذكر صورة شعرية
لحصان لم يجمع صاحبه فيه ، كقول البحترى :

وأغرَّ في الزَّمنِ البهيمُ مُحَجَّلٌ قد رُحْتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ
كالهينكل المبنى إلا أنه في الحسنِ جاء كصورةٍ في هينكلِ
وَأَفَى الضَّلُوعِ يَشْدُ عَقْدَ حِزَامِهِ يومَ اللقاءِ على مُعِمِّ مُحْوِلِ
أخواله للرُّشْتَمِينَ بِفَارِسٍ وجُدودُهُ لِلتَّبَعِينَ بِمَوْكِلِ^(١)
يهوى كما تهوى العقابُ وقد رأتْ

صَيْداً وَيَتَنَصَّبُ اتِّصَابَ الْأَجْدَلِ
ذَنْبٌ كَمَا سَحَبَ الرِّشَاءَ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمَسْبِلِ
ذَهَبُ الْأَعَالَى حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةٌ

فِيهِ بِنَاطِرِهَا حَدِيدُ الْأَسْفَلِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا غُنِيَتْ بِهِ لَصَفَاءِ نِقْبَتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقِلِ^(٢)

(١) موكل على وزن مقعد : جبل أو حصن ، وفرس ربيعة بن غزالة السكوني : (قاموس) .

(٢) الصيقل : شحاذ السيوف ، والمداوس جمع مدوس ، وهو المصقلة .

وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهَيْبُهُ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُسْعِلِ
هَزِجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ نَبَرَاتِ مَعْبَدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلَكُ الْعُيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَتْهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ
والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى ، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية ، ومتى عرفنا أن الشاعر الأول : وصف حصانه وهو جازعٌ محزون ، وأن الشاعر الثاني : وصف حصانه وهو فرح محتال ، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق ، فقد ابتدأ ابن الزيات فشرح حُزْنَهُ على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مريثة لغلام نكب به ، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته « ظروف » ابن الزيات ، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ، ألا تراه يقول :

الآنَ إِذْ كَمَلْتَ أَدَاتَكَ كُلَّهَا وَدَعَا الْعُيُونَ إِلَيْكَ لَوْنٌ مُعْجِبُ
وَأَخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الْحَدَائِدِ خَيْرُهَا لَكَ خَالِصًا وَمِنْ الْخُلَى الْأَغْرَبُ
وَعَدَوْتَ طَنَانَ اللَّجَامِ كَأَنَّمَا فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ
وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء لذلك العهد ، ومنه قول بعض الشعراء :

الآنَ لَمَّا صِرْتَ أَكْمَلَ مَنْ مَشَى وَافْتَرَّ نَابُكَ عَنْ شِبَاةِ الْقَارِحِ
وَتَسَكَّمَلْتَ فِيكَ الشَّمَائِلُ كُلُّهَا وَعَدَوْتَ رَبَّ مَدَائِحٍ وَمَنَائِحِ
ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه

يُطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين ، ليكشف عن سر
النيمة التي رزاه بها ابن خالد عدوه اللدود ، وإلا فما معنى قوله :
وَكَأَنَّ سَرَجَكَ إِذْ عَلَاكَ غَمَامَةٌ وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْغَمَامَةِ كَوْكَبٌ
وَرَأَى عَلَى بَكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً وَغَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ
وكان ذلك لأن ابن الزيات محقق مَغِيْظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر
مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سدَّ عليه طريق الخيلاء حين أغرى
المعتصم بأخذ برذونه الجليل .

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة ، وأنه يروق
العيون ، وأنه اختار له من الحديد سره ، ومن الحلى أغربه ، وأنه طنان
للجام ، وأن سرجه كالغمامة ، وهو من تحته كالكوكب ، وأنه يكبت
العدو ، ويسر الصديق .

وهذه أوصاف لا تُمَاتَلُ ولا تَوَازَنُ بأوصاف البحترى لجواده ، فقد
ذكر أنه أغر محجل ، وأنه في تكوينه :

كَأَلْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ
وأنه وافي الضلوع ، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكَسرة ، وأجداده في
بلاد التباغة ، وأنه يهوى هَوَى الْعُقَاب حين ترى الصيد ، ثم ينتصب
أنتصاب الأجدل ، وأنه براق الجوانب : تتوهم في جبينه البدر ، وفي
أرساغه الجوزاء ، وأن ذنبه أطوله كالرداء المسحوب ، وأنه صافي الأديم
كأنما سهرت على لونه الصياقل ، وأنتك تحسب بريق سنابكه في انبهار
ناراً يعلوها دُخان ، وأنه هَزَج الصهيل حتى لتحسب في نعماته نبرات معبد

في صوته الرخيم ، وأنه ملك العيون ، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل .

وليس عجباً أن يحيد البحترى هذه الاجادة في وصف جواد كان يهتك بغيرته ظلمة الليل ، وينحدر به في الفضاء ، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة السماء . أما ابن الزيات فهو حريب سليب ، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة ، التي أججت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء .

— ٢ —

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية ، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة عند شاعرين ، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير ، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية ، فقد أكثر منه الشعراء ، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة أقرحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وَأَرَقْنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ	فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ الْغَرِيبُ يَنْوَحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذُرْ دَمْعَةً	وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا	وَمِنْ دُونَ أَفْرَاحِي مَهَامُهُ فَيَسُحُ (١)

ونجد قول ابن الدميني :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُذْنٌ عَوْدَةٌ	فَأِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُذْنٌ فَلَمَّا عُذْنٌ كِدَنْ يُتَمَنِّي	وَكِدْتُ بِأَشْجَانِي لَهْنٌ أَبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بَوَاكِيًا	بَكَيْنٌ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهْنٌ عِيُونُ

(١) فيح : جمع أفصح ، وهو الواسع العريض .

ونجد قول ديك الجن :
 حَمَامٌ وَرَقٌ فِي حِمَى وَرَقٍ خُضِرَ لَهَا مُقْلٌ تَجْرِي الدُّمُوعُ وَلَا تَجْرِي
 تَكَلَّفَنَ إِسْعَادَ الْغَرِيْبَةِ إِنْ بَكَتْ

وَأِنْ كُنَّ لَا يَدْرِيْنَ كَيْفَ جَوَى الصَّدْرِ
 لَهَا حُرْقٌ لَوْ أَنَّ خَنْسَاءَ أَغْوَلَتْ بِهِنَّ لَادَّتْ حَتَّى صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
 فَقُلْتُ لِنَفْسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَتَى وَمَعْدَنُهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محم ، وأبيات ابن الدمينه ، وأبيات ديك الجن
 لم نجد فيها صورة شعرية ، ويظهر الفرق واضحاً إذا قابلناها بقول الطغرائي
 من قصيدة طويلة :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجَوًّا عَلَى فَنَنِ نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ الْفَأْ وَلَا جَعَتْ
 فَذَكَرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي أَصَحَّتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُوثِقِ الْعَانِي
 طَلِيقَةً مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةً تَشَبَّهَتْ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرَبِي
 مَا فِي حَسَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرُ يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْغَنَاءِ تَحْضُنُهَا
 إِنْ كَانَ نَوْحُكَ إِسْعَادًا لِيُغْتَرِبَ فَقَارِضِنِي إِذَا مَا أَعْتَادَنِي طَرَبُ
 أَوْ لَا فَقَضْرُكِ حَتَّى أَسْتَعِينَ بِمَنْ مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا يَعْنِيكَ مَا أَخَذْتُ
 كَلِي إِلَى الْغَيْمِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهُ فَاشْعَلَتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
 فَذَكَرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي أَصَحَّتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُوثِقِ الْعَانِي
 طَلِيقَةً مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةً تَشَبَّهَتْ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرَبِي
 مَا فِي حَسَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرُ يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْغَنَاءِ تَحْضُنُهَا
 إِنْ كَانَ نَوْحُكَ إِسْعَادًا لِيُغْتَرِبَ فَقَارِضِنِي إِذَا مَا أَعْتَادَنِي طَرَبُ
 أَوْ لَا فَقَضْرُكِ حَتَّى أَسْتَعِينَ بِمَنْ مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا يَعْنِيكَ مَا أَخَذْتُ
 كَلِي إِلَى الْغَيْمِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهُ

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجد الحزين ، وقد هاجته الحماسة الباكية ، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الايكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب ، وتهيج الوجدان ، وانظر كيف يقول :

طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُؤْتِقِ الْعَانِي

وهذا غاية في وصف الحزن ، واليأس من السلوان ، فان وصف الحماسة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساها ، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمايم الشاديات ، فان فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين .

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة ، فان أبا محم يأسى لغربته ، ويتفجع لبعده أطفاله ، في حين أن الحماسة تبكى وقد جمع بينها وبين أفراسها غصن واحد ، فاذا تبغى وقد وقاها الله تبديد الشمل وفرقة الأحباب !

وابن الدمينية يراجع حمامات اللوى ، ويسألهن العودة ، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكين بجانبه ، وإن لم تدرف لهن عيون ، ووديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينية ، أما الطغرأى فقد أتى بفكرة طريفة ، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول .

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختبار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والامتياز : فان الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق .

البحث الحادى عشر

الصور الشعرية فى القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية ، وفى تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث .

- ١ -

الاستعارة التمثيلية هى ضرب من التشبيه يكون فيه المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزعةً من عدّة أمور متحقّقة أو مُتخيّلة ، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة ، فيكون بعضها موارد حقيقية ، ولأكثرها موارد خيالية .

وللأمثال - كما قال المرحوم أستاذنا المهدي - أربعة أضرب :

الأول - ماله مورد حقيقى كمواعيد عرقوب فى قول كعب بن زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

الثانى - الخيالى الممكن ، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل

كما جاء فى أمثال لقمان أن صبيّاً كان يستحمّ فى نهر ، ولم يكن يحسن

السباحة ، فأشرف على الفرق ، فاستغاث برجل عابر فى الطريق ، فأقبل

عليه ، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر ، فقال الصبي : « يا هذا ! خلّصنى

من الموت ثم لمنى ! » .

الثالث - الخيالى المستحيل ، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار

به ، كما فعل نصر بن منيع ، وكان خارجاً على المأمون ، فسيّر اليه جيشاً
ظفر به ، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه ، فقال : يا أمير
المؤمنين ! أسمع مثلاً خطراً على بالي ؟ فقال : قل ، فانشأ يقول :

زَعَمُوا بِأَنَّ الصَّقْرَ صَادَفَ مَرَّةً عَصْفُورَ بَرٍّ سَاقَهُ التَّقْدِيرُ
فَتَكَلَّمَ الْعَصْفُورُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَالصَّقْرُ مُنْقَضٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
إِنِّي لِمِثْلِكَ لَا أَتَمُّ لُقْمَةً وَلَكِنْ سُويتُ فَإِنِّي لَحَقِيرُ
فَتَهَاوَنَ الصَّقْرُ الْمَدْلُ بِصَيْدِهِ كَرَمًا وَأَقَلَّتْ ذَلِكَ الْعَصْفُورُ

الرابع — اخليلى المختلط من الممكن والمستحيل ، وهو ما جمع بين الناطق
وغيره ، كحديث الحية والأخوين : فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما
واديًا فيه حية تحميه ، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته .
فقال أخوه : والله ما في الحياة خير بعده ، ولأطلبن الحية . فلما لقيها وهمّ
بقتلها قالت : ألا ترى أنى قتلته وندمت على ما كان منى ! فهل لك في
الصلح ، فأدعك في هذا الوادي آمناً ، وأعطيك دية أخيك كل يوم
ديناراً ؟ فصالحها على ذلك ، وحلفت له وحلف لها ، وما زالت تعطيه
حتى كثر ماله . فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعنى هذا العيش . وأنا أرى
قاتل أخى ! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر ، فلما مرت به ضربها فشحها
وأخطأ مقتلها ، فقطعت عنه الدينار وتوعدته بخاف شرها ، وقال : هل لك
أن تتعاهد على المودة كما كنا ؟ فقالت : لا ! لأنك كلما نظرت إلى قبر
أخيك وجدت على ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسى وجدت عليك !
وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة :

وَإِنِّي لَأَتَّقِي مِنْ دُوَى الضُّغْنِ مِنْهُمْ
وَمَا أَصْبَحْتُ تُشْكُو مِنَ الْوَجْدِ سَاهِرَةً

كَمَا لَقِيتُ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا	وَمَا أَنْفَكْتَ الْأَمْثَالَ فِي النَّاسِ سَاهِرَةً
فَقَالَتْ لَهُ أَدْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِيًا	وَلَا تَغْشَيْنِي مِنْكَ بِالظُّلْمِ بِإِدْرَةٍ ^(١)
فَوَاشَتْهَا بِاللَّهِ حِينَ تَرَاضِيَا	فَكَانَتْ تَدِيهِ الْمَالُ غِبًا وَظَاهِرَةً
فَلَمَّا تَوَفَّى الْعَقْلُ إِلَّا أَقْلَهُ	وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَارَةً
تَذَكَّرَ أَنِّي يَجْعَلُ اللَّهُ فُرْصَةً	فَيُضْهِحُ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلُ وَاتِرَةً
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ بَرَّ اللَّهُ مَالَهُ	وَأَثَلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ
أَكْبَرَ عَلَى فَاسٍ يَحْدُ غُرَابَهَا	مُذَكَّرَةً مَتْنِ الْمَعَاوِلِ بِاتِرَةً
فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرِ مُشِيدٍ	لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِيَّ الْكَفَّ بِإِدْرَةٍ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَاسٍ—	وَلِلَّيْلِ عَيْنٌ لَا تَغْمُضُ نَاطِرَةً
فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلُ اللَّهُ بَيْنَنَا	عَلَى مَا نَا أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَةً
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهُ أَفْعَلُ إِنِّي	رَأَيْتُكَ غَدَارًا يَمِينُكَ فَاجِرَةً
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي	وَضَرْبَةً فَاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَةً

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية ، من ذلك قوله تعالى :
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دَرْبِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ

(١) العقل — هنا — هو الدية .

الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ
وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ . وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ افِ لَكُمْمَا اتَّعِدَانِي
أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَمِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ
فان هذا تشبيهه وتمثيله يراد به تصوير حال الأبرار والفجار ، وما لهؤلاء من
الخرى ، وما لأولئك من النعيم .

وأُصرح من هذا قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا فانه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق ، وإنما المراد تصوير
التكاليف وما فيها من المشقة ، وتصوير الانسان وما يغلب عليه من الغرور
والجهل بحقائق الاشياء .

وكذلك قوله عز شأنه : « قُلْ أَنتُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ
فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ
فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ
أُسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ » فان الغرض تصوير القدرة الالهية ، وما لها من السلطان
المطلق في الأرض والسماء .

وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قُصِدَ بها الترغيب
والترهيب كقوله تبارك اسمه « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ .
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » . فانك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخيف ، ثم
تراه يُتبع ذلك بقوله : « وَسَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا
جَاءُوهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ
حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ » .

هذا في الترهيب ، ثم انظر قوله في التشويق إلى دار النعيم : « وَسَيَقَ
الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا
وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .
قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » . وقوله : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . فهم لإعراضهم عن الدين ،
وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول ، وبلوغ الغاية في الصد والنكوص ،
مُثَّلُونَ بحال من جُعل على قلبه كِنَان فهو لا يفقه ما يقال له ، ولا يرعوى
لقبوله ، وبحال من ضُرب بينه وبين مراده بسدٍّ من بين يديه ومن خلفه
فهو لا يهتدى إليه ، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال .

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ مُخَلَّوْا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يُحس بما فيها ، ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظُّ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء ألفت ، وقرن بعضها إلى بعض ^(١) .

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث ، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال .

- ٣ -

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى ، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض ، فقوله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » تمثيل يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله . أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة :

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ

(١) راجع أسرار البلاغة .

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فانه لا شك في أن هذا تصوير للغرض ، لا للمعنى ، والمعنى جزء من
الغرض ، فان هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده
ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني
الجزئية ، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل ، وتصوير الغرض
الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن
الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان .

ومن الصور الشعرية قوله تعالى : في تحديد موقف المسلمين أمام
أعدائهم من المشركين :

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْاْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ

مَرَصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ نَفَلُوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ
 ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ. كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
 عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا
 لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
 لَا يَرْفُقُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
 فَاسِقُونَ. أَسْتَرَوْا بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ. لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ. فَإِنْ تَابُوا
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
 أَعْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تَتَّقَتُلُونُ قَوْمًا نَكَثُوا
 أَيْمَانَهُمْ وَهُمْوَا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ فَالَلَّهُ
 أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ
 وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ
 وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا
 يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا
 الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

وأحب أن يذكر القارئ أي أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية
 بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال ، وما قد ينظر فيه

الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل ، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد .

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضى المقام ذلك ، والقرآن لا يرى غضاظة في التكرار حين يحتاج إليه ، بل يراه واجبا محتوما الأداء ، وإنك لتجده في هذه الآيات يُبدى ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم ، والدعوة إلى تعذيبهم ، وإذلالهم . وتقتيلهم ، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية . ألا تراه يُوصى بالرفق حين يقول : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجّر من جوانبه الدماء ، فيقول : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » . ثم لا يكفيه هذا بل يقول : « أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . ثم لا يكفيه هذا بل يقول : « لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . ثم يعود فيقول : « أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . ثم يثور فيقول : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وأود أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال ، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية ، لا إثم فيها ولا عُدوان . أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أني أجعل من القرآن صوراً شعرية ، وإن لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام من الشعراء ، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض ، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة ، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت .

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عزّ شأنه : « وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ ؟ قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَأَغْفِرْ لِي أَلْبَاسِي . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أتْل هذا أيها القارئ مرة وثانية وثالثة ، وحديثي أتجد أعذب من هذا

الحديث الممتع ؟ وهل تجد أخف منه على السمع ، وأحب منه إلى القلب وأرفق منه بالنفس ؟ ألا ترى الحسن يجرى في هذا الحديث كما يجرى السحر في الطرف الكحيل ، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما يتغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به أبنته الوحيد ؟ ؟

- ٦ -

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

« كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .



وأنا أستطيع إيراد المئات من الصور الشعرية في القرآن ، لو سمح الوقت ، ولكن هيهات ! فليكتف القارئ بذلك ، وليعلم أن في هذا المنهج غناءً أى غناءً ، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء ، فإن التأثير يرتكز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول

والقلوب . وكم في خطب علي بن أبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور
الفتانة ، التي تسكن إليها شوارد النفوس !

البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين
المعنى والغرض . والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي ، الذي نرجو أن يكون
له شيء من النفع في عالم البيان .

— ١ —

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر ، وعلى وحدة الفقرة
عند نقد النثر ، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله
الكلام ، وكانوا يقولون فيمن ينذر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان
أشعر الناس !

ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تمثل الأغراض ،
لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة ، والأخيلة الرائعة ، التي تأتي في تضاعيف
المنظوم والمنثور فتمثل المعاني أصدق تمثيل .

أما اللفظ المختار فكقول كثير :

بَابِي وَأَنْتِ أَنْتِ مِنْ مَظْلُومَةٍ طَبَنَ الْعَدُوُّ لَهَا فَغَيَّرَ حَالَهَا^(١)

(١) طَبَنَ بمعنى فطن ، وهو طَبَن : عالم . وطبنت النار : ذفنتها ثلاثاً تطفأ في الطابون ، وهو مدفئها .
وأهل مصر يسمون الحبز : « الطابونة » ولذلك أصل فصيح .

لَوْ أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمَتِ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا
وَسَعَى إِلَى بَصَرِمْ عَزَّةَ نِسْوَةٍ جَعَلَ الْمَلِكُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا
وهذه أبيات عادية ، ولكن كلمة « موفَّق » في قوله :

لَوْ أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمَتِ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا
كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل ، لأنه يريد أن يحيل إليك
أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق ، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن
لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة ، وأنه لا بد من التوفيق
ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس ، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلا
حين يلتبس الحق ، ويتعذر الفصل ، وحسب هذه الحسنة أن تفتن الناظر ،
وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال .

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل :

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآئِبٍ
فقد صوّر النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء ، وصوّر الصبح
بالراعى الغائب الذي يخشى أن لا يثوب ، وفي أوبته صرف هذه النجوم .
أذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله
الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك ، وغرض النابغة أن يشكو إلى
محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل ، وقد أفصح عن هذا الغرض
في هذه الأبيات :

كَلِّبْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقْلَسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآئِبٍ

وَصَدْرٍ أَرَا حَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته ، فقد تحدث عن همه الممض الموضع ، وليله الذي طال بطوله بثه وشجاه ، وصدرة الذي أراح الليل ما عذب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع: فقد صورّ الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ، ثم تراح ليلاً إلى الحظيرة ، وكذلك يُشغل المرء عن همومه بالنهار ، فإذا انقطعت شواغله بالليل دبّت الهموم إلى صدره فأحتلتته من جديد .

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أُجَلِّ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
وإن قال العتيبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب (١).

وفي مثل هذا الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري .

فِي لَيْلٍ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرَضُ وَالطُّولُ كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْصُولُ
لَا فَارِقَ الصُّبْحِ كَفَى إِنْ ظَفِرَتْ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالَ فِي صَوْلٍ تَمَامُهُ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْتُولُ
مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ نَحَائِلُهُ وَاللَّيْلُ قَدْ مَرَّتْ عَنْهُ السَّرَائِيلُ
لَيْلٌ تَحْيَرٌ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نُجُومُهُ رُكْدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحْطِ مَنْ دَارُهُ الْحُزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صَوْلُ
اللَّهُ يَطْوِي بِسَاطِ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَرَى الرَّبْعَ مِنْهُ وَهُوَ مَأْهُولُ

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض ، ففي كل بيت معنى خاص ، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض ، فليس هناك ريب في أن قوله :

لَا فَارَقَ الصُّبْحُ كَفِّيَ إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
فيه معنى جميل ، وخیال رائع ، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة . وكذلك قوله :

لَيْلٌ تَحَيَّرَ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
فيه خیال يخلب العقول ، وأی خیال أروع من حيرة الليل ، وتقييده فوق متن الأرض بشكال ! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لاسابق له ولا لاحق ، فأی تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة اليتيم ! وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد :

أَنْعَى فَتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعَى بِمَوْجُودِ
أَنْعَى فَتَى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنْ الْعُودِ
وَأَنْشَلَمَ الْمَجْدُ بِهِ ثَلَمَةً جَانِبَهَا لَيْسَ بِمَسْدُودِ
فَالآنَ تُخَشَى عَثَرَاتُ النَّدَى وَصَوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الْجُودِ

ففي كل بيت معنى جميل ، وفي كل بيت خیال رائع ، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض ، ومنها يتكون الغرض ، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد .

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك ، فقد ذهب

الشكل برشد طريف بن أبي وهب العبسي ، فقال يرثي أبته بهذه الكلمات الموجهات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض :

أَرَابِعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمَلِي فَنِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ
فَإِنَّ الَّذِي تَبْكِينَ قَدْ حَالَ دُونَهُ تُرَابُ وَزُورَاءِ الْمَقَامِ دَحُولُ^(١)
نَحَاهُ لِلْحَدِّ زِبْرَقَاتُ وَخَالِدُ وَفِي الْأَرْضِ لِلْأَقْوَامِ قَبْلَكَ غُولُ
وَأَيْ قَتَى وَارَوْهُ مُتَتَ أَقْبَلَتَ أَكْفُهُو تَحْشُو مَعًا وَتَهِيلُ
وَوَلَّتْ بِي الْأَرْضُ الْفَضَاءَ كَأَنَّمَا تَصْعَدُ بِي أَرْكَانَهَا وَتَجُولُ
وَشَدَّ إِلَى الطَّرَفِ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
لَيْتَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ عَلَى حِينِ شَيْبِي بِالشَّبَابِ بَدِيلُ
لَقَدْ بَقِيتَ مِنِّي قَنَاءُ صَلِيبةً وَإِنْ مَسَّ جِلْدِي نَهْكَةٌ وَذُبُولُ
وَمَا حَالُهُ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَرْوُلُ

فقد تنقّل الشاعر من معنى إلى معنى ، ومن غرض إلى غرض ، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع ، ومن الجزع إلى العزاء ، فإنك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول :

أَرَابِعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمَلِي فَنِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ
ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول :

وَشَدَّ إِلَى الطَّرَفِ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
ثم يعود فيقول :

وَمَا حَالُهُ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَرْوُلُ

وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض ، وعندنا كتاب بديع الزمان
الهمداني^(١) إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحيرى ،
وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأغراض ، وانظر قوله في
وصف العلم :

« والعلم أطال الله بقاء ، القاضي شئ كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد
بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا
يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام ، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى
يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع
جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ، ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم علق
لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشئ لا يدرك إلا بنزع الروح ،
وغرض لا يصاب إلا باقتراش المدر ، واستناد الحجر ، وردّ الضجر ،
وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال
الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره
وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه . فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ،
وشغل سلوته بالغنى و خلوته بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس وهزله على
الكاس ؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، وصيد
لا يقع إلا في البذر ، ثم لا ينشب إلا في الصدر ، وطائر لا يخذعه إلا قفص

(١) راجع مذاهب بديع الزمان الانشائية في الجزء الأول . والثاني من كتاب (النثر الفنى) .

اللفظ ، ثم ولا يعقله إلا شَرَك الحفظ ، وبحرٌ لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه
الألواح ، ولا تهبجه الرياح ، وجبل لا يُتَسَنَّم إلا بُحْطَا الفكر ، وسماء لا تُصعد
إلا بهراج الفهم ، ونجم لا يامس إلا بيد المجد ، أيكفي أن يصبح المرء بين
الزق والعود ، ويمسى بين موجبات الحدود ، حتى يتم شبابه ، ويشيب أترابه
ثم يلبس دينيته ، ليخلع دينيته ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف يده ولسانه ،
ويقصر سبيله ، ليطيل حباله ، ويبدى شقاشقه ، ليغطي مخارقه ، ويبيض لحيته
ليسود صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفي طمعه ، وينعشى محرابه ، ليملاً جرابه ،
ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً ،
ويقعد حاكماً ! هذا إذا المجد كآلوه بقفران ! »

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد : هو أن العلم شيء عزيز
لا يناله بعد الجهد إلا أكرام النفوس ^(١) .

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف ، ولكنه
لن ينكر على الكاتب أنه أفصح عن غرضه ، وبلغ دعوته ، بل وصل بها
إلى قرار القلوب . وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين
المعاني في النفس ، والوصول إلى التأثير الذي هو غاية البيان .

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود ، بل الحيات السود ،
كانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيايات هذا القاضي
وأقاربه ، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار في

(١) وهذا لا ينافي أن غرض الكاتب هو التعريض على كبت عدوه الحيري .

بطونهم ، حتى تغلظ قَصَرَاتِهِمْ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى ، وتَسْمُنُ أَكْفَالُهُمْ مِنْ مَالِ الْأَيَامَى ؟ وَمَا ظَنُّكَ بِدَارِ عِمَارَتِهَا خَرَابِ الدُّوَرِ ، وَعِطْلَةُ الْقُدُورِ ، وَخِلَاءِ الْيَبُوتِ ، مِنَ الْكَسُوفَةِ وَالْقَوْتِ ؟ وَمَا قَوْلُكَ فِي رَجُلٍ يَعَادِي اللَّهَ فِي الْفَلَسِ ، وَيُبِيعُ الدِّينَ بِالْثَمَنِ الْبَخْسِ ، وَمَنْ حَاكِمٍ يَبْرُزُ فِي ظَاهِرِ أَهْلِ السَّمْتِ ، وَبَاطِنِ أَصْحَابِ السَّبْتِ ، فَعَلُهُ الظُّلْمُ الْبَحْتِ ، وَأَكَلَهُ الْحَرَامُ السَّحْتِ ؟ وَمَا رَأْيُكَ فِي سُوسٍ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي صُوفِ الْإِيْتَامِ ، وَجَرَادٍ لَا يَسْقُطُ إِلَّا عَلَى الزَّرْعِ الْحَرَامِ ، وَلِصٍّ لَا يَنْقُبُ إِلَّا خَزَانَةَ الْأَوْقَافِ ، وَكَرْدِيٍّ لَا يُغَيِّرُ إِلَّا عَلَى الضَّعَافِ ، وَذَنْبٍ لَا يَفْتَرِسُ عِبَادَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، وَمُحَارِبٍ لَا يَنْهَبُ مَالَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الْعُهُودِ وَالشُّهُودِ ؟ ! وَمَا زِلْتَ أَبْغَضُ حَالَ الْقَضَاةِ طَبْعًا وَجَبَلَةً ، حَتَّى أَبْغَضْتَهُمْ دِينًا وَمِلَّةً ، وَأَلْغَنْهُمْ دُرْبَةً ، حَتَّى لَعَنْتَهُمْ قُرْبَةً ، بِمَا شَاهَدْتَ مِنْ هَذَا الْخَيْرِيِّ وَقَاسِيَتِ ، وَعَانَيْتَ مِنْ خَطْبِهِ وَخَبَطِهِ مَا عَانَيْتَ »

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار ، وفي جميع العصور ، لأن نزعات الإنسانية واحدة ، أو كأنها واحدة في الخير والشر . والوصف الصادق يعذب وَيُسْتَمَلَحُ فِي كُلِّ قَطْرٍ وَفِي كُلِّ جِيلٍ .

— ٤ —

وَلَكَّ أَنْ تَتَخَطَّى النَّثْرَ الْمَحْبَرَّ إِلَى الْكَلِمَاتِ الْمَأْثُورَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْبَدِيعَةُ ، لِتَرَى كَيْفَ تَكُونُ الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضُ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْجَا حِظُّ عَنْ تَمَنَّى زَيْدِ الرِّقَاشِيِّ وَقَدْ تَمَنَّى بِحَضْرَتِهِ قَوْمٌ فَقَالَ : أَتَمَنَّى كَمَا تَمَنَيْتُمْ ؟ قَالُوا : تَمَنَّا ! قَالَ « لَيْتَنَا لَمْ نُخْلَقْ ، وَلَيْتَنَا إِذْ خُلِقْنَا لَمْ نَعِصْ ، وَلَيْتَنَا إِذْ عَصَيْنَا لَمْ نَمُتْ ، وَلَيْتَنَا إِذْ مِتْنَا لَمْ نَبْعَثْ ، وَلَيْتَنَا إِذْ بَعَثْنَا لَمْ

نُحَاسِبُ ، ولِيتَنَا إِذْ حُوسِبْنَا لَمْ نَعْدَبْ ، وَلِيتَنَا إِذْ عُدِّبْنَا لَمْ نَخْلُدْ .

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا ، فرفع عنا الهمَّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح ، أوليته إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة ، فرفع عنا الاهتمام بما ينجى من عذابه » .

وفي هاتين الأُمْنِيَتَيْنِ وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الإنسانية التي ما زالت تكذب وتكدر في استكناه أسرار الغيب ، ثم سَقَطَتْ صريعة الإعياء ، بعد مرارة الإخفاق !

وأحبُّ أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية ، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس ، فقد أبتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نخلق ! » وهي أول نفثة يجود بها المكروب ، ثم أخذ يُجِيلُ نظر الحيرة ، ويتمنى إذ خُلِقَ لو وقاه الله المعصية ، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت ، إلى آخر ما قال .

وقيل لبعض العرب : أى شيء تتمنى ، وأى شيء أحب إليك ؟ فقال :
لوائى منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير !

وهذه صورة يبسم لها القارئ ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس . وأدق منها قول الآخر ، وقد قيل له : أجزعت من الموت ؟ وقد صلى ركعتين فأطال ، وكان أمر بقتله . فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفنا منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وقبراً محفوراً »
وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام
 فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه . قال هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة
 الاحتمال على من لا نأمن غيبتة ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً ،
 الناصح جيباً . قال : فإني سأطلق لساني بما خست عنه الألسن تأديةً لحق
 الله تعالى : إنه قد أكتنفتك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا
 دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ،
 فهم حربٌ للآخرة ، وسلمٌ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فانهم
 لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً . وأنت مسئول عما أجترموا
 وليسوا مسئولين عما اجترمت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك : فان
 أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . فقال سليمان : أما أنت
 يا أعرابي ، فقد سللت لسانك وهو سيفك . قال : أجل يا أمير المؤمنين
 لك لا عليك !

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني يتكون منها غرض
 واحد . وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن
 نفرق بين المعاني والأغراض .



وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد الأصول^(١) .

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف ، وهي فصول كتبت
 أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يضيف المؤلف إلى هذه الطبعة ما جد له
 من الآراء في مدى عشر سنين . ولكننا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى : لأن كتاب « النثر
 الفني » انتهب كل ما وقفنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية ، وليس من الحزم أن ننقل هنا
 ما سجلناه هناك .

البحث الثالث عشر

الحصرى وشوقى

بيننا فى الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر فى الناقد الموازن من الشروط ، وبسطنا القول فى نظرية الصور الشعرية التى نعتد عليها فى النقد بعد مراعاة ما عُنيَ به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب ، والآن ندخل فى بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة ، كما فعل ابن المعتز فى معارضة الحسين بن الضحاك ، وابن عبد ربه فى معارضة مسلم بن الوليد ، وابن درّاج فى معارضة أبى نواس ، والبارودى فى معارضة أبى فراس ، الخ ولهذا البحث أهمية كبيرة ، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة ، وسيرينا كيف تتناول العقول ، وكيف تتسابق القرائح ، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق فى عالم البيان .

وانبداً بالموازنة بين دالية الحُصرى « ياليل الصب متى غده » ودالية شوقى « مضناك جفاه مرقده » فإن لهاتين القصيدتين أثراً فى أندية الأدب ومجالس الغناء ، ومن الخير أن نُحيطَ اللثام عما فىهما من مواطن الحسن ، ومظانّ الضعف ، وأن نبين : أى الشاعرين أبرع لفظاً ، وأشرف معنىً ، وأسمى خيالاً .

والحصري^(١) - بضم الحاء المهملة ، وسكون الصاد المهملة ، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني ، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب ، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وأنه طراً على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق ، فتهاداه ملوك الطوائف تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين زمانه ، وبُعد قطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف ، وتوفي بهارحه الله ، سنة ٤٨٨

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع ، وله ديوان شعر^(٢) ، وهو القائل :

أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَيًّا بِكَأْسٍ لَهَا مِنْ مِسْكٍ رِقَّةٍ خِتَامُ
أَمِنْ خَدَيْكَ تَعَصَّرُ قَالَ كَلَّا مَتَى عُصِرَتْ مِنَ الْوَرْدِ الْمُدَامُ

ويقول ابن بسام في وصفه « على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن ، مشهور اللسن ، يتلفت إلى الهجاء ، تلفت النظم إلى الماء »

وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد ، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن ، وأين الظن من اليقين .

(١) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش ، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى « الحصر » وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان .

(٢) راجع وفيات الأعيان .

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ، فإن التأليف في علم القراءات يدل على ذلك ، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشؤون الحياة ، فإن في الاعتبار وصحة الملوكة عوناً على فهم دقائق الوجود .
أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق ، وله كلف بمعارضة القدماء ، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصيرٌ بشؤون الحياة ، وهو كالحصرى افتتح قصيدته بالنسيب ، واختتمها بالمديح ولكنى سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين ، إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود ، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود^(١) :

قصيدة الحصرى

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ الشَّمَارُ وَأَرْقَهُ	أَسَفُ اللَّبَنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ	مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ
كَلَفُ بَغْزَالٍ ذِي هَيْفٍ	خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا	فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أُنَّى قَنْصُ	لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيِدُهُ
صَمْتُ اللَّفْتَةِ مُتَنَصِّبُ	أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبْدُهُ ^(٢)
صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فِيهِ	سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبُهُ

(١) للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف ، وقد كتب عنه فصولاً أخرى تقدّمها مذاهبه الشعرية والاجتماعية ، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (البداية) .
(٢) الصنم : هو التمثال ، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب ، وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق .

يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نَعْسًا يُعْمِدُهُ
فَيُرِي قَدْ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلَّا لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ



يَا مَنْ جَحَدْتَ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجَحَّدُهُ
إِنِّي لَا أُعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي وَأُظْنُكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ الْمُسْتَقَ كَرِّي فَلَعَلَّ خِيَالَكَ يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَاوَيْتَ ضَنِّي صَبَّ يَدْنِكَ وَتُبْعِدُهُ
لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ عُوْدُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَرَوْدُهُ
يَا أَهْلَ الشَّوْقِ لَنَا شَرَقُ بِالْدَّمْعِ يَفِيضُ مُورْدُهُ
يَهْوَى الْمُسْتَقُ لِقَاءَ كُمُو وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تَبْعِدُهُ



مَا أَحَلَّى الْوَصْلَ وَأَعَذَبَهُ لَوْلَا الْآيَامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَيَا لَفَوَادِي كَيْفَ تَجَلِّدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْنَاكَ جَفَاءَ مَرَقْدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحِمَ عُوْدُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذَّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ

يَسْتَهْوِي الْوُرُقَ تَأْوُهُهُ وَيُذِيبُ الصَّخَرَ تَنْهُهُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقِدُّهُ
وَيَعْلَمُ كُلَّ مُطَوِّقَةٍ شَجَنًا فِي الدُّوْحِ تُرَدُّهُ
كَمْ مَدَّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرِّكَ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بَغْمَضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ
الْحُسْنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ وَالشُّوْرَةُ إِنَّكَ مُفْرَدُهُ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءَ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقْطَعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
جَحَدَتْ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكَ خَدَّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ خَدَّكَ أَشْهَدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرَكُهُ فَأَبَى وَأَسْتَكْبَرَ أَصِيدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامَكَ أَعْطَفُهُ فَنَبَا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
سَبَبَ لِرِصَاكَ أَمْهَدُهُ مَا بَالُ الْخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
يَبْنِي فِي الْحُبِّ وَيَبْنِيكَ مَا لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجْنُ بِهِ فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أَعْبُدُهُ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَامَتْ يَدُهُ
نَافُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبُدُهُ
حُسَادِي فِيهِ أَغْذَرُهُمْ وَأَحَقُّ بِغُذْرِي حُسَدُهُ



قَسَمًا بَشَايَا لُؤْلُؤَهَا قَسَمَ الْيَاقُوتَ مُنْصَدَّهُ
وَرُضَابَ يُوعَدُ كَوَثَرَهُ مَقْتُولَ الْعِشْقِ وَمُشْهَدَهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحْبِجُ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَسْوَدُهُ
وَقَوَامٍ يَرَوِي الْغَضْنَ لَهُ نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفْنِدُهُ
وَبِخَصْرِ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
مَا خُنْتُ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ سَلَوِي بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض ، وإنا لنجد الحصرى
تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرضاب ، وسيف المقتلة ، وجناية
العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء الحب . ونجد شوقي تكلم
عن لوعة المضنى ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين ، وحسن
القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتقديع الحبيب ، والرفق
بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة شوقي إذاً
أحفل بالأغراض .

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع ، وإنا لنجد الحصرى يقول :

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ الشَّمَارُ وَأَرْقَهُ أَسَفُ اللَّيْنِ يَرُدُّدُهُ
فَبَكَاهُ النِّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ

ونجد شوقي يقول :

مُضْنَاكَ جَفَاءُ مَرَقْدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عَوْدُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُ وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَهْدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ شَجْنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية ، لا أول بيت ، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصرى ، وخطاب الحبيب في قول شوقي :

مُضْنَاكَ جَفَاءُ مَرَقْدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عَوْدُهُ
أرق من خطاب الليل في قول الحصرى :

يَا لَيْلِ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه :

حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُ وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَهْدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصرى :

رَقَدَ الشَّمَارُ وَأَرْقَهُ أَسْفُ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقي :

وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

أقرب في صدره إلى الواقع من قول الحصرى :

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرَعَاهُ وَيَرْصُدُهُ

وقول الحصرى في تصيّد الطيف :

نَصَبْتُ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيدُهُ

وَكَفَى عَجْبًا أَنِّي قَنَصُ لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيِدُهُ

أبرع من قول شوقي :

كَمْ مَدَّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيِّدُهُ

فَعَسَاكَ بَغْضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خِيَالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصرى حدثنا عن حقيقة صادقة ، وهي تمتع الطيف : فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الأشرار .

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله :

كَمْ مَدَّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيِّدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيد لمدنا له هيبة الحسن ، وإن الحسن لمهيب الجناح^(١) .

ويروني قول شوقي :

مَوْلَايَ وَرَوْحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُّهُ لَهُ وَخَنَايَا الْأَصْلَعِ مَعْبُدُهُ

حُسَادِي فِيهِ أَغْدَرُهُمْ وَأَحَقُّ بِعُذْرِي حُسْدُهُ

(١) هذه اللفظة تذكر بقول الشاعر :

حَمَى نَفْسَهُ الْحَسَنُ أَضْعَافَ مَا حَمَى نَفْسَهُ الْجَرُّ لِمَا تَهَبُ

فان فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه ، في ظلمه وعدوانه ،
ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخْلِقْ بهذه الآيات أن تكون
صلاةً للحسن ، إِنْ قَضَى اللهُ أَنْ نَصِلَّ لَهُ ، كما يصلّى فريق للشمس عند
الشروق ، والهوى - كما قيل - إله معبود .

وما أرق شوقي وأرقه حين يقول :

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءِ الْخُلْدِ وَأَمْرُدُهُ

فان الحسن لا يُعْبَدُ بأرق من هذا الوصف ، وهل العبادة إلا وصف
المعبود بالتفرد والجلال .

وقول الحصرى :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فِيهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ

أروع وأبدع من قول شوقي

وَرُضَابٍ يُوعَدُ كَوَثَرُهُ مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فان بيت الحصرى بيت
فَذُّ نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعرية رائعة ، وما رَدَّدَتْهُ إِلَّا قُتِنْتُ بِهِ فِتْنَةً
جديدة ، وظهر لى منه معنى جديد ، كالوجه المشرق لانهاية حسنه ، ولا حدَّ
لقدرته على تصريف القلوب .

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » في قوله :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فِيهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ

وما هذه العريضة يا صاح ؟ إنها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ ، وأنت تنهل
من وِردِهِ العذب الجميل !

وقول شوقي :

جَعَدْتَ عَيْنَكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكَ خَدَّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ لِحْدَكَ أَشْهَدُهُ

أرق من قول الحصرى :

يَا مَنْ جَعَدْتَ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ
لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن ، وزاده تمكيناً
في النفس ، على ما فيه من الابتدال .

وقد أجاد الحصرى في استعطاف الحبيب إذ يقول :

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْسَ عَلَيْهَ عَوْدُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ
ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي . وإنها لتذكرنا بهذا البيت الحزين :

وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الَّذِي أَرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجَلِي

مظان الضعف

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصرى :

صَنَمٌ لِلْفِئْتَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبَّدُهُ

لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية ^(١) . والعرب تستملح « الدمية » في وصف المرأة الجميلة . والدمية هي الصورة المنقشة من الرخام ، والجمع دُمى ، قال بعض الأعراب :

(١) لكثرة ما ورد في ذم الأصنام ، وقد أشرنا في هامش سلف إلى أن هذه الكلمة لا تزال حية على ألسنة أهل المغرب ، وهم يقولون « صنم » حينما يشيرون إلى التمثال .

وَإِنِّي لَأَهْدَى بِالْأَوَانِسِ كَالْهَمَى وَإِنِّي بِأَطْرَافِ الْقَنَا لِلْعُوبِ
وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ غُنْجِيَّتِي وَلَوْثَهُ أَغْرَايَتِي لِأَدِيبِ
وكذلك أستضعف قول الحصرى :

مَا أَحَلَّى الْوَصَلَ وَأَعَذَبَهُ لَوْلَا الْإَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَيَا لِقَوَادِي كَيْفَ تَجَلِّدُهُ
وأضعف منه قول شوقي :

يَنِينِي فِي الْحُبِّ وَيَنِينُكَ مَا لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين ، وهو لا يزيد شيئاً عن الصوت العالى المشهور « كيد العواذل كايدي بس اسمع شوف » .
وكذلك لا قيمة لقوله :

وَبِمَخْصَرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
وهى مبالغة مردودة ، لأن الذى يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود .

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وَقَوَامٌ يَرَوِي الْغُصْنَ لَهُ نَسَبًا وَالرُّمَحُ يُفْنِدُهُ

كما أساء الحصرى إلى شعره إذ قال :

إِنِّي لِأَعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي وَأَظْنُكَ لَا تَعَمِدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !

روعة الخيال

وإنه ليكمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصرى وشوقى من
الخيال الرائع ، وإنا لنستجيد قول الحصرى :

يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نِعَاسًا يُعْمِدُهُ
فَيُرِيْقُ دَمَ الْعُشَاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلَّا لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

وإن البيت الأول لِمَنْ وثبات الخيال ، وفي البيت الثانى ضعف ، والثالث مع
ضعفه مستملح مقبول .

ونستجيد كذلك قول شوقى :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَخَنَآيَا الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ

وللقارئ أن يلومنا فى استجادة هذا البيت ، وأن يذكر أن هذا أيضاً خيال
فقهاء ، لا خيال شعراء . ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من
الألفاظ التى استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون
بمعالم اللو ، وملاعب الشباب ، ولهم فى الأديار شعر ممتع غُنيت بتفصيله فى
غير هذا الحديث^(١) ، وكذلك ظرُف شوقى حين تحدث عن المعبد والناقوس ،
وكان خياله قريباً فى الحسن من خيال الحصرى ، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد
يُعْمِده النعاس ، وإنى لمفتون بهذا الخيال .

البراعة فى تناول المعانى

وإنا لنرى شوقى أبرع من الحصرى فى تناول المعانى ، ومن السهل أن

(١) تجد هذا البحث فى كتاب « أثر الشعر فى ربط الشعوب » .

نعلل هذا : فإن الحصرى لم يَجْرِ في قصيدته إلا على الفطرة ، وكان من ذلك أن رَضِيَ بعفو الخاطر . أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق ، وكان من ذلك أن عُنِيَ بترتيب المعاني ، واختيار الألفاظ ، وتنوع الأغراض . على أن هذا التكلف لم يعض بلا عيوب ، فإنه لا معنى لقول شوقي :

وَبِخَالٍ كَادَ يُجِجُ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَسْوَدُهُ

ولا روتق لقوله :

وَتَمَّتْ كُلُّ مُقَطَّعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبَعَتْ تَشْهَدُهُ



الحكم

وللقارئ — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ، ومظان الضعف ، ومواقع الخيال : ليرى أيّ الشعارين أولى بالسبق ، وأيهما أرجح في الميزان . وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب ، فإننا لا نُعْنَى بالأشخاص ، وإنما يعيننا أن ندرس الشعر ، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف ، والحسن والقبح . وكذلك ندرس البيان ، ونحن نوازن بين الشعراء .



البحث الرابع عشر

البحترى وشوقى

قلنا إن لشوقى كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء ، ووازنّا بين داليتيه ودالية الحصرى فى الكلمة السابقة ، والآن نوازن بينه وبين البحترى ، فقد عارض سينيته فى وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء . ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة ، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان .

ولنذكر أولاً أن شوقى يتأثر البحترى منذ زمن بعيد ، ويودّ لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التى ضربت بها الأمثال .

ولننظر كيف يقول فى خطاب « أم الحسين »

النَّيْلُ فَجَرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْمًا وَتَفَجَّرَتْ يُمْنَاكِ خَمْسَةَ أَجْرٍ
أُحْيَيْتَ فِي فَضْلِ الْمُلُوكِ وَعِزِّهِمْ مَا مَاتَ مِنْ أُمَّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرٍ
إِنَّ الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا فِي بُرْدَتَيْكِ أَعَادَ فِي الْبُحْتَرِيِّ

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :

وَعَظَّ الْبُحْتَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَّتْنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ

حياة البحترى

وُلد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى فى سنة ٢٠٦ بِمَنْبِج بين

حلب والفرات .

ومنبج - بالفتح ، ثم السكون ، وباء موحدة مكسورة وجيم - بلد
قديم طيب الهواء . وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البحترى ، وأبو
فراس . ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذى قال له الرشيد لما دخل
منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولى بك يا أمير المؤمنين . قال : كيف
بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلى ، وفوق منازل الناس .

قال وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلِقُ أمير المؤمنين
أَتَأْسَى به ، وأقفوا أثره ، وأخذوا حذوه .

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الأدواء
قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرُ كُلِّه !

وفى التشويق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر ، وقد خَلَّى بها شُعْبَةً
من فؤاده :

وَلَيْلَةَ عَيْنِ الْمَرْجِ زَارَ خَيَالُهُ فَهَيَّجَ لِي شَوْقًا وَجَدَّدَ أَحْزَانِي
فَأَشْرَفْتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طَامِحًا بِالْمَحِ آمَاقٍ وَأَنْظُرُ إِنْسَانٍ
لَعَلِّي أَرَى آيَاتَ مَنْبِجِ رُؤْيَا

تَسْكُنُ مِنْ وَجْدِي وَتَكْشِفُ أَشْجَانِي
فَقَصَّرَ طَرْفِي وَأَسْتَهْلَ بِعَبْرَةٍ وَفَدَّيْتُ مَنْ لَوْ كَانَ يَدْرِي لَفَدَّانِي
وَمَثَلُهُ شَوْقِي إِلَيْهِ مُقَابِلِي وَنَاجَاهُ عَنِّي بِالضَّمِيرِ وَنَاجَانِي

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر فى رقة
البحترى ، وجمال شعره ، فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل

الأدواء ، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر ، والكاتب ، والخطيب^(١) ،
ولأن البحترى كان كثير الحنين إلى منبج ، وكان كثيراً ما يشيد بها في شعره
ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي :

لَا أُنْسَيْنَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وَظِلَالًا عَيْشٍ كَانَ عِنْدَكَ سَجْسَجَ
فِي نِعْمَةٍ أَوْطَتْهَا وَسَكَنْتُ فِي أَفْيَئَهَا فَكَأَنِّي فِي مَنْبِجٍ
بداية حياته

شبَّ البحترى وترعرع في منبج . وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب
البصل والبالذنجان !!

قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي شبَّ بها في كثير من أشعاره ،
وهي بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أمها » ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة
الحلبية أم علوة كان لها شأن في عالم الجمال ، وأن البحترى حين أغرم بعلوة لم
يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب ، نشأت في مهد المرح ، وتقلبت
فوق أعطاف الدلال . ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير خلّفوا لنا
دُمية لعلوة ، وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في
صدر الوليد ، وعلمته كيف تكون الشكوى ، وكيف يكون الأنين ! وإن
الشعر لمدين لهذه الإلهة التي أوحى إلى البحترى أن يقول بعد أن خلاها
بالشام ، وسكن العراق :

أَعِيدِي فِي نَظْرَةٍ مُسْتَشِيبٍ تَوَخَّى الْأَجْرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَامَا

(١) انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب :
« النثر الفني » .

تَرَى كَبِدًا مُّحَرَّقَةً وَعَيْنًا
الْأَمُّ عَلَى هَوَاكٍ وَلَيْسَ عَدْلًا
لَقَدْ حَرَّمْتَ مِنْ وَصْلِي حَلَالًا
تَنَاءَتْ دَارُ عَالَوَةٍ بَعْدَ قُرْبٍ
وَجَدَدَ طَيْفُهَا عَثْبًا عَلَيْنَا
وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدِ بَتُّ أَسْقَى
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَأَعْتَنَّا
لَيْثٍ أَضْحَتْ مَحَلَّتْنَا عِرَاقًا
فَلَمْ أَحْدِثْ لَهَا إِلَّا وَدَادًا
مُورَقَّةً وَقَلْبًا مُّسْتَهَامًا
إِذَا أُنْبِتَتْ مِثْلَكَ أَنْ الْأَمَّا
وَقَدْ حَلَلْتَ مِنْ هَجْرِي حَرَامًا
فَهَلْ رَكِبْتُ يُبَلِّغُهَا السَّلَامَا
فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِمَا
بَعَيْنُهَا وَكَفَيْنَا الْمُدَامَا
وَأَفْنَدْنَاهُ ضَمًّا وَالْإِتْرَامَا
مُشْرِقَةً وَحَلَّتْهَا شَأْمَا
وَلَمْ أَزِدْ بِهَا إِلَّا غَرَامَا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان . ومن الوقار أن لا نعرض لها في هذا الحديث ، وقد بسطنا عنها القول في كتاب « مدامع العشاق » ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك النفس ، وإنه ليقول :

هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى الظَّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ
أُمْدٌ كَفَى لِأَخْذِ الْكَاسِ مِنْ رَشَاءٍ
بِقُرْبِ أَنْفَاسِهِ أَشْفَى الْغَلِيلِ إِذَا
وَنَشْوَةٍ بَيْنَ ذَاكَ الْوَرْدِ وَالْآسِ
وَحَاجَتِي كُلُّهَا فِي حَامِلِ الْكَاسِ
دَنَا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين ، فقد صار إليه وهو بجمّص ، وعرض عليه شعره

وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده ، وعرض عليه شعره . فلما سمع شعر البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس . فلما تفرقوا قال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه خلة ، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النعمان يشهد له بالحدق ويوصيهم بإكرامه ، قال البحتري « فأكرموني بكتابه ، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكانت أول مال أصبته » وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري ، فأنشدني بيت أوس ابن حجر :

إِذَا مُقَرَّمٌ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نَابِهِ تَحْمَطُ فِينَا نَابُ آخَرِ مُقَرَّمٍ^(١)
وقال : نعت إلى نفسي ! فقلت : أعيدك بالله من هذا ! فقال إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيفاً مثلك . أما علمت أن خالد بن صفوان المنقرى رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم ، وهو من رهطه ، فقال يابني : نعي نفسي إلى إحسانك في كلامك ، لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله . قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا .

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر ، حتى قالوا إنه في اختياره أبلغ منه في شعره .

وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر ، فقال لي « أحسنت ، أنت أمير الشعراء بعدى » فكان

(١) الفحل المفرم هو الذي أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة وقرمه ، وتحمط الفحل : هدر . ومن المجاز : تحمط الرجل : تغضب وثار . والمراد هنا من تحمط الناب ظهوره وارتفاعه .

قوله أحب إلي من جميع ما حوته .

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحترى ، فقد نوّه بها ابن رشيق ، وساقها صاحب زهر الآداب ، وهى تدلنا على رأى أبي تمام فى نظم الشعر وذوقه فى اختيار الأوقات ، وتدلنا كذلك على أسلوب البحترى فى حياته الأدبية ، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه . وفيها أيضاً نوع من التريية نحب أن نسجله فى هذا الحديث .

قال البحترى : كنت فى حدائثى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم . وأعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوَجُّع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياذ ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبّن معالمه وشرف مقامه ، ونصّد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه : فإن الشهوة نعيم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما

استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

قال البحرى : فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة ^(١)

ولهذه الوصية أغراض ، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض ، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن ، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبوتام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء ، أوصوا باختيار الأوقات التى تصفو فيها النفس ويألف الحس ، ويستيقظ الوجدان ، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية ، والرياض الحالية ، والأما كن الحالية . إلا أن أباتمام — مع أنه مسبوق — وفق كل التوفيق حين قال « واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة فى حياة الفنانين على الإطلاق ، سواء أ كانوا شعراء أم كتاباً ، أم مصورين ، أم مثالين ، لأن الإجادة فى الفنون تتوقف على الشهوة ، وأ كاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد ، إلا إن كان له من فنه معبود جديد .

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبوتام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح ، وسكت عن بقية الأغراض التى يهتم بها الشعراء ، فلم يتكلم عن الرثاء ، ولا الهجاء ، ولا الفخر ، ولا الوصف . مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء ، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التى تنطبق على كل موضوع إذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » . وهى كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال .

ولا يحسن القارىء أن فى إقبال البحرى على ما أوصاه به أستاذه دليلاً

(١) السياسة هنا حسن التدبير .

على أن شعر أبى تمام وشعر البحتري من نط واحد . . كلا ! فان أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ ، ولا يمثل الشاعر ، لأننا لو حاكنا شعره إلى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد ، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب ، فان أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلاً ، وحظه من صدق اللوعة ضئيل .

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء ، فان في عناية البحتري بوصية أستاذه بياناً لأسلوبه في رياضة نفسه ، وتهذيب شعره ، فلننظر بهذه المناسبة ، كيف يروض شوقي نفسه ، وكيف يهذب شعره ، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض ، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة ، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان ، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم .

صاحب شوقي إن شئت ، فستراه قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت ، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ، ولكنى وقد عرفت شوقي ، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى ، وليلاه هى الشعر ، وهو بالشعر مجنون ، لا مغرم ولا مفتون ، فان الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب . يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له ، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة ، وكأنه يبحث عن شيء فى لفائف قلبه ، وحنايا نفسه ، وأعماق ضميره - دخلت عليه ، وهويتأهب لرثاءعبد اللطيف الصوفانى ، فأخذ يحدثنى عن

الجامعة المصرية ونظامها الجديد ، ثم بفتى بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من العضلات ، هو تمثال إخلاص ، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزملاء ؟ » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه ، ونفسه ، وحسه ، ووجدانه ، في شغل بما يعده لثناء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية ، ثم انتظرت يوم التأين ، فإذا هو يقول عن أثر الفقيه في المجالس النيابية :

مَا كَانَ قُتًى وَلَا زِيَادًا وَلَا يَسْحَرُ الْبَيَانَ جَاءَ
لَكِنْ إِذَا قَامَ قَالَ صِدْقًا وَجَانِبَ الزُّورِ وَالرِّيَاءِ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفاً صادقاً حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم ، وليس معهم ، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظره ، وقد برق وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به ، وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيئاً بعد هنيئة - فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه ، جميل البادرة ، كعاداته في الحديث - ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهاً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمه ، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة - يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ، ولا

يندر عليه أن يبرزهم - لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى ، فأما المعنى فيجيبه على مرامه ، أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الأفرنج والأعراب ، وفلسفة الحقوق ، وحقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتذنيات فنية ، استقاهها من مطالعته في صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحترى ، ومن صياغة أبى تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف ، ومن مسلسلات مهيأ ، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهى أنه نظم شوقى : ذلك شعر العبقرية والتفوق .

ملاح وصفية

وإذ ذكرنا عادة البحترى وشوقى فى قرض الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان فى العناية بالآداب العربية ، فقد ترك البحترى كتاباً سماه « معانى الشعر »^(١) وترك كتاباً آخر فى الحماسة كالذى تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات . وشوقى - وإن لم يصنف كتباً فى الآداب - يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف ، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب . ويختلفان فى إنشاد الشعر والإشادة به ، فقد كان البحترى يحتق بأنشاد شعره ، ويسلك فى ذلك مسلك التلحين والتطريب ، كان يطيل

(١) قد يظن أن هذا كتاب فى النقد ، ولكننا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعانى .

النظر في وجوه الحاضرين ، ليرى مبلغ إعجابهم به ، وإكبارهم له ، حتى نفر
الناس منه ، وعبث به أهل السفه ، وأصحاب المجون . أما شوقي : فقلما
يتحدث عن شعره ، وقلما ينشده ، وإنما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن
الفهم ، وحسن الأداء . وهذا المسلك ، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم ،
غير مأمون العواقب ، وكثيراً ما آذى الشاعر ، وعاد عليه بالضرر البالغ .

وفاء البحترى وشوقي

ولقد كانت الشاعرية ، ولا تزال ، دالة على سمو النفس ، وبقظة
الوجدان ، والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس ، وقد وقع للبحترى
وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس ، ومتانة الخلق
وكرم العنصر ، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي ! فلنكتف بهذا التلميح
ولنذكر ما صير البحترى مثلاً في الوفاء .

كان المتوكل - كما ذكر صاحب زهر الآداب - عقد لولده المنتصر
والمعز والمؤيد ولاية العهد ، ثم تغير على المنتصر دون أخويه ، وكان يسميه
المنتظر ، ويقول له : أنت تتمنى موتى ، وتنتظر وقتي ! ويأمر الندماء أن يعذبوا
به إلى أن أوغر صدره ، وأقل صبره ، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون
من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، كان المتوكل يشرب مع الفتح في
قصره المعروف بالجعفرى ، ومعه جماعة من الندماء والمغنين ، وكان المنتصر
معه ، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركي : ألا تسمعى

ساعة حتى أشكو إليك ما يرئى ؟ قال بلى ، وجعل يماطله ويطاوله ، وغلق
بُغَا الشرايى الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل ،
وقد ضربوه ضربة قُطع بها حبل عاتقه ، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه ،
فقتلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته . قال الحصرى « وكانت مدة المنتصر
فى الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » - وللظالم الويل
كانت هذه القتلة الشنيعة التى تردى بها خليفة من خلفاء المسامنين ،
وكان هذا الخليفة ولى نعمة البحرى ، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافياً
فى ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله :
« ما قلت هاشمية أحسن منها ! وقد صرح فيها تصرّيح من أذهلته المصائب
عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنَسُهُ	وَقُوضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ
تَحْمَلُ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً	فَاضَتْ سَوَاءٌ دُورُهُ وَمَقَابِرُهُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ	وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَازِرُهُ
وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ	عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَارُهُ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى	وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَنْهَجُ زَائِرُهُ
فَإِنَّ عَمِيدَ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ	تَنْوُبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ
تَخَفَى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ	وَأَوَّلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهُ
صَرِيحُ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً	يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ مُحَرُّ أَظَافِرُهُ
حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى	دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طَالِبٌ	مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالْدَّمِ وَاتِرُهُ

فَلَا مُلَّ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ
ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك
أن البحتری كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، على أنه لم يقف
عند هذا الحد ، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح
ابن خاقان ، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه :
تَذَارَكْنِي الْإِحْسَانُ مِنْكَ وَنَالَنِي عَلَى فَاقَةِ ذَاكَ النَّدَى وَالتَّطَوُّلُ
وَدَافَعْتَ عَنِّي حِينَ لَا الْفَتْحُ يُرْتَجَى لِدَفْعِ الْأَذَى عَنِّي وَلَا الْمُتَوَكَّلُ
وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مَضَى جَعْفَرُ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ قَتِيلٍ فِي الدَّمَاءِ مُضَرَّجِ
أَطْلُبُ أَنْصَارًا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ مَا
ثَوَى مِنْهُمَا فِي الثَّرْبِ أَوْسَى وَخَزَرَجِي

وانظر كيف يقول ، وقد بان بعض من يهوى :

عَسَى آيسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يُوصَلُ وَدَهْرُهُ تَوَلَّى بِالْأَحِبَّةِ يُقْبَلُ
أَيَا سَكَنًا فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ وَحَالَ التَّعَادِي دُونَهُ وَالتَّزَيُّلُ
أَتَعْجَبُ لِمَا لَمْ يَغْلُ جِسْمِي الضَّنَى وَلَمْ يَخْتَرِمِ نَفْسِي الْحِمَامُ الْمُعْجَلُ
فَقَبْلَكَ بَابَ الْفَتْحِ عَنِّي مُودَعًا وَفَارَقَنِي شَفْعًا لَهُ الْمُتَوَكَّلُ
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِي كُنْتُ أُرْتَجَى وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِي خِلْتُ يَفْعَلُ
وَمَا كُلُّ نِيرَانِ الْجَوَى تَقْتُلُ الْحَشَا وَمَا كُلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

تلك هي نفس البحتری ، الذي عذَّبته علوة في بداية حياته ، وصهره
الحزن على المتوكل في أخريات أيامه ، وقد عرف القارئ عنه شيئاً فيه بعض

الغناء ، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف ،
ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك ، والتفجع
لنكبات الشعوب ، قبل أن يرى كيف وصف البحترى إيوان كسرى ،
وكيف وصف شوقي قصر الحمراء .

البحث الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحترى وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية ، لا اجتماعية ، فكان الشاعر
يبكى وجده ونعيمه ، وهو يندبُ الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم يهتم
العرب ببكاء الممالك ، والتفجع للشعوب ، إذ كانوا في بداية الحياة ، وكان
الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه ، وأهله ، وذويه ، فكانوا في شغل بأنفسهم
عن بلایا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون .

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف
والترهيب ، فلم يعطف عليها بكلمة ، ولم يَسْتَرْ لها عَوْرَةً ، لأن القرآن
لم يكن كتاب شعر ، يرمى إلى روعة الفن وجمال الخيال ، وإنما كان
كتاب حكمة وموعظة ، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة : « أَوَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ
مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية ، لكان له شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ، ومن إليهم من الجبارة والطغاة ، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يفيض لو كان القرآن كتاب فنّ وكتاب خيال .
على ان العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغنى بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية ، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو ، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب ، فن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نَامَ الْخَلِيٌّ وَمَا أَحْسَ رُقَادِي	وَأَهْلَهُمْ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي
مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمَ وَلَكِنْ شَفَنِي	هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُوَادِي
وَمِنْ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالِكَ أَنِّي	ضَرَبْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَسْدَادِ
لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ	بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي تَبَأْتَنِي	أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُتُوفَ كِلَاهُمَا	يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
لَنْ يَرْضِيَا مِنِّي وَفَاءً رَهِينَةً	مِنْ دُونِ نَفْسِي طَارِفِي وَتِلَادِي

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

مَاذَا أَوَّمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقِ	تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الْخَوَزَنْقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
أَرْضُ تَخَيَّرَهَا لَطِيبٍ مَقِيلَهَا	كَعْبُ بْنُ مَآمَةَ وَابْنُ أُمِّ دُوَادِ

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَكَانٍ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادٍ
وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتٍ الْأَوْتَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقَرَةِ يَسِيلُ عَلَيْهِمُ مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال :

إِمَّا تَرِينِي قَدْ بَلَيْتُ وَغَاضَنِي مَا نِيلَ مِنْ بَصَرِي وَمِنْ أَجْلَادِي ^(١)
وَعَصَيْتُ أَصْحَابَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا وَأَطَعْتُ عَاذِلَتِي وَلَانَ قِيَادِي
فَلَقَدْ أَرَوْحُ عَلَى التَّجَارِ مُرَجَّلًا مَذِلًّا بِمَالِي لَيْنًا أَجْيَادِي
وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ بِسَلَافَةٍ مُزَجَّتْ بِمَاءِ غَوَادِ
مِنْ خَمَرٍ ذِي نَطْفٍ أَغْنَى مُنْطَقَ وَافَى بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأَفْجَادِ
يَسْعَى بِهَا ذُو ثَوْمَتَيْنِ مُشْمَرٌ قَنَاتٌ أَنَامِلُهُ مِنْ الْفِرْصَادِ
وَالْبَيْضُ يَرْمِي الْقُلُوبَ كَأَنَّهَا أُدْحِي بَيْنَ صَرِيمَةٍ وَجَمَادِ
يَنْطَفِنُ مَعْرُوفًا وَهَنْ نَوَاعِمِ بَيْضُ الْوُجُوهِ رَقِيقَةٌ الْأَكْبَادِ

ونحا هذا المنحى مُتَمِّمٌ بِنُؤْيَرَةٍ فِي عَيْنَيْهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا حِمَالَةَ أَنِّي لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرِينِي أَجْزَعُ
أَفْنَيْنَ عَادًا ثُمَّ آلَ مُحَرَّقٍ فَتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا وَمَا قَدْ جَمَعُوا
وَلَهُنَّ كَانَ الْحَارِثَانِ كِلَاهُمَا وَلَهُنَّ كَانَ أَخُو الْمَصَانِعِ تَبَعُ ^(٢)
لَا بَدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَاتَنْظُرْ أَبَارِضَ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تُصْرَعُ

(١) الأجلاد : جمع جلد بالتحريك ، وهو القوة .

(٢) المصانع : القصور .

وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً يُبْكِي عَلَيْكَ مُقْتَنًا لَا تَسْمَعُ
وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض
من الممالك والشعوب ، ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تُشدُّ إليها
الرحال ، كوقفه البحترى عند رؤسوم الإيوان ، ووقفه شوقي عند
أطلال الحمراء .

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى ، الذي استلم البحترى أحجاره ،
وطاف بأركانه ، كان مضرب المثل عند الأعراب ، فقد قيل لأعرابي :
كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار ، وأنتعل كل شيء ظلّه ؟ فأجاب
وهل العيش إلا ذاك ؟ يعيش أحدا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ، ثم
ينصب عصاه ، ويلقى عليها كساءه ، وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه
في إيوان كسرى .

وقد حكي فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار
خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عمارة بغداد ، فقال له :
لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما
الأمر بما ظن أمير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة وديناً وقوماً
أذهبوا ملك بانيه لدين ومُلك عظيم ، فلم يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه ،
فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه ، فقال خالد : الآن أرى
يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره
غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة !

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة ، وقد تكون خُرافة تناقلها الناس ، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان في صدور العرب لذلك العهد .
أما قصر الحمراء الذى بكاه شوق فهو من قصور الأندلس ، والأندلس هى الفردوس المفقود ، الذى يبكيه المسلمون ، ولنتظر فسيحدثنا شوق عنه أصدق الحديث .

نفسية البحترى

وأريد بنفسية البحترى ذلك الخاطر الذى استولى عليه حين هم بوصف الايوان ، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداها فى بداية القصيدة ، والثانية فى النهاية ، أما الأولى فهى الهرب من الهموم ، ومن ظلم الأقارب ، بالفرع إلى طول الايوان ، ينسى فى أكنافها حزنه وبثه ، ويستودعها أساه وشجاءه ، وذلك حيث يقول :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ ^(١)
وَتَمَسَكْتُ خَيْثُ زَعَزَعَنِ الدَّهْرُ التَّمَاسًا مِنْهُ لِنَفْسِي وَنَكْسِي
بُلُغَ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي طَفَفَتْهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسٍ
وَبَعِيدُ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفِهِ عَلَلَّ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خَمْسٍ ^(٢)
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ حَمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ
وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةً غَنِيً بَعْدَ يَغْيِ الشَّامِ بَيْعَةَ وَكْسٍ
لَا تَرْزَنِي مُزَاوِلًا لِاخْتِيَارِي عِنْدَ هَذِي الْبُلُوَى فَمُنْكَرٍ مَسِيٍّ ^(٣)

(١) الجبس : هو الدناء الجبان . (٢) الخمس : شر الأظواء . (٣) لا ترزنى : لا تمتحنى .

وَقَدِيمًا عَهْدَتِي ذَا هَنَاتٍ آيَاتٍ عَلَى الدَّيْنَاتِ شُمُسِ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بُؤُسَ ابْنِ عَمِّي بَعْدَ لَيْلٍ مِنْ جَانِبِيهِ وَأَنْسِ
وَإِذَا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيًّا أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُنْسِي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَيَّضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
أَتَسَلَّى عَنْ الْخُطُوبِ وَآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
ذَكَرْتُهُمْ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان ، وليست الدار داره
ولا الجنس جنسه ، لأن لأهله نُعْمَى عند أهله ، ولأنهم أيدوا ملكهم
وشدوا قُؤَاهُ ، بما أمدوهم به من الكتاب في أيام القتال ، وذلك حيث يقول

عُمِّرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارَتْ لِلتَّعْزَى رِبَاعُهُمْ وَالتَّأْسَى
فَلَهَا أَنْ أَعَيْنَهَا بِدُمُوعٍ مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
ذَلِكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي بِأَقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَيْرَ نُعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ
أَيَّدُوا مَلَكَنَا وَشَدُّوا قُؤَاهُ بِكُمَاةٍ تَحْتَ السَّنَوَرِ مُجْسِ (١)
وَأَعَانُوا عَلَى كِتَابِ أَرْيَا طِ بَطْعَنِ عَلَى النُّحُورِ وَدَعْسِ
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكْلَفٍ بِالْأَشْرَا فِي طَرًّا مِنْ كُلِّ سِنِيخٍ وَأَسِ (٢)

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس ، ويبيكى
المجد الذاهب ، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب .

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين همّ بوصف الحمراء ، فترك لنا قطعة مثورة تصف حسه ووجدانه ، وهو يطوف بذلك البيت ، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة ، فانا نراه قدّم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت ، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل ، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها ، ورّم لهم ربوع السلم وجدد مزارها ، أصبحت وإذا العوادي مقصرة ، والدواعى غير مقصرة ، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب ، والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة ، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّ ، والبخار المشتدّ ، أوبال سفن الكبرى الخارجة من المحيط ، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت النفس بمرآه الأرب ، وكملت العين في ثراه بآثار العرب ، وإنها لشتى المواقع ، متفرقة المطالع ، في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرها من حرّم إلى حرم ، كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق والكرم ، طليطلة تُطلّ على جسر البالى ، وأشبيلية تشبل على قصرها الخالى ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان البحترى رحمه الله رفيق في هذا الترحال ، وسميرى في الرحال ، والأحوال تصلح

على الرجال ، كل رجل لحال ، فانه أبلغ من جلّي الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر
الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام في مآثم على الدول الكُبر ، والملك البهاليل
الغرر ، عطف على الجعفرى حين تحمل عنه الملا ، وعُطّل من الحلّى ،
ووكّل بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده في السيّر ، وبني ركنه في الخبر ،
وجمع معالنه في الفكر ، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة
وإن خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه ، حتى زال عن الأرض
إلى ديوانه ، وسينيته المشهورة في وصفه ، ليست دونهُ وهو تحت
كسرى في رصه ووصفه ، وهى تريك حسن قيام الشعر على الآثار ،
وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار . قال صاحب (الفصح القسى في
الفتح القدسى) بعد كلام : « فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحرى في
وصفه ، تجدوا الإيوان قد خرت شَعَفَاتُهُ ، وعُفِّرَتْ شُرْفَاتُهُ ، وتجدوا سينية
البحرى قد بقى بها كسرى في ديوانه ، أضعاف ما بقى شخصه في إيوانه » .
وهذه السينية هى التى يقول فى مطلعها :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدُكُّسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من آياتها قوله :

وَالْمَنَايَا مَوَائِلُ وَأَنُوشِرُ

وَأَن يُرْجَى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفُسِ^(١)

فكنت كلما وقفت بحجر ، أو طُفْتُ بأثر ، تمثلت بأياتها ، واسترحت من
موائل العبر إلى آياتها ، وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

(١) الدرفس : العلم ، وهى كلمة فارسية ، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية : Drapeau

وَعَظَّ الْبُحْتَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَقَنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ
 « ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى
 نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الريضة ، وأنا أعرضها
 على القراء ، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء ، ويسحبوا على عيوبها
 ذيل الإغضاء . »

وهذه الكلمة تمثل ثر شوقي ، فهو يسجع ولا يكاد يُبين^(١) ، غير أنه
 قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة تسير مسير الأمثال ، كقوله في وصف آثار
 العرب في بلاد الأسبان :

« يسرى زائرهما من حَرَمٍ إلى حَرَمٍ ، كمن يمسي بالكرنك
 ويصبح بالهرم . »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل .
 وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري : فهو عنده « أبلغ من جَلَى
 الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر » وتصور لنا تلك الكلمة
 ما كان يحول في نفس شوقي ، وكيف كان روح البحتري يُطيفُ به وهو
 يطوف بالجرأ .

ولا ندرى من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد
 من قصيدة البحتري هو قوله :

وَالْمَنَايَا مَوَائِلٌ وَأَنْوِشِرُ وَأَنْ يُزْجِيَ الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ

(١) غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة ، وكان يرى نفسه أكتب الناس ، ونحن لا نؤمن
 بقوته السكتانية ، ولكننا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس .

وكننا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان :

لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِّجَنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِّإِنْسٍ
وقوله في بكائه :

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيْلِيَّ جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
ولشوقي رأيه ، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق .

البحث السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحترى ابتداءً سينيته بالتبرم بالعيش
وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقربين ، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن
اجتماعية ، وإنما كانت فردية . أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة وجدانية ،
تفيض بالحنين إلى مصر ، وتزخر بالشوق إلى النيل ، وهو كأنما يتكلم عن
نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه
من وطأة الظلم ، ويتفجع لما تقاسى بلاده من قسوة الاضطهاد ، وإنه ليكي
ملاعب شبابه ، وعهود صباه ، حين يقول في مطلع هذه السينية :

أَخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَأَذْكُرُ إِلَى الصَّبَا وَأَيَّامَ أُنْسِي
وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ صُوِّرَتْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسَّ
عَصَفَتْ كَالصَّبَا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ سِنَةٌ حُلُوءَةً وَلَذَّةً خَلَسَ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسَّى
كُلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسَّى
مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ
ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى
روعة الحسن في قوله :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسَّى
فقد جعل حبه لبلاده أعزَّ من أن تنال منه الليالي ، وجعل جرحه في هوى
مصر أعضل من أن يطبَّ له الزمان ، وانظر كيف وصف قلبه حين قال :
كُلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسَّى
مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ
وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هبَّ النسيم ،
كما كان يتحدث الأعراب ، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ
المحيط . وأين وميض البرق ، وهبوب الريح ، من أصوات البواخر في غسق
الليل ؟ ! - ثم قال :

يَا ابْنَةَ الْيَمِّ مَا أَبُوكَ بَخِيلٌ مَا لَهُ مُوَلَعًا يَمْنَعُ وَحَبْسِ
أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جَنْسِ
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَيْثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجْسِ
والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة ، أما الذين قرءوها
يوم قالها شوقي فلم يفهم فيها رأى ، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام

العرفية ، لا قدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة ، فقد كنا نتغنى
بقول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
ثم تمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة ، نُفِّرَتْ عنها البلابل المغردة ،
ثم صارت مأوى للبوم ، ومقيلاً للغربان ، وكذلك كانت مصر في ذلك
الحين ، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد ، يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى
مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبه ، ولا يدنو منه
مأمول ، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أئيم القلب ،
وقاح الوجه ، خيبت اللسان !! وسيظل قول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
سيظل هذا البيت مشاراً للشجى والأسى ، حتى تغدو تلك الشجرة ذات
الظلال والأفنان ، وهى للبلابل مأوى وللطواويس مقيلا . أما قوله :
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجْسٍ
فهو رمية مسددة في صدر الظلم ، ونحر الاستبداد ، وسيظل غصة يشجى
بها بعض الحلو - ثم قال في خطاب الباخرة :

نَفْسِي مِنْ جَلِّ وَقَلْبِي شِرَاعٌ بِهِمَا فِي الدُّمُوعِ سِيرِي وَأَرْسِي
وَأَجْعَلِي وَجْهَكَ « الْفَنَارَ » وَمَجْرًا لِي يَدَ « الشَّعْرِ » بَيْنَ رَمَلٍ وَمَكْسِي
وَطْنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفَوَادِ فِي سَلْسَبِيلِ ظَمًا لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخْلُ حِسِّي

يُصْبِحُ الْفِكْرُ وَالْمَسَلَةُ نَادِيهِ وَبِالسَّرْحَةِ الزَّكِيَّةِ يُمَسِّي
وَأَيَّ نَفْسٍ يَمَثُلُهَا شَوْقِي فِي هَذَا الشَّعْرِ الْبَدِيعِ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ يَمَثُلُ النَفْسَ الْمِصْرِيَّةَ ،
وَحَسْبِي أَنْ أَقُولَ : النَفْسَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا — وَلَوْلَا التَّقَى لِأَضْفَتِ
إِلَيْهَا الْآخِرَةَ — وَطَنَ خَلِيقٍ بَأَنْ يَعْذَّبَ فِي سَبِيلِهِ أَبْنَاؤُهُ مِثْلَ وَادِي النَّيْلِ ؟
إِنْ الَّذِي يَعِيشُ فِي مِصْرَ ، وَلَهُ ذَوْقُ شَوْقِي وَإِحْسَاسُهُ ، لَيْسَ بِكَثِيرٍ
عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفاً بالفؤاد في سلسبيل ظمأً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغيب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسبي
ولقد كانت مصر ، ولا تزال ، باباً من الفتنة لكل من عسى وله فيها رأى
مطاع ، وبفضلها يقول فرعون : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » . ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده ،
وهو يشاهد الأهرام : « أبهذه كفر فرعون بربه ! » . فقال له أحد وزرائه
يا أمير المؤمنين إن الله يقول : « وَدَرَّنا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا
كَانُوا يَعْرِشُونَ » . فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب
عليه الضلال .

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة ، وتغرس
فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبب
إليه العدوان . وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في
هذه البلاد !

ثم يقول شوقي وهو يمثل الجزيرة والنيل :

وَكَأَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيْكًا نَعَمْتُ طَيْرُهُ بِأَرْخَمِ جَرَسِ
هِيَ بَلْقَيْسُ فِي الْحَمَائِلِ صَرْحُ مِنْ عُبَابٍ وَصَاحِبُ غَيْرِ نِكْسِ
حَسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عَرْسًا قَلْبُهَا لَمْ يُجَنِّ يَوْمًا بَعْرَسِ
لَبَسْتُ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشِي بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي الثَّيَابِ وَقَسِ^(١)
قَدَّهَا النَّيْلُ فَاسْتَحَتْ فَتَوَارَتْ مِنْهُ بِالْجَسْرِ بَيْنَ عُرَى وَلُبْسِ
وَأَرَى النَّيْلَ كَالْعَقِيقِ بِوَادِيهِ وَإِنْ كَانَ كَوَثَرُ الْمُتَحَسِّيِ
ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوْكِبِ الْفَخْمِ الَّذِي يَحْسِرُ الْعُيُونُ وَيُحْسِي
لَا تَرَى فِي رِكَابِهِ غَيْرَ مُثْنٍ بِجَمِيلٍ أَوْ شَاكِرٍ فَضْلَ غَرْسِ

وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقي لم يصبر عليه ، بل عاد إلى هجيره
من النوح على مجد خوفو ورمسيس ، وأخذ يقول :

وَأَرَى الْجَزِيرَةَ الْحَزِينَةَ ثَكَلَى لَمْ تَقُ بَعْدُ مِنْ مَنَاحَةِ رَمْسِي^(٢)
أَكْثَرَتْ ضَجَّةَ السَّوَاقِ عَلَيْهِ وَسُؤَالَ الْيَرَاعِ عَنْهُ بِهِمْسِ
وَقِيَامَ النَّخِيلِ صَفَرَنْ شَعْرًا وَتَجَرَّدَنْ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ^(٣)
وَكَأَنَّ الْأَهْرَامَ مِيزَانُ فِرْعَوَ نَ يَوْمٍ عَلَى الْجَبَابِرِ نَحْسِ
أَوْ قَنَاطِيرُهُ تَأَنَّقَ فِيهَا أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسِ
رَوْعَةً فِي الضُّحَى مَلَاعِبُ جَنَّ حِينَ يَغْشَى الدُّجَى حَمَاها وَيَغْشَى

وكذلك يحسب شوقي ، وهو يندب مجد الفراعنة ، أن ما في الطبيعة من ماء

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية .

(٢) يريد رمسيس . (٣) الملس : من قولهم سلسلت النخلة إذا ذهب منها أصول السعف .

ونبات وجماد يبكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا عليه القضاء .
والشاعر حين يرضى بحسب الكون يتسم لا بتسامه ؛ وحين يغضب
يحسب الكون يكتئب لا كتئابه ، ولعل هذه السذاجة هى أظرف ما فى
الشعراء ؛ إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة ، وم فى الطفولة من معان
تسكن إليها شوارد النفوس .

ثم انتقل شوقى إلى الحديث عن أبى الهول فقال :

وَرَهَيْنُ الرِّمَالِ أَفْطَسُ إِلَّا أَنَّهُ صُنِعَ جِنَّةٍ غَيْرِ فُطْسٍ
تَتَجَلَّى حَقِيقَةُ النَّاسِ فِيهِ سَمِعُ الْخَلْقِ فِي أَسَارِيرِ إِنْسِي
لَعِبَ الدَّهْرُ فِي ثَرَاهُ صَبِيًّا وَاللَّيَالَى كَوَاعِبًا غَيْرَ غُنْسٍ ^(١)
رَكِبْتُ صَيْدَ الْمَقَادِيرِ عَيْنَيْهِ لِنَقْدِ وَمُخْلِيبِهِ لِفَرَسٍ
فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ كِسْرَى وَهَرَقَلًا وَالْعَبَقْرَى الْفَرَنْسَى

وهذا أيضاً خيال شعراء ، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبى الهول لنقد
الحوادث ، وأعدت مخليه لاقتراس الطغاة ، ولكن هيهات لما يظن هيهات ،
والويل لأمة تنتظر فى خمود حتى يثار لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقى لم يسق هذه الخرافة ، وهو يحسبها
حقيقة ، إنما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد الخيال ، وأبو الهول
— رضى الله عنه إن كان وليا ، وجل جلاله إن كان إلها — معبود قديم طالما
قُدِّمَتْ له القرابين ، ولا يزال المصريون يقيمون بما كان يقيم به آباؤهم

(١) غنس : جمع غانس ، وهى الفئاة يطول مكثها فى دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من
عداد الأبقار .

من قبل، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح، أسوة بما كان يفعل باؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان «هداة الأمم» يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالاشادة بما عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال، والشاعر كالخطيب لاتهمه العقول إذا ظفر بالقلوب.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ ينجيه بهذا الترجيع الحزين، وانظر كيف يقول:

يَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ	فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
عَقَلْتُ لِحُجَّةِ الْأُمُورِ عُقُولًا	كَانَتْ الْحَوْتَ طُولَ سَبِيحٍ وَغَسَّ (١)
غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ	أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاحُ لِحُسِّ
فَلَكَ يَكْشِفُ الشَّمْسُ نَهَارًا	وَيَسُومُ الْبُذُورَ لَيْلَةً وَكَسِ
وَمَوَاقِيتُ الْأُمُورِ إِذَا مَا	بَلَّغَتْهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسِ
دَوْلٍ كَالرَّجَالِ مُرْتَهِنَاتٍ	بِقِيَامِ مِنَ الْجُدُودِ وَتَعْسِ
وَلِيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتِ سِوَارٍ	أَطَمَتْ كُلَّ رَبِّ رُومٍ وَفُرْسِ
سَدَدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْسًا وَسَلَّتْ	خِنْجَرًا يَنْفُذَانِ مِنْ كُلِّ تُرْسِ
حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ خُوفُ وَدَارًا	وَعَفَتْ وَائِلًا وَالْوَتَّ بَعْبَسِ
أَيْنَ مَرَوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ	أُمُويٍّ وَفِي الْمَغَارِبِ كَرْسِي

وقفه قصيدة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع

(١) الغس مرادف للسبح.

في الحديث عن شوقه إلى مصر ، وتفجعه لما تقاسى من عاذيات الخطوب ،
 فرأيناه يصور الجزيرة ، ويمثل استحياءها حين قدّها النيل ، ثم رأيناه يذكر
 أن الجيزة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس ، وأن السواقي لا تبرح
 ترسل على ذكره الدموع والأنين ، وأن النخيل تجردت في الحزن عليه ،
 فلم يبق عليها غير الشعور والأطواق ، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول
 وعن الأهرام ، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة ، ثم رأيناه
 وقد عاوده القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون إلى الخيال ، فأخذ يزفر
 من جديد ويقول :

يَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ فِيهِ يَبْدُو وَيَتَجَلَّى بَعْدَ لَبْسٍ
 وأين هذا القرار ، يا بلبل النيل ! هاته ، هاته ، وخذ من أرواحنا ماتشاء !

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا كَانَتْ الْحُوتَ طُولَ سَبِيحٍ وَغَسَّ
 غَرِقَتْ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاحُ لِحَسٍّ
 فَلَكُ يَكْسِفُ الشَّمْسُ نَهَارًا وَيَسُومُ الْبُدُورَ لَيْلَةً وَكَسَّ

ولم تظفر النفس الانسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء ، ولا وجدت العقول
 من يذرف عليها مثل هذه الدمعة ، وهي على جبروتها العوبة القدر وأضحوكة
 القضاء ، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ،
 ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية ، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي
 عقلتها لجة الخطوب ، والتي غرقت حيث لا يصاح لحس ، ولا يصاح
 بطافٍ أو غريق .

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الزاهب ، والملك السليب . والنفس المصرية يذكّرُها مجد الفراعنة بمجد العرب ، كما يذكّرُها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ، وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللاثمون !

ولم يصنع البحترى هذا الصنيع ، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من ضبابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق ، وكيف رابه نُبُو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم قال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَيْضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
أَتَسَلَّى عَنِ الْحُظُوظِ وَأَسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ

وهذا هو عين الاقتضاب ، ولا يبعد عندي أن يكون الزم من قضى على جزء من هذه القصيدة ، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن ، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ، ولكن المريب هو أن يزهد البحترى في حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال . وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سيتنقل إليه ، وأشهر ماله في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان ، فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضاً عتاب ، وذلك حيث يقول :

يَهُونُ عَلَيْهَا أَنْ أَيْتَ مُتَيْمًا أَعَالِجُ شَوْقًا فِي الضَّمِيرِ مُكْتَمًا

وَقَدْ جَاوَزَتْ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَأَصْبَحَتْ

جَمَى وَصَلَهَا مَذْ جَاوَرَتْ أُبْرَقَ الْحَمَى

بَكَتْ حُرْقَةً عِنْدَ الْفِرَاقِ وَأَزْدَقَتْ

سُلُوكًا نَهَى الْأَحْشَاءُ أَنْ تَتَضَرَّعَا

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ يُلِمُّ بِنَا وَهَنَا إِذَا الرَّكْبُ هَوَمَا

وفي هذه القصيدة يقول :

وَلَمْ أَعْرِفِ الذَّنْبَ الَّذِي سُوِّتَنِي لَهُ فَأَقْتُلَ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَنْدَمَا

وَلَوْ كَانَتْ مَا خَبَّرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ لَمَّا كَانَ غَرَوًا أَنْ أَلُومَ وَتَكْرُمَا

أَذْكُرُكَ الْعَهْدَ الَّذِي لَيْسَ سُوْدُدًا تَنَاسِيهِ وَالْوَدَّ الصَّحِيحَ الْمُسَامَا

أَقْرُبَمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِخَالِكَ أَلُومَا

لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفًا وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا بِهِ وَلَكَ الْعُتْبَى عَلَى وَأَنْعَمَا

وَمِثْلُكَ إِنْ أَبَدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَا

نقول : ان البحتری لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية ، وإنما أثر

الاقتضاب ، ولا كذلك شوقي ، فقد أخذ يتكلم عن ويلات المالك ونكبات

الشعوب ، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول :

أَيْنَ مَرَوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ أُمَوِيٍّ وَفِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي

سَقَمَتْ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطْسِ

ثُمَّ غَابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَاتِيكَ تَبَلَى وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسِ

وَعَظَ الْبُحْتَرِيُّ إِيوَانَ كِسْرَى وَشَفَقَتِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

نقرر هذا ، ثم نذكر أن البحتری لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل

المقدمة الممتعة التي افْتُشِحَتْ بها قصيدة شوقي ، لأن ظروف البحترى ،
وقد ضاق به عيشه ، وظلمه أهله ، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة
إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان ، وأصله أهله نار
العقوق ، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه ، وترك
فيه ما كان يملك من أممباب الحياة ، ثم هو لا يدرى إذا عاد أيقّر قراره فيلقى
عصا التسيار ، أم تعصف به وشاية جديدة ، تحمله إلى المنفى من جديد . . .
ولو كان للبحترى مثل هذا القلب المشرد ، وهو يشد رحاله إلى الايوان ،
لكان له شأن آخر ، ولكانت شكواه مضرب الأمثال ، ولكن الشاعر له
« رسالة » يؤديها إلى أهل عصره ، ولا مفر له من أدائها مادام له قلب
ووجدان ، وكانت « رسالة » شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلقى
أهل مصر من الكمد ، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبناءهم الأحرار ،
ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقى اليهم البحر من نفايات الأم وأوشاب
الأقطار ، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل
أَحْرَامٌ عَلَى بِلَابِلِهِ الدُّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
وفي مقابله يقول البحترى ، وهو يتحدث عن نفسه :

وَأَشْتَرَأْنِي الْعِرَاقَ خُطَّةً غَنِيٍّ بَعْدَ يَبْعِي الشَّامَ بَيْعَةً وَكَسٍ
ولكن أين هذا من ذلك ؟ ! وأين قول البحترى في عنف الدهر وجوره :
وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ
من قول شوقي في المعنى نفسه :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا كَانَتْ الْحَوْتَ طُولَ سَبْحٍ وَغَسَّ

غَرِقَتْ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاحُ حِسٌّ
فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال .

ومطلع البحترى :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدْنُسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ
فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه مطلع شوقي
أُخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَأَذْكُرُ إِلَى الصَّبَا وَأَيَّامَ أُنْسِي
وإن كنا لا ندرى بمن يستنجد ، وقد نسي أيام صباه ، ورحم الله ابن
الأحنف إذ يقول

تَرَفَّ البُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعْرِ عَيْنًا لِعَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ
ويزكرون أن لُورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغنى يقول :
« حبيبي غاب ، هاتوه لى يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت
ووقف على مدلوله قال : « إن المصرى لكسول ، وإنه ليطلب حتى من
يعينه على رد محبوبة الغائب » . وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام
الأنس فى عهد الشباب ، وإنه لمطلب عجيب !



البحث السابع عشر

بين البحترى وشوقى

ولقد أخذ البحترى : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى ،
ويتحدث عن بُناته ، ويعرّض بسكان القفار من الأعراب ، فيقول :

أَتَسَلَّى عَنِ الْخُطُوبِ وَآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي
وَهُوَ حَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ مُشْرِفٍ يَحْسِرُ الْعُمُونَ وَيُخْشِي
مُغْلِقُ بَابِهِ عَلَى جَبَلِ الْقَبْرِ إِلَى دَارَتِي خِلَاطٍ وَمَكْسِ
حِلٍّ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سَعْدَى فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْ لَا الْحَابَةُ مِنِّي لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ غُنْسٍ وَعُغْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدِّ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَانَ الْجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْأَنْسِ وَإِخْلَاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَا تَمَّا بَعْدَ عُرْسِ
وَهُوَ يُنْبِئُكَ عَنْ مَجَائِبِ قَوْمٍ لَا يُشَابُّ الْبَيَانَ فِيهِمْ بِلَبْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش
والتهاويل ، ولنا إليه عودة ، فلنلاحظ الآن أن البحترى يتجسّس ، وهو
يبين عن أثر الإيوان في نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب
والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة ، وكبح

ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الاحقاد ، ولهذا يقول
في هدوء :

حِلَّالٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سَعْدَى فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَاسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمَحَابَةُ مِنِّي لَمْ تُطَقِّهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعُغْسِ

وقد صدق ، وإن جرح الايوان ، وإلا فها هي أطلال سعدى ، ورسوم
ليلي ، ونوئى عفراء ! ولم يجد شوقى ما يضطره إلى مثل هذه المواربة ،
إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب ، في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء ،
ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طَرَفِي وَبَسَاطِ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنَسِي
أَنْظِمُ الشَّرْقَ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْعَرَبِ بِ وَأَطْوَى الْبِلَادَ حَزَنًا لِدَهْسِ
فِي دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرَسِ وَمَنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمَسِ
وَرُبًّا كَالْجَنَانِ فِي كَنَفِ الزَّيْتُونِ نِ خُضْرٍ وَفِي ذَرَا الْكَرْمِ طُلَسِ
لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرَى قُرْطِيٍّ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ حَمْنِي
يَا وَقَى اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسَى
قَرِيَّةٌ لَا تَعُدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ تُمَسِّكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسَى
غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمُحِيطِ وَغَطَّتْ لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلَسِ
رَكِبَ الدَّهْرَ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَأَتَى ذَلِكَ الْحَمَى بَعْدَ حَدْسِ
فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْعِزِّ فِي مَنَازِلِ قُعْسِ
مَا صَفَّتْ قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَدِّ لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِنَجْسِ

ومن الخير أن ندل على الآيات المختارة هنا وهناك . ونحن نستجيد قول البحتري :

ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي
وَلِعَجَزَ هَذَا الْبَيْتَ مَغْزَى بَدِيع ، وَلَسْتَجِيدُ كَذَلِكَ قَوْلَهُ :

نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدِّ هِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسٍ
فَكَانَ الْجِرْمَازُ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ وَإِخْلَاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسٍ
وفي هذين البيتين دقة وخيال ، وللقارىء أن يتأمل كيف صارت هذه الحيل :
« أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكنائه : « بنية رمس » . فأما قوله :
لَوْ تَرَاهُ عَامَتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
فهو غاية الغايات في بكاء المغاني ، يتحكم فيها البلى ، وتبطش بها أيدي العفاء .

ونستجيد قول شوقي :

لَمْ يَرْعِنِي سِوَى ثَرَى قُرْطُبِيٍّ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
ولمس العبرة من المعاني الدقيقة . وقد بلغ غاية الرفق ، وهو يقول في
تحية هذا الثرى :

يَا وَقَى اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَنْوَةَ الْحَيَا مَا أَمْسَى

ونستجيد كذلك قوله :

رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَأَتَى ذَلِكَ الْحَمَى بَعْدَ حَدْسٍ
يصف تلك البقعة بالدروس ، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب
خاطره الدهر ، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحس ، وتلك وثبة من
وثبات الخيال .

ثم أخذ البحترى يصف ما في الايوان من صور المراك فقال :
 فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كِيَّةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ
 وَالْمَنَايَا مَوَائِلَ وَأَنْوَشِرَ وَأَنْزَجِي الصُّفُوفِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
 فِي أَخْضِرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرٍ يَخْتَالُ فِي صَبِغَةٍ وَرْسِ
 وَعِرَاكِ الرَّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جُرْسِ
 مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلٍ رُمُحٍ وَمُئَلِّحٍ مِنَ السِّنَانِ بِثُرْسِ
 تَصِفُ الْعَيْنُ أَنْهُمْ جِدُّ أَحْيَا هُمْ يَنْبَهُمُ إِشَارَةُ خُرْسِ
 يَفْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَنْقَرَاهُمُ يَدَايَ بِأَمْسِ
 وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف ، يذكر أنه شهد في الإيوان
 صورة كسرى ، وهو يحاصر أنطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة
 لارتعت من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء ، وهو يشاهد
 صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن ، فهو يذكر أنك حين ترى
 هذه الصورة ، لا يخطر ببالك أنها صورة ، وإنما تحسب لصدق التصوير
 أنك في ميدان القتال ، والمنايا موائل أمامك ، وأنوشروان يزجي الصفوف
 تحت اللواء . ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب ، وما هم
 عليه من إثار الخفوت ، بين مشيح بالرمح ، ومُئليح بالسنان ، وأنظر
 كيف يقول :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنْهُمْ جِدُّ أَحْيَا هُمْ يَنْبَهُمُ إِشَارَةُ خُرْسِ
 يَفْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَنْقَرَاهُمُ يَدَايَ بِأَمْسِ
 فهو يراهم جِدَّ أَحْيَاءَ ، وإن لم يُسمع لهم صوت ، لأن في سماتهم ما يدل على

اكتفائهم بالاشارة كما يكتب الخرس ، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة ، ثم يُغلب على حسه فيرتاب فيما يراه : فيامس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال ؟ ، والمصور الحاذق هو الذي يُسبغ على صورهِ أثواب الحياة . ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراغة بالأقصر صورة سمكة ، ولم أكد أملاً منها عني حتى خلتها تتقلب ، وكذلك يسحر الفن الجميل .

ولقد نحنا شوق منحي البحترى في الوصف ، وإن اختلف الموصوف ، فقال وقد تجلّت له تلك القصور :

وَكَاثِي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ يَتًا	فِيهِ مَالُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسٍ
قُدْسًا فِي الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا	حَجَّه الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِ وَقَسٍّ
وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةِ وَالنَّاءِ	صِرُّ نُورِ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفَسِ
يُنْزِلُ التَّاجَ عَنْ مَفَارِقِ (دُونِ)	وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينَ (الْبَرْنَسِ)
سِنَةٌ مِنْ كَرَى وَطَيْفُ أَمَانٍ	وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسٍ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أُنَيْسٍ	وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحْسٍ
وَرَقِيقٍ مِنَ الْبُيُوتِ عَتِيقٍ	جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومٍ حَرَسٍ
أَثَرُ مِنْ (مُحَمَّدٍ) وَتُرَاثُ	صَارَ (لِلرُّوحِ) ذِي الْوَلَاءِ الْأَمْسِ
بَلَغَ النَّجْمَ ذِرْوَةً وَتَنَاهَى	بَيْنَ (شَهْلَانَ) فِي الْأَسَاسِ وَ(قُدْسِ)
مَرْمَرٍ تَسْبِجُ النَّوَاطِرُ فِيهِ	وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِي
وَسَوَارٍ كَأَنَّمَا فِي أُسْتَوَاءِ	الْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طَرَسِ
فَتَرَةُ الدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطْرِيهَا	مَا كَتَسَى الْهَدْبُ مِنْ فُتُورٍ وَنَعَسِ

وَيُنْجِي كَمْ تَرَيْنْتَ لِعَلِيمٍ وَاحِدِ الدَّهْرِ وَاسْتَعَدَّتْ لِحُمْسِ
وَكَانَ الرَّفِيفَ فِي مَسْرَحِ الْعَيْنِ مَلَأَهُ مُدْرَاتُ الدَّمَقْسِ
وَكَأَنَّ الْآيَاتِ فِي جَانِبَيْهِ يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسِ
مُنْبَرٌ تَحْتَ (مُنْذِرٍ) مِنْ جَلَالٍ لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ قُسِّ
وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمَسِ

وهذه القطعة على طولها لاتسمو إلى ما وصلت إليه تلك النفثة البحترية من فتنه القلب والوجدان ، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم ، وصورة الحرب تهز النفس ، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة . أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن ، لم يذكر أكانت في وصف الجنة ، أم في الدعوة إلى القتال ؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية ، الوادعة الهادئة ، لا يصلح إلا للكهول ، والويل للأم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية ، ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون .

وما أبعد الفرق بين قول البحتري :

وَالْمَنَايَا مَوَائِلُ وَأَنْوَشِرُ وَأَنْزُجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ

وبين قول شوقي :

وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةُ وَالنَّا صِرُّ نُورِ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ

وشوقي يصف ما رآه ، فلا لولم عليه ولا تريب ، وصدق من قال :

فَلَوْ أَنَّ قَوْحِي أَنْطَقْتِي رِمَاحَهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

وقد لانجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور

المعارك والحروب . ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة ، كما بينا ذلك في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب ، وحيّا الله أولئك الشياطين ، فهم ملائكة هذا الجيل ، وإن رذائل القوة خير من فضائل الضعف ، لو يعلم الشرقيون .

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق ، وللرزق أبواب !! يدل على هذا قوله :

سِنَّةٌ مِنْ كَرِّى وَطَيْفٌ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسٍ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيَسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحْسِنٍ
فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ، وما فيه من آثار العقول ، ليس إلا سنة من الكرى ، وطيفاً من الأمانى :

ويعجبني قوله في وصف القصر :

مَرَمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَاطِرُ فِيهِ وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِي
وَسَوَارٍ كَأَنَّهَا فِي اسْتِرَاءٍ أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طَرَسٍ
وإن كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال ، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن ، والجمال الرائع ، فجمال النهر في الليالى المقمرة فيه حسنٌ وفتنة ، وفيه أيام السّرار روعةٌ وجلال .

وقول شوقي :

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُعْرِيكُ رَيًّا وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمَسِ
مأخوذ من قول البحتري :

يَغْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَتَقَرَّاهُمُ يَدَايَ بِالْمَسِ
وبيت البحتري أجود في معناه ، وهو كذلك يقتضيه السياق ، أما بيت
شوقي فهو في مكانه غريب .

وقول شوقي بعد ذلك الوصف :

صَنْعَةَ (الدَّاخِلِ) الْمُبَارِكِ فِي الْغَرْ بِ وَآلٍ لَهُ مَيَّامِينَ شُمُسِ
فيه ضعف ، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة ، وما أغنى الشعر عن مثل
هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الايوان من رسم الموقعة بين
الفرس والروم ، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن
تلك الكأس الروية التي اصطبغ بها في الايوان ، فقال :

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُو الْغَوِّ نِ عَلَى الْعَسْكَرَيْنِ شُرْبَةً خَلَسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ أَضْوَاءُ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةٌ شَمْسِ
وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا وَارْتِيَا حَا لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّي

أَفْرَغْتَ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبْرَوِي — زَ مُعَاطِيٍّ وَالْبَلَهَنْدُ أُنْسِي
حُمِّ مُطْبِقٍ عَلَى الشَّكِّ عَيْنِي أَمْ أَمَانٍ غَيْرِنَ ظَنِّي وَحَدْسِي
وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي ، لأن صاحب الشوقيات
لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول ، كما فعل
البحترى وهو يزور الإيوان ، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل
الاستطراد ، إذ لا تقتضيها الموازنة ، ولا يدعو إليها التفضيل ، ونحن
نستملح أقوله :

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ بَجَمِّ أَضْوَاءِ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةِ شَمْسٍ
ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال ، وعجز هذا البيت
يشفع لصدره ، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ، ويمر البيت في
خلال الأبيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستجيد قوله
في وصف تلك الصهباء :

وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا وَأَرْتِيَاكَ لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّيِّ
أَفْرَغْتَ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ
ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى إلى المدام ، ثم يخالها أفرغت
في الزجاج من كل قلب ! ولا تنس أنه يقول (من كل قلب) وأنها لذلك
(محبوبة إلى كل نفس) فان لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب
الأذواق من علماء المعاني . وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس
البحترى فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — أن كسرى

نديه ، والبلهذ أنيسه ، وكيف ثاب إلى رشده ، وأخذ يفكر أهو في حلم
أطبق عينيه على الشك ، أم هي أمان غيرن ظنه وحده ! وفي هذا التريد
مافيه من تمثيل الحيرة والارتباب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال :

وَكَانَ الْإِيوَانُ مِنْ عَجَبِ الصَّنْعَةِ جَوْبٌ فِي جَنْبِ أَرْعَنَ جَلَسٍ
يَتَنَظَّى مِنَ الْكَأَبَةِ أَنْ يَبْدُو لِعَيْنَيْ مُصْبِحٍ أَوْ مُسَيِّ
مُزْعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنْسِ الْفِ عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيْقِ عَرَسٍ
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْمُسْتَرَى فِيهِ وَهُوَ كَوْكَبُ نَحْسٍ
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا وَعَلِيهِ

كَمَلَكَلٍ مِنْ كَلَاكِ الدَّهْرِ مُرَبِّي
لَمْ يَعْبه أَنْ بَرَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيْبَاجِ وَاسْتَلَّ مِنْ سَتُورِ الدَّمَقْسِ
مُشْمَخِرٌ تَعَلَّوْ لَهُ شُرْفَاتٌ رُفِعَتْ فِي رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ
لَابَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْصِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرَسِ
لَيْسَ يَدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنٍ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ بِنِكَسِ

وفي هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الإيوان في صورة الحب أترعت الليالي
كأسه بأنس أليفه ، ثم أزعجته بالفراق ، والعروس أصفاه الدهر حلاوة
الوصل ، ثم أرهقه بالطلاق ، ويراه يتنظى من الكأبة أن يبدو لعيني من
يطالعه عند الصباح ، أو عند المساء ، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست
حظه الليالي ، فأصبح مثار الشجى ، ومبعث الأسى ، بعد أن كان من مرابع

الغزلان ، وملاعب الحور الحسان !! وانظر كيف يقول :

فَهَوَّ يَبْدَى تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ

كَلَّ كُلُّ مَنْ كَلَّ كُلِّ الدَّهْرِ مُرْسَى

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صورته البحترى « كأننا حياً » أناخ الدهر عليه بكل كلكه ، وأراه كيف تكون مضاضة النل بعد نضارة العز ، وكيف يكون العدم بعد الوجود . وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الإحساس ، فان كنت في ريب من ذلك فحدثني أى شيطان ، أو أى ملاك ، أوحى إلى البحترى : أن الإيوان أصبح - وقد استُت منهُ ستور الدمقس وبسط الديباج - شبيهاً بالعادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب ، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتعريك بالفتون أحياناً ؟ ونحن نعيذ القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف ، فهذا والله ما نفهمه من قول البحترى :

لَمْ يَعْْبَهُ أَنْ بَرَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيَا جِ وَأُسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل ، وخلاه كالعادة المتجردة لا تدرى أكان تجردها من قسوة الفقر ، أم من سكر الدلال ... وما نريد أن نزيد ! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله :

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالَى وَبَاتَ الْمُشْتَرَى فِيهِ وَهُوَ كَوْكَبُ نَحْسٍ

فانه لم يقل : « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال : « بات المشتري فيه ، وهو كوكب نحس » . وكلمة : « وهو » لها مالها من الفضل في

تأكيد المعنى وتقريره ، عند علماء المعاني ... وكذلك قوله فيما صارت إليه
شرفات الإيوان :

لَا بَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْصِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرَسٍ
فان كلمة « من » لها هنا موقع جميل ، وهى أدل على التقليل من
التنوين !... أما قوله :

لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنٍ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ
فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجب ،
وهى خرافة قديمة ، تخر بها الأساطير ، وهى كذلك مورد من موارد
الخيال - وكان من المستهجن أن يعقب البحترى هذا البيت الفرد بقوله :
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ بِنَكْسٍ
وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد . . . وقد عاد إلى وصف
ما فى الإيوان فقال :

فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقَوَى مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسَى
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُنْسٍ
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَامِ صِيرَ يُرَجِّحَنَّ بَيْنَ هُوٍّ وَلُغْسٍ
وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسٍ
وَكَأَنَّ الَّذِي يُرِيدُ اتِّبَاعًا طَامِعٌ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسٍ
عُمِرَتْ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارَتْ لِلتَّعَزَّى رَبَاعُهُمْ وَالثَّلَاثَى
فَلَهَا أَنْ أَعْيَنَهَا بِدُمُوعِ مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسٍ
ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد

البحترى فى أعطاف الإيوان . والبحترى بهذا الوصف فنان ، يقول على علم
ويعرف ما يعنى ، ولك أن تتأمل كلمة « كَأَنَّ » وموقعها الجميل فى قوله :
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ صَاحِبِينَ حَسَرَى مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُنُسٍ
وقوله :

وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَا صِيرَ يُرَجِّحُنَ بَيْنَ حُوءٍ وَلُغْسٍ
وقوله :

وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْسٍ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسٍ
وقد دلت القارىء على مواطن الحسن فى هذه القصيدة فلينهل بعد ذلك من
رحيقها كما يشاء .

نفثة شوقى

أما شوقى فقد أخذ يبكى الحمراء بعد وصفها فقال :

مَنْ لِحْمَرَاءَ جُلِّتْ بِغُبَارِ الدَّهْرِ كَالْجُرُجِ بَيْنَ بُرٍّ وَنُكْسٍ
كَسْنَا الْبَرْقِ لَوْ مَحَا الضَّوْءُ حَظًّا لَمَحَّتْهَا الْعُيُونُ مِنْ طُولِ قَبَسٍ
حِصْنُ غِرْنَاطَةٍ وَدَارُ بَنِي الْأَخْمَرِ مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانِ نَدَسٍ
جَلَّ الشَّلَجُ دُونَهَا رَأْسَ شِيرَى فَبَدَا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرَسٍ
سَرْمَدُ شَيْبِهِ وَلَمْ أَرِ شَيْبًا قَبْلَهُ يُرْجَى الْبَقَاءَ وَيُنْسَى
مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غُرَفِ الْحَمْرَا مَشَى النَّعْيُ فِي دَارِ عُرْسٍ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ سُدَّةَ الْأَبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسٍ
عَرَصَاتُ تَخَلَّتْ الْخَيْلُ عَنْهَا وَأُسْتَرَاخَتْ مِنْ أُخْتِرَاسٍ وَعَسٍّ

وَمَغَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءٍ لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكَرَّارَ مَسٍّ
لَا تَرَى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى الشَّارِخِ سَاعِينَ فِي خُشُوعٍ وَنَكْسٍ
تَقْلُوا الطَّرْفَ فِي نَضَارَةِ آسٍ مِنْ نُقُوشٍ وَفِي عُصَارَةِ وَرْسٍ
وَقَبَابٍ مِنْ لَا زَوْرَدٍ وَتَبْرِ كَالرُّبَا الشَّمِّ بَيْنَ ظِلٍّ وَشَمْسٍ
وَحُطُوطٍ تَكْفَلَتْ لِلْمَعَانِي وَلَا لَفَاطِهَا بِأَزِينِ لُبْسٍ
وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءٍ مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظَبَاءٍ وَخُنْسٍ
لَا الثَّرِيَّا وَلَا جَوَارِيَ الثَّرِيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ النَّسِ
مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأُسُودُ عَلَيْهِ كَلَّةُ الظُّفْرِ لَيِّنَاتِ الْمَجْسِ
تَشْرُ الْمَاءَ فِي الْحَيَاضِ جُمَانًا يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسٍ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء ، وهي مجللة بغبار الدهر ، وهذا خيال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقي ، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود ، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث ، والافصاح عن عسف الخطوب ، ويكاد يستنطق الموت ، وهو يتحدث عن مصير من أستراحوا من دار الختل والنفاق . . وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس ، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحجج إليه أحفاد بناته ، فيعدونه ويمثونه ، لو تنفع الأمانى ، أو تصدق الوعود ، ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء ، ولم يتمنَّ لو يصبح وهو خليفة ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب ، وأين شباب الزمان ؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشى النعي

في دار عرس ، فهذا أيضاً خيال رائع ، وهو مأخوذ من قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرءُ فِي السَّقَمِ

ما لنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق ،
على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس ، أروع
من تشبيه أثر الحمر في مفاصل النداحى بأثر البرء في جسم السقيم ، وقول شوقي :
مَشَّتِ الْحَادِثَاتُ فِي غُرَفِ الْحَمَرَاءِ مَشَى النَّعْيُ فِي دَارِ عُرْسِ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسِ
فيه روعة ، وفيه جلال ، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ، ويصور مع
هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان . . . أما قوله :

وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ مُقْفَرِ الْقَاعِ مِنْ ظُبَاءٍ وَخُنُسِ
لَا الثَّرِيَّا وَلَا جَوَارِيَ الثَّرِيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أُنْسِ

فهو وصف انفراد به ، ولم يعرض لمثله البحتري ، وكان عجباً أن يغفل عن
إيراده ، فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر عن كان يرتع فيها
ويلعب ، من كل ممشوقة القد ، مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين .

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ، ولا
أعبر بغير ذلك ، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس ، ويروونه
حسبهم من نعيم الآخرة والأولى ، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة
مملوءة بالدمع حين قال :

آخِرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ بَعْدَ عَرَاكِ مِنَ الزَّمَانِ وَضَرَسِ

فَتَرَاهَا تَقُولُ : رَايَةُ جَيْشٍ بَادَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ أَسْرِ وَحَسٍّ
وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلْكٍ بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِيَحْسٍ
خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كِتَابِ صَمٍّ عَنْ حِفَاطٍ كَمَوْكِبِ الدَّفْنِ خُرْسٍ
رَكِبُوا بِالْبِحَارِ نَعْشًا وَكَانَتْ تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أَمْسٍ
رُبَّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجُمُوعٍ لُمُشِتٍ وَمُحْسِنٍ لِمُخْسٍ
إِمْرَةٌ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْتِي جَبَانَ وَلَا تَسْنَى لَجَبْسٍ
وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ وَهِيَ خُلِقَ فَإِنَّهُ وَهِيَ أَسٍّ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد إذ كانت إمرة الناس لا تسنى لجبس ، ولا تتأني لجبان ، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضررس . والحق أن فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة ، وكان من الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة ، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم . ولا تذكر ما شبَّ في صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف ، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ، ولكن أذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال ، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين ، كما يتوهم الفاتحون ، وإنما يظل ضعفها يفتك بالغااصيين في خفاء ، كما تفتك على ضعفها الجرائم ، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة ، فإذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك ، وتطيح من هولها العروش . فان كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع

العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ! ألم تتأثر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة ، ولا ستر ، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح ! القوة هي كل شيء في هذا الوجود ، والقوة فوق الحق ، فإن أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة ، والقوة هي السلاح ، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب ، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء ، فكان عرشاً ، وركبوه وهم ضعفاء ، فكان نعشاً ، وما تغير البحر ، ولكن تغير الناس ، ركبوه أول مرة وهم فاتحون ، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون ، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار :

يَا دِيَارًا نَزَلْتُ كَأَنَّهُ ظِلٌّ وَجَنِّي دَانِيًا وَسَلَسَالِ أَنْسِ
مُحْسِنَاتُ الْفُصُولِ لَا تَجِرْ فِيهَا بِقِيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ
لَا تُحْسِ الْعُيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا غَيْرَ حُورٍ حَوْ الْمَرَاشِفِ لُعْسِ
كُسَيْتَ أَفْرُخِي بِظِلِّكَ رِيْشًا وَرَبَا فِي رُبَاكِ وَأَشْتَدَّ غَرَسِي
هُمْ بَنُو مِصْرَ لَا الْجَمِيلُ لَدَيْهِمْ بِمِضَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِي
مِنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقَفِ وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكَ حَبْسِ
حَسَبُهُمْ هَذِهِ الطَّلُولُ عِظَاتِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الدُّهُورِ وَدَرَسِ
وَإِذَا فَاتَكَ التَّفَاتُ إِلَى الْمَا ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ النَّاسِي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات ، فقد طال الحديث ، إنما أذكر

أنا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس ، وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المذهب حسين شوقي ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين ! .



وسيدكر القارئ بعد هذا كله أنى أوازن بين البحترى وشوقي ،
وسيسأل أيهما أشعر ؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء .
أما أنا فقد حكمت ، والسلام^(١) .

(١) بمناسبة سينية البحترى يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوى وضع قصيدة سينية عن :
« أبى الهول » كان فيها معنى المعارضة للبحترى ، وإن لم يقل ذلك ، وهى قصيدة جيدة ، نختار
منها قوله :

نبيء الناس يا أبا الهول أنا	أمة كالحديد صلب المحبس
لم يعبنا أنا يلتنا شعوب	وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءا	يبد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم ما دها الروم فينا	واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
أمم تلك ذات ناب وضرس	قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فيت وكلها ونحن بقينا	من حمى الله في حظيرة قدس

والهراوى قصيدة أخرى سينية هى بلا شك من وحي البحترى ، وهى قصيدته التى وقف بها على دار
الشيخ محمد عبده فى عين شمس . وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لنبين كيف سرت أنفاس البحترى إلى
شعراء هذا الجيل .

البحث التاسع عشر

البوصيرى وشوقي

للوصيرى قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقي بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيرى وشوقي من العلم بأسرار الإسلام ، فقد غنى هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن ، ودرء ما يؤجّه إليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ ، وقد تؤرّخ الأفكار كما يؤرّخ الأشخاص ، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية ، وللقارئ بعد ذلك رأيه ، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب ، وإن شاء رضى واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

حياة البوصيرى

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (أبوصير) ، والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة ، وقيل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى ، وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلييس^(١) .

(١) توفى البوصيرى سنة ٦٩٥ هـ ، وله قبر مشهور في الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

والبوصيرى شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجرى
 فى شعره النكت المستملحة . وله فى شكوى حاله والتذمر من الموظفين
 قصائد لا تخلو من ذكاء ، وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ،
 وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال ،
 وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر ، وأن من الكتّاب
 طائفة تنسكت وعُدّت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت ، وتأكل
 مال الأيتام ، ويدكر أن القضاة خانوا الأمانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل
 القرآن والحديث ، ويدكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين ، فكان
 المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ، ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط
 يقولون : نحن ملوك مصر ، ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون
 مال الطوائف أجمعين . وفى ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدَمِينَ	فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ حُرًّا أَمِينًا
فَقَدَّ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجَرِبِ مِنْ عُمْرِي سِنِينَ
فَكُتَّابُ الشَّامِ هُوَ جَمِيعًا	فَلَا صَحِبْتُ شِمَالَهُمُ الْيَمِينَ
فَكَمْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَاعَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعِيُونَ
وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرَدًّا	كَأَغَصَانٍ يَمْلَنُ وَيَنْحَنِينَا
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ ذُقُونْ	وَلَكِنْ بَعْدَ مَا حَلَقُوا ذُقُونَا
وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ	كَأَسْيَافٍ بَأْيَدِي لَا عَيْنَا
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ	وَكُلَّ اسْمٍ يَخْطُو مِنْهُ سِينَا

أَمْوَالَى الْوَزِيرِ غَفَلَتْ عَمَّا
 تَلَسَّكَ مَعَشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا
 وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاؤُهُ مُسْتَجَابٌ
 تَفَقَّهَتْ الْقُضَاةُ نَخَانَ كُلِّ
 وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مِصْرٍ
 يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ
 وَقَالَ الْقَبِطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرٍ
 وَحَلَلَتْ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ
 وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةَ إِلَّا شَرِيكَ
 أَغَارَ عَلَى قُرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ
 وَصَارَ عَيْنَهَا حِمْلًا وَلَكِنْ
 وَأَصْبَحَ شَعْلُهُ تَحْصِيلَ تَبَرٍ
 وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وُصُولٌ
 وَفِي دَارِ الْوِكَالَةِ أَيْ نَهَبٍ
 فَقَامَ بِهَا يَهُودِيٌّ خَبِيثٌ
 إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ
 وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتَّهَمُوا يُوَدِّي
 يَتِمُّ مِنَ اللَّثَامِ الْكَاتِبِينَ
 مِنَ الزُّهَادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَ
 وَقَدْ مَلَكُوا مِنَ السُّخْتِ الْبُطُونَا
 أَمَانَتُهُ وَسَمَّوْهُ الْأَمِينَا
 سِوَى مِنْ مَعَشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
 بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْآخِذِينَ
 وَإِنْ سِوَاهُمْ هُمْ غَاصِبُونَا
 لَهُمْ مَالُ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَ
 لَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَتَخَفُّونَا
 بِجَوْرِ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجَفُونَا
 لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتْهَا خَزِينَا
 وَكَانَتْ رَأْوُهُ مِنْ قَبْلُ نُونَا
 فَتَمَّ نَقْصُهُ صَلَةُ الدِّينَا
 فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِيْنَا
 يَسُومُ الْمُسْلِمِينَ أَذَى وَهُونَا
 تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ وَالسَّفِينَا
 عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها
 كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة
 ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد

بالموظفين ، والناس يبعضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد .
ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية ، فهي شاهد على اختلاف
الطوائف في مصر وعلى ما كان يجرى إذ ذاك بين المسلمين والنصارى
واليهود ، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين .

ومن شعر البوصيرى فيما يجرى مجرى الدعاة قوله في الحديث عن جارية
راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهْوَى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَالتَّصَالِي بَعْدَ الْمَشِيبِ رُغْوَنُهُ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ إِنَّ حُبِّي لَا يَدْخُلُ الْقُنَيْنَةَ
كَيْفَ أَغْصَى الْهَوَى وَطِينَةُ قَلْبِي بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمٍ مَعْجُونُهُ
سَدَبَتْهُ الرُّقَادُ يَبْضَعُهُ خِدْرٌ ذَاتُ حُسْنٍ كَالدَّرَةِ الْمَكْنُونَةُ
مُتَمِّهَا قُبْلَةً تُسْرِ بِهَا النَّفْسُ سُرُ فَقَالَتْ كَذَا كُونُ حَزِينُهُ
قُلْتُ لَا بَدَّ أَنْ تَسِيرِي إِلَى الدَّاءِ رِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَجْنُونُهُ !
قُلْتُ سِيرِي فَإِنِّي لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَبٍ رَاحِمٍ وَأُمٍّ حَنُونُهُ
أَنَا نِعَمَ الْقَرِينُ إِنْ كُنْتَ تَبْغِينَ حَلَالًا وَأَنْتِ نِعَمَ الْقَرِينَةُ
قَالَتْ أَضْرِبْ عَنْ وَصْلٍ مِثْلِي صَفْحًا وَأَضْرِبِ الْخَلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينُهُ
لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِي يَدُ شَيْخٍ كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشَتِي مَشِينُهُ
قُلْتُ إِنِّي كَثِيرُ مَالٍ فَقَالَتْ هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزُ الْقَارُونُهُ

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا
الشيخ رضى الله عنه وأرضاه !

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتُ أَخْلَاقَهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلٌ
مَا كَانَ ظَنِّي يَلْبِغُنِي أَحَدٌ قَطُّ وَلَكِنَّ صَاحِبِي جَاهِلٌ
لَوْ جَرَسُوهُ عَلَيَّ مِنْ سَفَهٍ لَقُلْتُ غَيْظًا عَلَيْهِ يَسْتَاهِلُ
أَقْصَى مُرَادِي لَوْ كُنْتُ فِي بَلَدِي أَرْعَى بِهَا فِي جَوَانِبِ السَّاحِلِ
وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَحِلُّ لَكُمْ أَخَذِي لِأَنِّي مِنْ سَيِّدِي حَامِلٌ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ، وردَّ إليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله ، وهي قصيدة طريفة ، يذكر فيها أنه فقير ، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون ، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد ، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، وتنف ذقنه شعرة شعرة . وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّا حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عُسْرَةٍ
فِي قِلَّةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا عَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ
أَحَدْتُ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِي جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَةِ
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ كَاؤًا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةٌ
إِنْ شَرِبُوا فَلَابَرُّ زِيرٌ لَهُمْ مَا بَرَحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ
لَهُمْ مِنَ الْخُبَيْرِ مَسْلُوقَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَةَ

أَقُولُ مَهْمَا أُجْتَمِعُوا حَوْلَهَا تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخَضِرَةِ
وَأَقْبَلَ الْعِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ قَمَحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَةٌ
فَارَحَمَهُمْوْ إِنِّ عَايِنُوا كَعَفْكَةً فِي كَفٍّ طِفْلٍ أَوْ رَأَوْا تَمْرَةً
تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْوْ نَحْوَهَا بِشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَا زَفْرَةٌ
كَمْ قَائِلٍ يَا أَبْتَا مِنْهُمْوْ قَطَعْتَ عَنَّا الْخُبْزَ فِي كَرَّةٍ
مَا صِرْتَ تَأْتِينَا بِفَلْسٍ وَلَا بِدِرْهِمٍ وَرِقٍ وَلَا نَقْرَةٍ
وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ تَخْدُمُهُمْ يَا أَبْتَ سُخْرَةٍ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمْ أُخْتَهَا وَالْأُخْتُ فِي الْعَيْرَةِ كَالضَّرَةِ
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا وَصَبَرَهَا مِنِّي عَلَى الْعِشْرَةِ
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَاءُ كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّةُ !
قُومِي أَطْلُبِي حَقَّكَ مِنْهُ بِلَا تَخْلُفِي مِنْكِ وَلَا فَتْرَةٍ
وَإِنْ تَأْتَى نَخْذِي ذَقْنَهُ أَوْ أُتِفِيهَا شَعْرَةً شَعْرَةٍ
قَالَتْ لَهَا مَا هَكَذَا عَادَتِي فَإِنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَةٍ
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَةٍ
وَهَوْنَتْ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا جَاءَتْ الزَّوْجَةَ مُجْتَرَةً
فَقَاتَلَنِي فَتَهَدَّدْتَهَا فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِأَجْرَةٍ
وَحَقُّ مَنْ حَالَتُهُ هَذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أَمْرَةٍ

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة

في بليس (١)

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب : « المدايح النبوية ، في الأدب العربي »

قصيدة البردة

تعدُّ قصيدة البردة أول قصيدة قيِّمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيرى هو الذى ابتكر هذا النوع ، أو هو الذى بسطه وأطال فيه القصيد ، فان قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذى أكثر منه المولِّدون ، وقد مُدح الرسول في حياته ، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التى يقول فى أولها :

بَانتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرَفِ مَكْحُولُ

ومدحه الأعشى بداليتة التى يقول فيها :

فَأَقْسَمْتُ لَا أَرْضِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجَى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدًا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا

ويرتاب الدكتور طه حسين فى قصيدة الأعشى ، ويظنها من وضع الرواة ، وهى على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية ، وكذلك بانت سعاد ، لأن المدح الذى جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذى جرى فى ذلك العهد ، موجهاً إلى الملوك ، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما فى الرسالة من المحاسن الباقية ، ودفع

والمؤلف يفسل أحياناً فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب ، وهى ليست بسرقة ، لأنها تشبه نقل الدنانير من جيب إلى جيب فى الثوب الواحد ، أليس كذلك ؟ بلى ، أيها المؤلف !

ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب . وهى فوق هذا كله تقال
وتنشد تقرباً إلى الله ، وهى عند الصوفية من جملة الأوراد .

البردة

وقد حدثنا البوصيرى عن سبب وضعه للبردة ، فقال : « كنت قد
نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه
على صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى
فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها ، واستشفعت
بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ، ونمت
فرايت النبى صلى الله عليه وسلم مسح على وجهى بيده المباركة ، وألقى على
بردة فانتبهت ووجدت فى نهضة ، فقممت وخرجت من بيتى ولم أكن
أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة
التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت أيها ؟ فقال : التي
أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى
تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة . فأعذبتة إياها ،
وذكر الفقير ذلك وشاع المنام » .

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة
وسذاجة ، كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه
لاية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما برئ البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض
مفتى الديار المصرية - لا سمح الله - ما استغنى بالبردة عن الطيب ! ولعل

حكاية البوصيرى هذه هى سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة ، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم ، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن ... ونلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المضرية : فهو يدعو الله أن يصلى على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجم السماء ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر ، وما حوت الأشجار من ورق ، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة ، وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام ، وعدد الجن والانس والأملاك ، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومذ حشروا ، وعدد ما كان فى الأكوان وما يكون إلى يوم البعث ، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد :

فِي كُلِّ طَرْفَةٍ عَيْنٍ يَطْرُقُونَ بِهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْ يَذَرُوا

مِلَّةَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ

وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَصَرُوا

مَا أَعَدَّ اللَّهُ مَوْجُودًا وَأَوْجَدَ مَعَهُ دُومًا صَلَاةً دَوَامًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ

تَسْتَعْرِقُ الْعَدَّ مَعَ جَمْعِ الشُّهُورِ كَمَا تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفا في صدر الاسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات » .
والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية ، وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك ، ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين .

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧ هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة ، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وجيزاً بيناً ، قال في نهايته : « ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه ، وفصل مجمله ، وأفشى معناه ، ونزل عند مغازيه ، وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة ، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ إليها فيه ، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام ، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب تقده وتفسيره ، لطال القول وتجاوز القصد » .

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة ، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري ، وهذا كلام نقوله لأهميته في تاريخ الآداب ، فإن شاء الشيخ عبد العزيز أيده وإن شاء نقاه^(١) . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي ، وهي مقدمة

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام ، وساجلنا في جريدة البلاغ ، وهو

تناسب مع ما كتبت له ، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل إلى « أن القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر في شيء ، وأين هو من الشعر ؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ، وأين التقفية ، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه ، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه » ، ثم قال : « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت » ، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين !!

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة ، وإنا نرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغناء .



يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح ، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح ، وكان الشيخ سليم رحمه الله غنياً بفضل الحق عن مثل هذا الفضل المقتول ، ولكن هذا ما وقع . ولبت شعري كيف نظمنا إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نتحقق جبراً قامت الشواهد على صحة ، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه .

ولهذه القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب : « أبواب الشهد والعلم » فليرجع إليها هناك .

البحث العشرون

بين البوصيرى وشوقي والبارودى

ابتدأ البوصيرى قصيدته بالتشبيب ، ونحا شوق منحاه ، وتلك عادة عربية قديمة ، لم يفكر الشعراء فى تركها إلا فى هذا الجيل ، وإن كان من قدمائهم من نالها بلام ، كالمثنى إذ يقول :

إِذَا كَانَ مَدْحُ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتِمِّمٌ ؟

وكان للصوفية شئ من الغزل المستملح المقبول ، فكان يريدوهم يؤولونه ويرونه موجَّهاً إلى الذات الإلهية ، أو الحضرة النبوية ، ولهم فى ذلك التأويل أعاجيب ييسم لها شعر الحزين ، فلا يرجع إليها من شاء فى كتب التوحيد ، ليقف على شئ من تصورات أولئك الناس ، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون ، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل ، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية ، وألحقوا ما يجرى بين عشاق الأرواح بما يجرى بين عشاق الأشباح ، إلى آخر ما لهم فى هذا الباب من لطف الاحتيال .

وهذا كله أثر تلك العادة : وهى افتتاح الشعر بالنسيب ، وهى عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن ، وأظرف ما وقع له فى هذا المسلك قصيدته فى « مشروع ملر » فقد افتتحها بهذه الأبيات :

أَنْ عِنَانَ الْقَلْبِ وَأَسْلَمَ بِهِ مِنْ رَبِّبِ الرَّمْلِ وَمِنْ سِرِّهِ
وَمِنْ تَتْنَى الْغَيْدِ عَنْ بَانِهِ مُرْتَجَّةَ الْأَرْدَافِ عَنْ كُشْبِهِ

ظَبَاوُهُ الْمُنْكَسِرَاتُ الظُّبَا يَغْلِبْنَ ذَا أَلْبٍ عَلَى لُبِهِ
يِيضُ رِقَاقُ الْحُسْنِ فِي لَمَحَةٍ مِنْ نَاعِمِ الدَّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ التَّرْجِسِ فِي أَصْلِهِ يَوَانِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ
زِنٌّ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءُ الدُّجَى وَزِدْنِ فِي الْحُسْنِ عَلَى شُهِبِهِ
يَمُشِينَ أَسْرَابًا عَلَى هَيْئَةٍ مَشَى الْقَطَا الْأَمِنْ فِي سِرْبِهِ
مِنْ كُلِّ وَسْطَانٍ بَغَيْرِ الْكَرَى تَنْتَبَهُ الْآجَالُ مِنْ هُدْبِهِ

وهي قصيدة طويلة ، ثلثها في النسيب . ويدكر شوقاً أنه قالها كارهاً ، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء ، وأذكر أنني رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى ، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الإجارة في سائر القصيد . ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء ، ولا تقل كان الأدب يقضى بتجنب هذا المنهج في المدائح النبوية ، فقد شب كعب بن زهير بمحبوبته ، وهو في حضرة الرسول ، فما لامه النبي ، ولا أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذ بها مؤرخو الآداب .

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة والتقليد ، فإننا نراه يقول في مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّالِمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة
إلى مكة كما ذكر ياقوت ، وفيه يقول كثير :

أَمِنْ آلِ سَلَمَى دِمْنَةٌ بِالذَّنَائِبِ إِلَى الْمَيْثِ مِنْ رِيْعَانِ ذَاتِ الْمَطَارِبِ
يُلُوْحُ بِأَطْرَافِ الْأَجْدَةِ رُسْمَهَا بِذِي سَلَمٍ أَطْلَالُهَا كَالذَّوَاهِبِ
وكاطمة جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، وفيه يقول
بعض الشعراء :

يَا حَبْدَا الْبَرْقِ مِنْ أَكْنَفِ كَاطِمَةٍ يَسْعَى عَلَى قَصَرَاتِ الْمَرْخِ وَالْعُشْرِ
لِلَّهِ دَرْ يُيُوتِ كَانَ يَعْشَقُهَا قَلْبِي وَيَأْلَفُهَا أَنْ طُبِيتَ بَصْرِي
فَقَدَّتْهَا فَقَدْ ظَمَائِنَ إِذَا وَتَهُ وَالْقَيْظُ يَقْذِفُ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالشَّرْرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أَنْ تَرْدَارَ ثَانِيَةً وَحَالُنَا وَالْأَمَانِي حُلُوةُ الشَّرِّ
وإضم واد بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة ، وفيه يقول سلامة
ابن جندل :

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بِالْعِلْيَاءِ مِنْ إِضْمٍ بَيْنَ الدَّكَادِكِ مِنْ قُوٍّ فَعَصُوبِ
كَانَتْ لَهَا مَرَّةً دَارًا فَغَيْرَهَا مَرُّ الرِّيحِ بِإِفَى الثَّرْبِ مَجْلُوبِ

وذكر البوصيري لهذه المواطن ، وشغفه بها ، وحنينه إليها ، ينافي مصريته ،
وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بليس أوفقوس ، كما يتشوق بعض
الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط ، ولكن يظهر أن المغاني العربية
كانت احتلت رءوس الشعراء ، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر
نجد ، وسلع ، وأروند ، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم ينعموا

فيها باصطباح ولا اغتباق ، ولذلك نجد التكلف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم ، ونحسبه اختارها للقافية ، كما اختار « إضم » لهذا الغرض ، وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند ببغداد :

وَقَالَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَيْنَ ابْنُ أُخْتِنَا أَلَا خَبَرُونَا عَنْهُ حَيْثُمُو وَفْدَا
رَعَاهُ ضَمَانُ اللَّهِ هَلْ فِي بِلَادِكُمْ أَخُو كَرَمٍ يَرْعَى لِنَدَى حَسَبِ عَهْدَا
فَإِنَّ الَّذِي خَلَقْتُمُوهُ بِأَرْضِكُمْ فَتَى مَلَأَ الْأَحْشَاءَ هِجْرَانُهُ وَجْدَا
أَبْغَدَاكُمْ تُنْسِيهِ أَرْوَنْدٌ مَرَبَعًا الْأَخَابَ مَنْ يَشْرِي بِبَغْدَادِ أَرْوَنْدَا
فَدَمْنُنَ نَفْسِي ! لَوْ سَمِعْنَا بِمَا أَرَى رَحَى كُلِّ جَيْدٍ مِنْ تَنْهَدِهِ عِقْدَا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول ، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليداً ، ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية ، وحن إلى مغنى من مغاني النيل^(١) ، . . ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال :

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
وإنما أطلق نفسه من ربة التقليد ، فلم يتحدث عن نجد ، ولا عن تهامة ، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية ، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب ، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف ، ويظنون لا عاصم لهم من فتك العيون .

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ

(١) في كتاب (المدائح النبوية) توجيه لسلام البوصيري فارجم إليه هناك .

فان قوله : « جرى من مقلة » حشوا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله بعض
الشيوخ من أن ذلك تأكيد ، فانه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين .
ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة « على القاع » في قول شوقي
« ريم على القاع بين البان والعلم »

أما قوله :

« أحل سفك دمي في الأشهر الحرم »

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع ، وفيه براعة استهلال ، وهو كذلك غاية
في حسن الأداء .

وقول البوصيرى :

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِن قُلْتَ أَكْفُفَاهُمَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِن قُلْتَ أَسْتَفِقْ يَهُم

فيه ضعف وابتذال ، وهو غير موصول بسابقه ، وقد انتقل قبل أن يتم
المعنى فقال :

أَلَيْسَ الصَّبُّ أَنْ الْحُبَّ مُنْكَتَمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ
لَوْ لَا الْهَوَى لَمْ تَرْقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

وقد حار الشراح في ربط هذه الآيات .

وقد يُستَجَادُ قوله :

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْنِكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدُ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَمَمِ

وشوقي أبرع من البوصيرى في الحديث عن طيف الخيال . فانا نجد
البوصيرى يقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى فَأَرَقَنِي وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال :

يَا نَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا

أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمَ

أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا آلُو الْخَيَالَ فِدَى

أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مِّنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ

سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعِشَاقِ لِلْحُلُمِ

والفرق بعيد بين قول البوصيري :

« نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى فَأَرَقَنِي »

وبين قول شوقي :

« سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا »

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب ، وهو صاحب هذا البيت البديع :

نَظْرَةٌ فَأَبْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَوَعْدٌ فَلِقَاءٌ^(١)

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول البوصيري :

« والحب يعترض اللذات بالألم » - أما قول شوقي :

يَا نَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا

أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمَ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفي قوله :

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا انه نظرة سينائية ، ولكن قد يتفق أحيانا أن تتلاقى القلوب بأسرع من ذلك ، وللقلوب وثبات أسرع من البرق .

أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا آلُو الْخِيَالَ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ
صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب : فهو يغري المحبوب بالبخل ، ويغري
طيفه بالجود ، وسماحة الطيف باب إلى اضطرام الفؤاد .

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين :

يَا لَأَمِّي فِي الْهُوَى الْعُذْرِي مَعْدِرَةٌ مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلَمْ

ويقول شوقي :

يَا لَأَمِّي فِي هَوَاهُ وَالْهُوَى قَدَرٌ لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلَمْ
وبيت شوقي أجمل ، وقوله : « الهوى قدر » من أبدع ما قيل في دفع
العذل والملام^(١) .

أما قوله : « لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود في معناه من
قول الشريف الرضي :

أَقُولُ لِلْأَثَمِ الْمُهْدَى مَلَامَتُهُ ذُقِ الْهُوَى وَإِنْ أَسْطَعْتَ الْمَلَامَ لَمْ

ومن قول ابن الفارض :

دَعْ عَنْكَ تَعْنِينِي وَذُقْ طَعْمَ الْهُوَى فَإِذَا عَشِيتَ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَنِّي
ولكن البوصيري كان أرق ، وهو يحاور اللائم بقوله :

عَدَّتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْخَسِمٍ
أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة ، وهو يقول في حوار لائمه :

لَقَدْ أَنْلَتُكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ وَرُبَّ مُتَنَصِّتٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمٍ
وشوقي يخلق الفرص ليقتذف بالكأمة الحكيمة ، وتلك إحدى سماته ،

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية :

« وعد ومكتوب على ومقدّر عاجلين »

ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي « والهوى قدر » .

ولكنها قد ترحزحه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان ، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لأمه ، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية ، وقلباً غير سميع ، ولا كذلك البوصيرى فقد جعل الوجد داءً تُرَجَى منه السلامة ، ووصف لأمه بنصح الجيب حين قال :
 مَحَضَّتِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمَحِبَّ عَنِ الْعُذَالِ فِي صَمَمٍ
 إلى هنا فرغ البوصيرى من النسيب ، فلنقف قليلاً عند المعانى التى أنفرد بها شوقي ، وإنا لنستجيد قوله :

رَمَى الْقَضَاءُ بَعِيْنِي جَوْذَرِ أَسَدًا يَأْسَا كِنْ الْقَاعِ أَدْرِكُ سَا كِنْ الْأَجْمِ
 وهذا معنى قديم ، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمى به القضاء ، فهو لا يذكر أن الجوذر رماه ، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعينى جوذر ، والقضاء خبير بأنواع النصال !
 وقد بلغ غاية الرفق فى قوله :

لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً يَا وَيْحَ جَنَبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِي
 جَحَدْتُهُمَا وَكَمَتِ السَّهْمُ فِي كَبْدِي جُرْحُ الْأَحَبَّةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ
 رَزَقْتَ أَشْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ إِذَا رُزِقْتَ التَّمَّاسُ الْعُذْرُ فِي الشِّمِّ
 والبيت الأخير يمتُّ إلى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تُعَدَّ من جملة الذنوب ، والذى يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية ، فما هذا المنُّ على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي :
 إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ
 ثم أخذ شوقي يصف هذا السَّرب الذى صحب حبيبته فقال :

مِنَ الْمَوَائِسِ بَانًا بِالرُّبَا وَقَنَّا
 السَّافِرَاتِ كَأَمْثَالِ الْبُدُورِ ضُحَى
 الْقَاتِلَاتِ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمٌ
 الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ وَمَا
 الْمُضَرِّمَاتِ خُدُودًا اسْفَرَّتْ وَجَلَتْ
 الْحَامِلَاتِ لَوَاءِ الْحُسْنِ مُحْتَلِفًا
 مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ أَوْ سَمَرَاءٍ زَيْتَا
 يُرْعَنُ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ
 وَضَعْتَ خُدَى وَقَسَمْتَ الْفَوَادِرُ بَا
 اللَّاعِبَاتِ بِرُوحِي السَّاحَاتِ دَحَى
 يُغْرَنُ شَمْسُ الضُّحَى بِالْحَلَى وَالْعِصَمِ
 وَالْمَنِيَّةِ أَسْبَابُ مِنَ السَّقَمِ
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 عَنْ فِتْنَةٍ تُسْلِمُ إِلَّا كِبَادَ لِلضَّرَمِ
 أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
 لِلْعَيْنِ وَالْحُسْنِ فِي الْآرَامِ كَالْعِصَمِ
 إِذَا أَشْرَنَ أَسْرَنَ اللَّيْثَ بِالْعِصَمِ
 يَرْتَعَنُ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله :

الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 فقد جعلهن يمشين على القلوب ، فيعثرن بقلب بعد قلب ، وإن لم يسلمن من
 عثرات الدلال ، وهن يتخطرن في الضحى ، وعند الأصيل . . .
 وأستجيد كذلك قوله :

يُرْعَنُ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ
 إِذَا أَشْرَنَ أَسْرَنَ اللَّيْثَ بِالْعِصَمِ
 فقد وصفهن بالخفر والحياء ، وذكر أنهن يُرْعَنُ حين تسمو إليهن العين ،
 والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهَيُوب ، وكان من العجب أن يأسر
 هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب . . . وما أروع
 قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته :

يَا بِنْتَ ذِي اللَّبَدِ الْمُخَمِّي جَانِبُهُ
 الْقَاكَ فِي الْغَابِ أَمْ الْقَاكَ فِي الْأُطَمِ

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ أَنْ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْحَيْمِ^(١)
مَنْ أَتَبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرِ

وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمٍ
يَنِينِي وَيَنِينُكَ مِنْ سُمرِ الْقَنَا حُجْبٌ وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةٌ الْعِصَمِ
لَمْ أَغْشِ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونٍ كَرَرَى مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ
وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة ، وإنها
لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس ، وتعبس
الدنيا حين يعبس ، ويشور الوجود حين يشور ، وفي يته فتاة من صلبه
تحسبها لرقتها وحيائها ظلية تتثنى أو غُصْنًا يمد .

وقول شوقي :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ أَنْ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْحَيْمِ
مَنْ أَتَبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرِ

وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمٍ

أجود في معناه من قول الطغرائي :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ اللَّدَانِ بِهِ سُدَّ الْقَدَائِرِ مُرَّ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ
وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن يَنْبُتَ
الغصن من السيف الذكر ، ويخرج الريم من الضرغامة القرم !

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان
والعلم ، ومضرب الحيم ، وأن قوله « يابنت ذى اللبد » يذكرنا بقول ابن هاني :
يابنت ذى السيف الطويل نجاده أكذا يحجور الحكم في ناديك

وقول شوقي :

يَنِّني وَيَنِّكَ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجِبُ وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةٌ الْعِصْمُ
لَمْ أَغْشِ مَغْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرَرِي مَغْنَاكَ أَبْعَدُ لِمُشْتَاكِ مِنْ إِرْمِ

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي :

نَوْثُ نَاشِئَةٍ بِالْجُزْعِ قَدْ سَقَيْتُ نِصَالَهَا بِمِيَاهِ الْغُنْجِ وَالْكَحَلِ (١)
قَدْ زَادَ طَيْبَ أَحَادِيثِ الْكِرَامِ بِهَا مَا بِالْكَرَامِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخَلِ
تَبَيْتُ نَارَ الْهَوَى مِنْهُمْ فِي كَبِدِ حَرَى وَنَارُ الْقَرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقُلْدِ
يَقْتُلْنَ أَنْصَاءَ حُبٍّ لَا حَرَكَ بِهِنَّ وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نُلِمَّ إلمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وبنائها كما قال على سيرة ابن هشام . والبارودي شاعر فحل ، يعتز به تاريخ الأدب في مصر ، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس . ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رعى إلى معارضته ، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ، ليكون الموضوع أوفى ، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز . . . فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسب . قال :

(١) الغنج : حلاوة العينين .

يَا رَائِدَ الْبَرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ الْعِلْمِ
وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى الرُّوحَاءِ فَامْرِ لَهَا
مِنْ الْغِزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِهَا
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بَارِضٍ نَمَمَتْ يَدُهَا
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَا بِلُهُ
أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسَّقِيَا وَبِ ظَمًا
مَنَازِلُ لِهَوَاهَا بَيْنَ جَانِحَتِي
إِذَا تَنَسَّمْتُ مِنْهَا نَفْحَةً لَعِبْتُ
أَدِرُّ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَهَا فَإِنْ لَهَا
عَهْدُ تَوَلَّى وَأَبْقَى فِي الْفُؤَادِ لَهُ
إِذَا تَذَكَّرْتُهُ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ
فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ
تَسَاءَلْتُ دُنِي خُطُوبُ لَوْ رَمَيْتُ بِهَا
فِي بَلَدَةٍ مِثْلَ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى
لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْقٍ
إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ أَثَرًا
فَمَنْ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِي لُبَانَتَهَا

وَأُحْدُ النِّعَامِ إِلَى حَيِّ بَذَى سَلَمِ
أَخْلَافَ سَارِيَةٍ هَتَانَةَ الدِّيمِ
رَى النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ
بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِي الْأَكْمِ
يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعِلْمِ
أَحَقُّ بِالرَّيِّ لَكِنِّي أَخُو كَرَمِ
وَدِيعَةٌ سِرُّهَا لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي
بِ الصَّبَابَةِ لِعَبِّ الرِّيحِ بِالْعِلْمِ
فِي الْقَلْبِ مَنَزَلَةٌ مَرَعِيَّةُ الدِّمِ
شَوْقًا يَقُلُّ شِبَابَةَ الرَّأْيِ وَالْهَمِّ
لِلْعَيْنِ حَتَّى كَأَنِّي مِنْهُ فِي حُلْمِ
فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلَمِ
مَنَاكِيبَ الْأَرْضِ لَمْ تَتَّبِعْ عَلَى قَدَمِ
فِيهَا سِوَى أُمِّ تَحْنُو عَلَى صَمِّ
وَلَا أَلَدُّ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمِ
إِلَّا خَيَالِي وَلَمْ أَفْطَحْ سِوَى كَلِمِي
أَوْ مِنْ مِجِيرُ فُؤَادِي مِنْ يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جزل رصين ، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب ،
فهو يستسقى للروحاء وما إليها من المغاني العربية ، ويجمع بين شتى الأغراض
في الموضوع الواحد ، ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه حتى لتحسبه نسي

المعنى الأصيل . ألا ترى كيف استسقى للروحاء ، وهذا هو الغرض الأول ،
ثم مضى في وصف السارية الهتانة الدِّيم ، فقال :

مِنْ الْغِزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِهَا رِئُ التَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمٍ
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ مَنَّمَتْ يَدُهَا بُرْدًا مِنَ النُّورِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابُلُهُ يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعَلَمِ
وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل ، أو ألقى يد السلم ، فانتقل
من هذا الغرض إلى وصف ما تكأده من الخطوب ، وما مئني به من الإقامة
في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام ، لا يستقر به إلا على قلق ، ولا
يلذُّ به إلا على ألم ، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ، ولم يسمع غير أصداء .
وهذا بحث مجمل ، نرجو أن نعود إليه في السكامة الآتية بشيء
من التفصيل .

البحث الحادى والعشرون

اسلوب البارودى

قلت فى الكلمة الماضية : إن شعر البارودى تغلب عليه سمة الجاهلية فى المنحى وفى الأسلوب ، وذكرت فى تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل ، وهذا الأسلوب معروف فى أشعار الجاهليين والمخضرمين ، ومن نحائهم من شعراء الأعصر الخالية ، فانا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ، ثم يترك المشبه ويعضى فى الحديث عن المشبه به فيقول :

كَأَنَّ حُمُولَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَصِيفِ مِنْ دَدِ
عَدْوَلِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِ
يَشْقُ عُبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبُ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وتراه يهمل بالحديث عن نفسه فيقول :

وَإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِهِوَ جَاءَ مِنْ قَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِ
ثم يندفع فى وصف الناقة حتى لا يشك القارئ فى أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، إذ يصفها فى أكثر من ثلاثين بيتاً ، ثم يعود بعد لى إلى الحديث عن نفسه فيقول :

وَلَسْتُ بِحِلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول فى ثغر محبوبته سعاد :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
ثم يعرض في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
تَنْفِي الرِّيَّاحُ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ يَبِضُّ يَعَالِيلُ

وتراه يقول في بُعد محبوبته :

أَمْسَتْ سَعَادٌ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ
وكان هذا كافياً في الابانة عن بُعد الشقة ، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه
تلك الأرض بنحو عشرين بيتاً . ثم عاد بُعد هذا كله إلى مرمى إليه من
استعطاف الرسول فقال :

تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنَبَيْهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَيْمٍ لَمَقْمُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا أَهْلِيكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْعُولُ
فَقُلْتُ خَلَاوُ سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَرْتِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقْوِيلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف
أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء ، وكيف انتقل من الحديث
عن وجده إلى الحديث عن غربته . ولنذكر الآن شاهداً آخر تؤيد به
اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق
وصفاً لا زُخرف فيه إذ قال : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا » .

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال : « كنت مع النبي
صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين . قلت يا رسول الله : لو
أن أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! » .

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبي صلى الله
عليه وسلم في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين
وَحَشِيَّتَيْنِ فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا
كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم
وَعَصِيَّتُهُمْ تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار ، فقال لأصحابه : ليس
في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحدٌ ، وقال
رجل آخر : الغار ! فقال أمية بن خلف : ما أربكم فيه ، وعليه من نسج
العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يُولد محمد ^(١) » .

فأما الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار ، وأن الله
أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وُصفت هذه الحقيقة في القرآن
وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته ،

ووصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت - ولنا في حديث عائشة رأى لا يسمح به ظرف الزمان - فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة ، وكيف نحا البارودي في وصفها منحنى شعراء الجاهلية .

أما البوصيري فقد قال :

فَالصَّدَقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرَمَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا فِي الْغَارِ مِنْ أَرَمِ^(١)
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسَجْ وَلَمْ تَحْمِ
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدَّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطَمِ

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإزاله البسكينة عليه ولم يعد ما حدث به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت .

أما شوقي فقد قال :

سَلْ عُصْبَةَ الشَّرِكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً لَوْلَا مُطَارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَحْمِ
هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ أَمْ سَمِعُوا هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أُمَمِ^(٢)
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ كَالْغَابِ وَالْحَائِمَاتِ الزُّغْبُ كَالرَّخَمِ
فَأَذْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كِبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارِينَ مَا سَامَا وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقَمْ
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا وَمَنْ يَضُمَّ جَنَاحُ اللَّهِ لَا يُضَمِّ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين ، ويهزأ بهم ، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مُخِيفاً يَحْزِي له وجهه الشرك وَيُرْغِمُ به أنف الجحود ،

وللقارئ أن يتأمل قوله :

فَأَذْبُرُوا وُجُوهَ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٍ
فانه من أجمل ما شُبه فيه المحسوس بالمعقول . أما البارودي فقد قال :

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ إِيدَانًا بِهِجْرَتِهِ فَيَمَّمُ الْغَارَ بِالصَّدِيقِ فِي الْغَسَمِ (١)
فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّأَهُ مِنْ الْحَمَائِمِ زَوْجُ بَارِعِ الرَّنَمِ
بَنَى بِهِ عِشَّهُ وَاحْتَلَّهُ سَكَنًا يَأْوِي إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرَّهَمِ
إِلْفَانٍ مَا جَمَعَ الْمَقْدَارُ بَيْنَهُمَا إِلَّا لِسِرِّ بِصَدْرِ الْغَارِ مُكْتَسَمِ
كِلَاهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَاةٍ يَرْعَى الْمَسَالِكَ مِنْ بَعْدٍ وَلَمْ يَنْمِ
إِنْ حَنَّ هَذَا غَرَامًا أَوْ دَعَا طَرَبًا بِاسْمِ الْهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالنَّعْمِ
يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِيَ جَائِمَةٌ فِي وَكْرِهَا كُرَّةٌ مَلْسَاءٌ مِنْ أَدَمِ (٢)
إِنْ رَفَرَتْ سَكَنْتَ ظِلًّا وَإِنْ هَبَطَتْ

رَوَتْ غَلِيلَ الصَّدَى مِنْ حَائِرِ شَيْمِ
مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكٍ وَغَالِيَةٍ
مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَيْنِ بِالْعَنَمِ
كَأَنَّهَا شَرَعَتْ فِي قَانِي سَرَبِ
مِنْ أَدْمَى فَعَدَتْ مُحْمَرَّةَ الْقَدَمِ
وَسَجَّفَ الْعَنْكَبُوتُ الْغَارَ مُحْتَفِيًا
بِخِيَمَةِ حَاكِهِا مِنْ أَبْدَعِ الْخِيَمِ
قَدْ شَدَّ أَطْرَافَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ

بِالْأَرْضِ لَكِنَّهَا قَامَتْ بِلَا دَعَمِ
كَأَنَّهَا سَابِرِي حَاكِهِ لَبِقِ
بَارِضِ سَابُورٍ فِي مُجْبُوحَةِ الْعَجَمِ
وَارَتْ فَمَ الْغَارِ عَنْ عَيْنٍ تُلْمُ بِهِ
فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءَ وَجْهِ مُلْتَمِ

فِيَالَهُ مِنْ سِتَارِ دُونِهِ قَرَّ
يَحُلُّوالبَصَائِرَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمٍ
فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتَكِفًا

كَالَّذِي فِي الْبَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَ الْإِرْجَافَ وَأَحْتَرَقَتْ
أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرَّحِيلِ إِلَى
مَنْ عِنْدَهُ السَّرُّ مِنْ خَلٍّ وَمِنْ حَشَمٍ
وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ مَبَاءَتِهِ
يَوْمُ طَيْبَةِ مَأْوَى كُلِّ مُعْتَصِمٍ

وفي هذه القطعة أنتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت ، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه ، وتكلم عن حراسة الحمامتين ، ورعايتهما للمسالك البعيدة ، وهجرهما النوم ، وتغنيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد ، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التي شد أطناها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية ، إلى آخر ما قال .

وهذا كله خروج عن الموضوع ، واستسلام إلى الخيال ، وكذلك كان يفعل الأقدمون .

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب ، لأنه ساير الحوادث وفقاً لما قصّه ابن هشام ، ولا كذلك شوقي والبوصيري ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ،

وقدّما بعض الحوادث على بعض ، وتكلّما عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاذ .

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في أكثر القصيدة ، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، وإلى القارئ أنموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال :

وَأَمَّ طَيْبَةً مَسْرُورًا بَعْدَ دَتِهِ	يَطْوِي الْمَنَازِلَ بِالْوَخَادَةِ الرَّسْمِ
ثُمَّ اسْتَهَلَّتْ وَفُودُ النَّاسِ قَاطِبَةً	إِلَى حِمَاهُ فَلَاقَتْ وَافِرَ الْكَرَمِ
فَكَانَ عَامٌ وَفُودٌ كَمَا أَنْصَرَفَتْ	عِصَابَةٌ أَقْبَلَتْ أُخْرَى عَلَى قَدَمِ
وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ تَتْرَى لِلْمُلُوكِ بِمَا	فِيهِ بَلَغٌ لِأَهْلِ الذِّكْرِ وَالْفَهْمِ
وَأَمَّ غَالِبٌ أَكْنَافَ الْكَدِيدِ إِلَى	بَنِي الْمُلُوحِ فَاسْتَوَى عَلَى النَّعَمِ
وَحِينَ خَانَتْ جُذَامٌ فَلَّ شَوْكَتَهَا	زَيْدٌ يَجْمَعُ لِرَهْطِ الشُّرْكِ مُقْتَمِ
وَسَارَ مُسْتَحْيَاً وَادِي الْقُرَى فَمَحَا	بَنِي فِزَارَةَ أَصْلَ اللُّؤْمِ وَالْقَزَمِ
وَأَمَّ خَيْبَرَ عَبْدُ اللَّهِ فِي نَقَرٍ	إِلَى الْيَسِيرِ فَأَرَادَهُ بِلَا أَمِّ
وَيَمَّ ابْنُ أُنَيْسٍ عَرَضَ نَخْلَةَ إِذْ	طَغَا ابْنُ ثَوْرٍ فَأَصَاهُ وَلَمْ يَنْجُمِ
ثُمَّ اسْتَقَلَّ ابْنُ حِصْنٍ فَاحْتَوَتْ يَدُهُ	عَلَى بَنِي الْعَنْبَرِ الطَّرَارِ وَالشَّجْمِ
وَسَارَ عَمْرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي	جَمْعٍ لِهَامٍ لَجِيْشِ الشُّرْكِ مُصْطَلِمِ
وَعَزَّوَتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاحِدَةً	إِلَى رِفَاعَةٍ وَالْأُخْرَى إِلَى إِضْمِ

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة ، وقد يصل أحياناً إلى الغموض ، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه ،

وأنظر كيف يقول ، وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد :

إِنِّي وَإِنْ مَالِي دَهْرِي وَبَرَحِي
ضَيْمٌ أَشَاطَ عَلَى جَمْرِ النَّوَى أَدْيِي
لَثَابَتُ الْعَهْدِ لَمْ يَحْلُلْ قُوَى أَمَلِي
يَأْسٌ وَلَمْ تَخْطُبِي فِي سَلْوَةٍ قَدَمِي
لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ لِي مَا اسْتَعَيْنُ بِهِ
عَلَى التَّجَمُّلِ إِلَّا سَاعِدِي وَفِي
هَذَا يُخَبِّرُ مَدْحِي فِي الرَّسُولِ وَذَا
يَتْلُو عَلَى النَّاسِ مَا أَرْجِيهِ مِنْ كَلَمِي

وفي هذه الآيات الأربعة لوان من التعبير ، أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر ، وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القصص من جديد ، ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول :

فَهَاكِهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةً
تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسِ وَالْبَرَمِ
وَسَمْتَهَا بِأَسْمِكَ الْعَالِي فَأَلْبَسَهَا
ثَوْبًا مِنْ الْفَخْرِ لَا يَبْلَى عَلَى الْقَدَمِ
غَرِيبَةً فِي إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أَنْسَتْ
بِنَظَرَةٍ مِنْكَ لَا اسْتَعْنَتْ عَنِ النَّسَمِ
لَمْ أَلْتَزِمْ نَظْمَ حَبَّاتِ الْبَدِيعِ بِهَا
إِذْ كَانَ صَوْنُ الْمَعَانِي الْغُرِّ مُلْتَزِمِي
وَإِنَّمَا هِيَ آيَاتٌ رَجَوْتُ بِهَا
نَيْلَ الْمُنَى يَوْمَ تَحْيَا بَدَّةُ الرَّمَمِ
تَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ الْمَدْحِ فَانْتَضَمْتُ
أَحْسَنَ بِمُنَشَّرٍ فِيهَا وَمُنْتَظَمِ
صَدَّرْتُهَا بِنَسِيبٍ شَفَّ بَاطِنُهُ
عَنْ عِفَّةٍ لَمْ يَشْنَهَا قَوْلُ مُتَمِّمِ
لَمْ أَتَّخِذْهُ جُزْأً بَلْ سَلَكَتُ بِهِ
فِي الْقَوْلِ مَسْلَكَ أَقْوَامِ ذَوِي قَدَمِ
تَابَعْتُ كَعْبًا وَحَسَنًا وَلِي بِهِمَا
فِي الْقَوْلِ أَسْوَةٌ بَرٍّ غَيْرِ مُتَمِّمِ
وَالشَّعْرُ مَعْرِضُ أَلْبَابٍ يَرْوِجُ بِهِ
مَا نَحَقَّتْهُ يَدُ الْآدَابِ وَالْحُكْمِ
فَلَا يَأْمَنُنِي عَلَى التَّشْبِيبِ ذُو عَنَتٍ
فَبَلْبُلِ الرُّوضِ طَبُوعٌ عَلَى النَّعَمِ

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف ، وعند مناجاة الوجدان .

سميك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيري والبارودي وشوقي في التسمية باسم النبي عليه الصلاة والسلام ، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمية باسمه فنجد البوصيري يقول :

إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ مِنْ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرَمٍ
فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذَّمِّ

ونجد شوقي يقول :

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي

ونجد البارودي يقول :

خَدَمْتُهُ عِدِيحِي فَأَعْتَلَيْتُ عَلَى

هَامِ السَّمَاءِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدَمِي

وَكَيفَ أَرْهَبُ ضَيْمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ وَخَادِمُ السَّادَةِ الْأَجْوَادِ لَمْ يُضْمَ
أَمْ كَيْفَ يَحْذُلُنِي مِنْ بَعْدِ تَسْمِيَّتِي بِأَسْمٍ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمٌ

والبوصيري هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودي ، ولحقهما شوقي ، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثاني والعشرون

التخلص والاعتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة ، ويقابله الاعتضاب ، ويكثر التخلص في شعر المحدثين ، كما يكثر الاعتضاب في شعر القدماء . قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه ، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وَكَفَّكَتْ مِنِّي عَبْرَةً فَردَدْتُهَا إِلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ
عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنَّهُمَا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوْاجِعُ

ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا الشَّمُّ نَاقِعٌ
يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا^(٢) حَلَّى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب .

(٢) السليم : هو الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلاً بسلامته . كما قيل في الصحراء مفازة .

فوصف الحية والسليم الذي شبّه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه فقال :

أَتَانِي - أَيْتَ اللَّعْنِ (١) - أَنْتَ لَمْتَنِي وَتَلَكَ الَّتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامِعُ

ثم اطرّد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم يرجع إلى المدح ، كما فعل أبو تمام ، وإن أتى بمدحه الذي تبادى فيه منقطعاً ، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظَلَمْتُكَ ظَالِمَةُ الْبَرِّىءِ ظَلُومٌ وَالظُّلْمُ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ مَذْمُومٌ
زَعَمْتُ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ مِنْهَا طُلُوعُ بِاللَّوَى وَرُسُومُ
لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى أَجَلَ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَازَلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلَا غَدْتُ نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثم قال بعد ذلك :

لِمَحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةَ مَجْدُهُ إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

ويسمى هذا النوع الإلمام ، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله : دع ذا ، وعدّ عن ذا ، ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بإنّ المشددة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه ، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح

(١) تحية جاهلية عاشت حيناً ثم ماتت ، وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك ، ولو خاطبت بها اليوم واحداً من ملوك عصرك لاتهموك بقلّة الذوق .

متصلاً بما قبله ، ولا منفصلاً بقوله : (دع ذا) و (عدّ عن ذا) ونحو ذلك
سمى طفرأ وانقطاعاً ، وكان البحترى كثيراً ما يأتي به نحو قوله :

لَوْ لَا الرَّجَاءُ لَمْتُ مِنَ الْمَ الْهُوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكَّلُ

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب .

أما البوصيرى فقد آثر التخلص إذ قال في محاوراة العذول :

إِنِّي أَتَمَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَدَلٍ وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ الشَّهْمِ
فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَطَتْ مِنْ جَهْلَهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قَرَى ضَيْفُ الْمَ بَرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أَوْقَرُهُ كَتَمْتُ سِرًّا بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا كَمَا يُرْدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللَّجْمِ
فَلَا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَامَ يَقْوَى شَهْوَةُ النَّهْمِ
وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ شَهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى

حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمُهُ يَنْفَطِمِ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ إِنَّ الْهُوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِ أَوْ يَصِمِ
وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تَسْمِ
كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةَ الْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذَرِ أَنَّ الشَّمَّ فِي الدَّسَمِ

وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ

فَرُبَّ فَحْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ الشُّحَمِ

وَأَسْتَقْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ أُمْتَلَأَتْ

مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمَ حِمْيَةَ النَّدَمِ

وَذَالِفِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَاعْصِمَا
وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا أَتَمَرْتُ بِهِ
وَلَا تَرَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى
وَإِنْ هُمَا مُحْضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلًا لِيذَى عُقْمِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصِمِ
أَنْ اشْتَكَيْتَ قَدَمَاهُ الضَّرْمِمْ وَرَمِ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح ، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس ، ثم إلى مدح الرسول ، فانا نغفر له هذه الإطالة ، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية ، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس ، وتطهير الوجدان .

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده ، فقد

رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كَيْفَ تَرَقَّى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يَسَاوُوكَ فِي عِلَّاكَ وَقَدْ حَا لَ سَنًا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ سِ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ

وكأنما جراه شوق في أفتاح همزيته فقال :

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمَّ الزَّمَانِ تَبَسُّمُ وَثَنَاءُ
الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ

وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسَّادِرَةُ الْعَصَاءُ
ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق بينهما لبعيد ! وإن
كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء ، في حقّ الأنبياء .
وأعود فأذكر أنني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس :

وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مُحْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ الشَّخَمِ
وجال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة : فإن النفس يضرُّ بها
الزهد ، كما يطفئها الترفُّ ، كالجسم ترديه المسغبة ، كما تضره البطنة .
وأستجيد كذلك قوله :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا انْتَمَرْتُ بِهِ وَمَا اسْتَقَمْتُ فَأَقُولُ لَكَ اسْتَقِمْ
وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورقفه ، وخلوص دعوته من
شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس .
وقد آثر البارودي أيضاً حسن التخلص إذ قال :

لَيْتَ الْقَطَا حِينَ سَارَتْ غُدُوَّةً حَمَلَتْ
عَنِّي رَسَائِلَ أَشْوَاقِي إِلَى إِضْمٍ
مَرَّتْ عَلَيْنَا خِمَاصًا وَهِيَ قَارِبَةٌ
مَرَّ الْعَوَاصِفُ لَا تَلْوِي عَلَى إِرْمٍ
لَا تُدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ تَلَمَّحُهَا
إِلَّا مِثْلًا كَالْمَحِ الْبَرْقِ فِي الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا أَحْرَفُ بَرْقِيَّةٍ نَبَضَتْ
بِالسَّلَكِ فَانْتَشَرَتْ فِي السَّهْلِ وَالْعِلْمِ
لَا شَيْءَ يَسْبِقُهَا إِلَّا إِذَا اعْتَقَلَتْ
بَنَاتِي فِي مَدِيحِ الْمُصْطَفَى قَلْبِي

وهذا تخلص مستملح مقبول ، ومُضِي الشاعر في وصف القطاة إيثارة

للاسلوب القديم الذى نوهنا به فى الكلمة الماضية ، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعرى عند الجاهليين والمخضرمين ، ومن سائرهم من المحدثين ، ويبان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال ، وتكون لهذا الوصف قيمة أى قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعانى المقصودة . ومن أمثلة ذلك قول أبى صعتر البولانى :

فَمَا نُطْفَةُ مَنْ حَبٍّ مُزْنٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ جَنْبَتَا الْجُودَى وَاللَّيْلُ دَامِسٌ^(١)
فَلَمَّا أَقْرَتْهُ اللَّصَابُ تَنَفَّسَتْ شِمَالٌ بِأَعْلَى مَائِهِ فَهَوَ قَارِسٌ^(٢)
بِأَطْيَبِ مَنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ وَلَكِنِّي فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسٌ

فان للشاعر من المبالغة فى وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشادة بعدوبة ذلك الثغر الشهي المذاق ، ويمائل هذا قول عاتكة المريّة ، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَىِّ مَاءٍ تَقُولُهُ تَحَدَّرَ عَنْ غُرٍّ طَوَالِ الذَّوَائِبِ
بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ تَقَابَلَتْ عَلَيْهِ رِيَّاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
نَفَتْ جَرِيَّةُ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ

فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بِأَطْيَبِ مَنْ يَقْصُرُ الطَّرْفُ دَوْنَهُ تُقَى اللَّهُ وَأَسْتَحْيَاءُ بَعْضِ الْعَوَائِبِ
فان لها من وصف الماء فى عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضاً خاصاً هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف .

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دُرَيْدٍ :

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةً قَذَفَتْ بِهَا صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَنْتِ
تَمَنَّتُ أَحَالِيبَ الرَّعَاءِ وَخَيْمَةً بِنَجْدٍ فَلَمْ يَقْدَرْ لَهَا مَا تَمَنَّتِ
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ الْعُضَاهِ وَطَيْبُهُ وَبَرْدَ الْحَصَى مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرَنْتِ
بِأَوْجَدَ مِنْ وَجْدٍ بَرِيًّا وَجَدْتُهُ غَدَاةَ غَدُونَا غُدُوَّةً وَأُطْمَأْنَنْتِ
فَإِنْ يَكُ هَذَا عَهْدَ رِيًّا وَأَهْلُهَا فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنْنَا وَظَنَنْتِ

وأروع من هذا قول الأبيوردى ^(١) :

وَمَا أُمُّ سَاجِي الطَّرَفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى

عَلَى عَذَابَاتِ الْجَزَعِ تَحْسِبُهُ قَلْبًا

تُرَاعِي بِإِسْدَى مُقْلَتَيْهَا كِنَاسَهَا وَتَرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظَرًا غَرَبًا
فَلَا حَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ كَأَنَّ الرَّيَّيْعَ الطَّلُقَ أَلْبَسَهُ عُصْبًا
فَمَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيسُ إِذَا غَدَتِ بِهِ سَوْرَةُ الْأَطْمَاعِ لَمْ يُحْمَدِ الْعُقْبَى
وَأَلَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبُ فَصَادَفَتْ مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ بَلَدًا خَصْبًا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ طَلَاهَا فَالْفَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبًا
أَتَيْحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ يُخَوِّضُ إِلَى أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا
فَوَلَّتْ عَلَى ذُعْرِ وَبِالنَّفْسِ مَا بِهَا مِنْ الْكَرْبِ لِأَلْقَيْتِ فِي حَادِثٍ كَرَبًا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا لَبَيْنِ فَلَمْ تَتْرُكْ لِي صَبُوءَةً لُبًّا

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال رشأها

(١) تجد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة في أنفس الشعراء » .

الذنب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس ، وأملك للقلب ، وأروع للوجدان ولنتقل بعد ذلك إلى شوقي ، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضرع الدنيا من المبكيات ، وما تجنُّ من ظلمات الخطوب ، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق ، وكذلك يقول :

يَا نَفْسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٌ
فُضِيَّ بِتَقْوَالِكَ فَاهَا كَلَمًا ضَحِيكَتْ كَمَا يُفَضُّ أَذَى الرَّقْشَاءِ بِاللَّتَمِ
مُخْطُوبَةٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ تُرْمِلْ وَلَمْ تَمِ
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا جُرْحُ بَادَمَ يَبْكِي مِنْهُ فِي الْأَدَمِ
لَا تَحْفَلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِبِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ
كَمْ نَأْمٌ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنْعَمِ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نَعْمَى وَعَافِيَةٍ وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ
كَمْ ضَلَلْتِكَ وَمَنْ تُحْجِبُ بِصِيرَتِهِ إِنْ يَلْقَ صَابًا يَرُدُّ أَوْ عُلَقَمًا يَسْمُ
يَا وَيَلْتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا مُسَوَّدَةُ الصُّحُفِ فِي مُبَيَضَّةِ اللَّحْمِ
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيحِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا أَخَذَتْ مِنْ حِمِيَةِ الطَّاعَاتِ لِلشَّخْمِ
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ الذَّاتِ تَطْلُبُهَا وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِيَ الصَّبَا تَهْمُ
صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ
تَطْفِي إِذَا مُكِّتَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوَى طَغَى الْجِيَادُ إِذَا عَضَّتْ عَلَى الشُّكْمِ

إِنَّ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُّقْتَصِمٍ
 أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَيَّ مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْغَمِّ
 إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ عِزَّ الشَّفَاعَةِ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أَمِّهِ
 وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ
 لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ يُنْسِكُ بِمِفْتَاحِ حَبْلِ اللَّهِ يَغْتَنِمِ
 وهذه قطعة مختارة ، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري ،
 وإن قول شوقي :

لَا تَحْفَلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جِنَايَتِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ
 لأشرف معنى وأسمى خيالاً من قول البوصيري :
 وَأَخْشَى الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
 فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنْ التُّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين ، فلما وصل إلى
 نفسه ذكر أنه لم يَصِلْ ولم يَصُمْ سوى الفرض ، وأنه يَأْسَى على أن لم
 يَتَزَوَّدَ نَافِلَةً قبل الموت ، وأنه لذلك ظلم سُنَّةَ من أحيا الظلام حتى تَوَرَّعَتْ
 قَدَمَاهُ ، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليزدرف ما زدرف شوقي من الدمع .
 وأين شوقي من البوصيري ؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية ، أما
 شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان يحسن أن يقول :
 رَمَضَانُ وَلِي هَاتِيهَا يَا سَاقِي مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقِ
 ومن هنا سنحت له الفرصة لِيَزْفِرَ تلك الزَّفْرَةَ الحَارَّةَ ، ويرمى بذلك الندم
 الموجه الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلَنِي فِي خَيْرٍ مُنْتَصِمٍ
وكان شوقى أوفر الناس إحساساً بخطر ذنبه ، وكرم ربه ، حين قال :
وإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ
« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر
الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » .

البحث الثالث والعشرون

المعجزات

لنا فى المعجزات رأى خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان ، لأن درس
المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض ،
وقد يشير هذا فتنه نحن عنها أغنياء^(١) ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره
البوصيرى ، وشوقى ، والبارودى من معجزات النبى عليه الصلاة والسلام ،
ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم فى
طلب المعجزات ، إذ كان النبى يدعو إلى تحكيم العقل ، وكان أولئك الكفار
يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية ، تنفر منها القلوب ،
وتأبأها العقول ، وتنبو عنها الأذواق ، ولننظر كيف يقول فيهم عزّ شأنه
وتبارك اسمه فى سورة الإسراء : (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى

(١) ومع ذلك سمح الزمن وأبدينا بعض الآراء بصراحة فى كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا
بردة البوصيرى ، وحين تقدنا قصة المولد النبوى ، وقد بدأ الناس يفهمون أن الاسلام فى غنى بمجمله
الحق عن زخرف الأباطيل .

أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَدْمُوعًا ، أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ
تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ
يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى
تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا .

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئاً وأن الأمر كله
لله ، وأن في القرآن هدىً وتبصرةً لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا قوله تعالى
في سورة العنكبوت (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا
الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن ، وفي تأييد ذلك
يقول البوصيري :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرَنْ بَرَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمَ
دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

وتبعه شوقي فقال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَأَنْصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحِكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمٍ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُدُ زِيَرَتُهُنَّ جَلَالَ الْعَتَقِ وَالْقَدَمِ

يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ
ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة
في المعجزات ، وإن كان شوقي على شيء من الحرص ، ويليهِ البوصيري ، أما
البارودي فقد نظم كل مصادفه من هذا القبيل ، وقد اشترك البوصيري والبارودي
في الحديث عن سجود الأشجار ، وسعيها إلى الرسول ، فقال البوصيري :

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ
كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّقَمِ

وقال البارودي :

أَتَلَّكَ أُمَّ حِينَ نَادَى سَرَحَةً فَأَتَتْ إِلَيْهِ مَنَشُورَةَ الْأَغْصَانِ كَالْجَمِ
حَمَتْ عَلَيْهِ حُنُوءَ الْأُمِّ مِنْ شَفَقٍ

وَرَفَرَفَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحُسْنِ مِنْ رَحِمٍ
جَاءَتْهُ طَوْعًا وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا عُوْدِي وَلَوْ خُلِّيتَ لِلشَّوْقِ لَمْ تَرِمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام ، فقال :

فَيَنِمَا هُوَ يَرَعَى الْبُهِمَ طَافَ بِهِ

شَخْصَانِ مِنْ مَلَكَوَتِ اللَّهِ ذِي الْعِظَمِ

فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ صَدْرَهُ يَدٍ رَفِيقَةٍ لَمْ يَبْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمٍ
وَبَعْدَ مَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا تَوَلَّىَا غَسَلَهُ بِالسَّلْسِلِ الشِّيمِ
مَا عَاجَلَا قَلْبُهُ إِلَّا لِيَخْلُصَ مِنْ شَوْبِ الْهَوَى وَيَعْبِي قُدْسِيَّةَ الْحَكَمِ
فِيَا لَهَا نِعْمَةً لِلَّهِ خَصَّ بِهَا حَبِيبَهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلَمِ

وشقُّ الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالسلسبيل ليس من المعجزات لأن

المعجزة تكون للاقناع ، وهو لم يدعُ إلى ربه في طفولته حتى يكون للاقناع مجال ، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشاء ، وقد مر البارودي بهذه الأسطورة مرّ الطيف ، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل ، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق ، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صُوّر النبي فيها صورة رائعة ، وتثّل فيها لطف الله به ، وإحسانه إليه ، وتكريهه إياه ، وهي صورة شعرية نحب أن نتمتع بها القارئ ، ليرى كيف ابتدأ القصص في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام .

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وكنت مُسْتَرْضِعًا في بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، فبينما أنا ذات يوم مُنْتَبِذٌ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت برَهْرَهة من الذهب ملآن ثلجًا ، فأخذوني من بين أصحابي ، وأنطلق أصحابي هربًا حتى انتهوا إلى شَقِيرِ الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا : ما أَرَبُكُمْ من هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مُسْتَرْضِعٌ فينا ، غلام يتيم ليس له أب ، فما يرُدُّ عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لا بدّ قاتليه فاختاروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فقاتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يُحْيِرُونَ جوابًا انطلقوا مسرعين إلى الحَيِّ يُؤْذِنُونَهُمْ وَيَسْتَصْرِخُونَهُمْ على القوم ، قال فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعًا رقيقًا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى عاتقي ، وأنا أنظر إليه ، ولم أجد لذلك مسًا ، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها إلى مكانها ، ثم قام الثاني منهم

فقال لصاحبه : تَنَحَّ عنه ، فَنَحَّاهُ عَنِّي ، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه ، فصدَّعَهُ ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء خرمي بها ، ثم أمر يده يَمْنَةً منه ، وكأنه يتناول شيئاً ، فإذا بنخاتم من نور في يده يحار الناظرون إليه فغم به قلبي فامتلاً نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت برَدَ الخاتم في قلبي دَهرًا ، ثم قال الثالث : تَنَحَّ عنه ، فَنَحَّاهُ عَنِّي ، فأمر يده على مفرق صدرى إلى مُنْتَهَى عانتى ، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ، ثم أخذ ييدى فأنهضنى من مكاني إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شق بطنى : زِنَةُ بعشرين من أمته فوزنى فَرَجَحْتُهُمْ ، ثم قال : زِنَةُ بمائة من أمته فوزنى فَرَجَحْتُهُمْ ، ثم قال : زِنَةُ بألف من أمته فوزنى فَرَجَحْتُهُمْ ، ثم قال : دَعَهُ فوالله لو وَزَنْتَهُ بِأَمْتِهِ لَرَجَحْتُهُمْ . قال : ثم ضمُونى إلى صدورهم وقَبَّلُوا رَأْسِي ، وما بين عَيْنِي ، ثم قالوا : لا تُرْعَ ، فَإِنَّكَ لو تدرى ما يُرَادُ بِكَ من الخير لَقَرَّتْ بِهِ عَيْنَاكَ . قال : فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحىُّ بِحُذَافِيرِهِمْ ، فإذا ظَنَرى أمام الحىِّ تهتف بأعلى صوتها ، وتقول واضعيفاه ! فانكبُّوا عَلَىّ وضمُّونى إلى صدورهم ، وقَبَّلُوا رَأْسِي ، وما بين عَيْنِي —
— يعنى الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ! ثم قالت ظَنَرى : وإيتيماها !! استَضِعِفْتَ من بين أصحابك ، فَقُتِلْتَ لضعفك ! قال فانكبُّوا عَلَىّ وضمُّونى إلى صدورهم ، وقَبَّلُوا رَأْسِي وما بين عَيْنِي — يعنى الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك من الخير لَقَرَّتْ بِهِ عَيْنَاكَ ! فوصل الحىُّ إلى شَفِير الوادى فلما أبصرتنى أُمى — وهى ظَنَرى — قالت : لا أراك إلا حياً بعد ! فجاءت حتى انكبَّتْ عَلَىّ ، ثم ضمتنى إلى

صدرها ، فوالذى نفسى بيده إني لفي حجرها قد ضمتني إليها ، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة ، وجعل القوم لا يرونهم ، قال : فقال بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لممٌ ، أو طائفٌ من الجن فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت يا هذا ما بي شيء مما تدكرون ، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح ، ليست لي فلتة ، فقال أبي — وهو زوج ظئري — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس ، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن ، فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتي ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فإنه هو أعلم بأمره منكم ، فسألني فقصصت عليه القصة ، وأمرى من أوله إلى آخره ، فوثب إليّ وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والغزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهنّ عقولكم ، وعقول آبائكم ، وليخالفنّ أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ! قال : فعمدت ظئري إليه فاتزعنتي من حجره ، وقالت : لأنت أعتقه وأجنّ ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك ، فإننا غير قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدّوني إلى أهلهم وأصبحت مفرّجاً مما فعل بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عاتقي كأنه الشراك^(١) .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارئ من تقدّه وتمييزه ، ولنجمعه على بينة من الحكم له أو عليه ، إن شاء ، أما نحن فتريناه فيه عبارته ، إذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء .

وحلاوة التعبير ، ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث ، فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوع ، وذلك قوله : « روى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه ، يتوكأ على عصاه فمثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده ، فقال : يا بن عبد المطلب إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس ، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ، ألا وإنك تفوّهت بعظيم ! إنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل ، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان ، فالك والنبوّة ؟ ولكن لكل حق حقيقة ، فأبني بحقيقة قولك ، وبدؤ شأنك ! قال : فأعجب النبي بمسألته ، ثم قال : يا أخا بني عامر ، إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيماً ومجلساً كريماً الخ . فإن القارئ يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة : « إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس » فإن كلمة صلى الله عليه وسلم لا يقال لمن « يزعم » أنه رسول ، وعبرة « فأبني بحقيقة قولك وبدؤ شأنك » . عبارة مولدة ، لا ريب في ذلك ، وما أظن النبي يقول « إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيماً ، ومجلساً كريماً » فإن هذا أيضاً من تعابير المولدين ، ولكل عصر أسلوب .

أكتفي بهذا في نقد هذه الأقصوة ، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل والتجريح ، وأنقل إلى ما ذكره من العجائب

عند ميلاد الرسول ، كانصداع إيوان كسرى ، وخمود نار الفرس ، وانضوب
بحيرة ساوة ، وما إلى ذلك من خوراق العادات .

قال البوصيرى فى البردة :

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ غُنْصَرِهِ يَاحُسْنَ مُبْتَدَأٍ مِنْهُ وَمُخْتَمِرِ
يَوْمٌ تَقَرَّسَ فِيهِ الْفَرَسُ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْذَرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنِّقَمِ

وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ

كَشَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَمِعِ

وَالنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ
وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاضَتْ مُجِيرَتَهَا وَرَدَّ وَارِدُهَا بِالْفَيْضِ حِينَ ظَمِي
كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالمَاءِ مِنْ بَلَلٍ حَزَنًا وَبِالمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ
وَالْجَنُّ تَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ
عَمُّوا وَصَمُّوا فَاِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ تَسْمَعْ وَبَارِقَةُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُشَمِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْجَجَ لَمْ يَقَمِ

وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبِ

مُنْقَضَةٍ وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَمِ

حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

وقال فى الهمزية :

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَوْلَا آيَةُ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ
وَعَدَا كُلُّ بَيْتٍ نَارٍ وَفِيهِ كُرْبَةٌ مِنْ مُخْمُودِهَا وَبَلَاءُ
وَعُيُونُ لِلْفَرَسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة :

وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيوانًا يُدِلُّ بِهِ هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيرانِ وَالْأَيْمِ
ويقول في الهمزية :

ذُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ فزُلْزِلَتْ وَعَلَتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
وَالنَّارُ خَاوِيَةٌ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ
وَالْأَيُّ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ حَمَّةُ جِبْرِيلُ رَوَّاحُ بِهَا غَدَاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق ،
وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقي فقد آثر الحيطه ، وهو يتكلم عن هذه
الموضوعات ، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض
القصيدة ، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية :



ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في
وصف الخوارق والمعجزات ، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في نقد
الأخبار والآثار ، فإن أنصداع الإيوان ، وخبود نار الفُرس ، ونُضُوبُ بُحَيْرَة
ساوَة ، وأنقضاء الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر ، وكلها
في حاجة إلى تحييص ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي ، أما البوصيري فقد قال :

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقَرَى لَيْلًا عَلَى عِلْمٍ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ
وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة . وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية . وقوله :

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
غير واضح المدلول ، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن ، لأنه لا يهيمُ بنظم القرآن ، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن ، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل ، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعزَّ عليه أن تضع ، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل . . . أما قوله :

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ
فهو بيت يمدح به شخص ، ولا يُقرَّطُ به كتاب ، وقد كان الشاعر يرى إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم ، ومكارم الأخلاق ، ولكنه لم يوفق إلى حسن الأداء . . .

وقوله بعد ذلك :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قِدَمِ القرآن وحُدُوثه ، وهي
إشارة مبهمة لا تغنى في دفع ولا تأييد ، والبيت الثاني غير جيد المعنى ، لأن
إخبار القرآن عن عاد وعن إرم ، ليس حجة إلا عند المسلمين ، أما جمهور
العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار ، بعد امنِ
اللبس والتزوير ...
أما قوله :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ
فهو بيت القصيد ، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية ، وكان هو المرجع حين
يُجَدُّ الخلاف ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتزُّ بها العقل ، ويصح
للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، أما نبع الماء من بين يدي
الرسول ، وتظليل الغمام إياه ، وسجود الأشجار له ، وما إلى ذلك من
المعجزات ، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة ، وهي خَشْيَةُ الضَّرِّ ، قبل
أن تكون مَرْجُوءَةً النفع ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

وقوله :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَامِ
رَدَّتْ بِلَاغَتِهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنْ الْحَرَمِ
كلمة صدق ، ويكفي أن تقرأ القرآن بِحَيِّدَةٍ وَنَزَاهَةٍ لتلمس هذه الحقيقة ،

فالقرآن كتابٌ خَظِرُهُ رَهيبٌ ، يحملُ عُدُوَّهُ على الإيمانِ به ، والخشوعِ لديه .
ولو صَحَّتْ - لا صَحَّتْ - أَرَجِيْفُ الْمُلْحِدِينَ من أن القرآن من إنشاء محمد
ابن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود « وَمَا كُنْتَ
تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ
آيَاتٌ يَبَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .
وما أَصْدَقَ قَوْلَ البوصيرى فى آيات الكتاب العزيز :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ	وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى حَجَابُهَا	وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ	لَقَدْ ظَفَرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاغْتَصِمِ
إِنْ تَتْلَاهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى	أَطْفَأَتْ نَارَ لَظَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّبَمِ
لَا تَعَجَبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنْكِرُهَا	تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهْمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ	

وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال ، وهو غاية فى تقرير المكابرين ...
أما شوق فقد قال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَاَنْصَرَمَتْ	وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كَلَمًا طَالَ الْمَدَى جُدُّهُ	يَزِيئُهُنَّ جَلَالُ الْعَتَقِ وَالْقَدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ	يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالْتَقْوَى بِالرَّحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل ، وكنت أودُّ أن لا يكتفى شوق فى وصف
القرآن بهذه الأبيات ... ، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال :

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً حَدِيثَكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهْمِ
حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظَمٍ
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ تُخَيِّ الْقُلُوبَ وَتُخَيِّ مَيِّتَ الْهَمَمِ
وقول شوقي :

آيَاتُهُ كَلَمًا طَالَ الْمَدَى جُدُدُ يَزِيهِنَّ جَلَالَ الْعَتَقِ وَالْقِدَمِ
أروع من قول البوصيري :

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ
وقول البوصيري :

إِنْ تَتَلَّهَا خَيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَى أَطْفَأَتْ حَرَّ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشِّمِّ
فيه ضعف ، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله ، وهو تهذيب
النفوس ، وتثقيف العقول ، إلى غرض ضئيل ، هو اتخاذ ورداً من أوراد
الصباح أو المساء ، كما فعل المتأخرون .

وقوله :

حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظَمٍ
غير جيد المعنى ، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة
البيان ، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من
الشُمُول ، وجودة الوصف لا تتم إلا بتحديد الموصوف .

وصف الهيجاء

عَنِ الْعَرَبِ كَثِيرًا بِوَصْفِ الْحَرْبِ ، فَأَفَاضَ شِعْرَاؤُهُمْ فِي الْإِشَادَةِ بِذِكْرِ

الغزاة ، والتمدح بآثار المجاهدين ، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عدلٌ على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمنًا غير قليل ، فقد اختار أبو تمام قطعًا قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق ، وفعل مثل ذلك في الفكاهات والملح والنسيب ، ثم ملا كتابه بالحماسة والهجاء والمديح : وهي الفنون التي تترجم النفس العربية ، وتكشف عما فيها من مطوى النوازع ، ومكنون الميول ، وكذلك مهَّدت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك ، وما اقتحم من الحروب ، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء .

أما البوصيرى فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملّة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض ، وهو يتكلم عن أخبار القتال ، فوصفه للحرب وصف فضفاض يصلح لبوساً لكل موصوف . وانظر كيف يقول :

رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءَ بَعْثِهِ	كَنْبَاءُ أَجْفَلَتْ غُلًّا مِّنَ الْغَمِّ
مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ	حَتَّى حَاكُوا بِالْقَنَا حِمَاً عَلَى وَحْمٍ
وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ	أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخْمِ
تَمَضَى اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا	مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
كَأَنَّمَا الدِّينُ صَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ	بِكُلِّ قَرَمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرَمِ
يَجْرُ بَحْرٌ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِجَةٍ	يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَظِمِ
مِنْ كُلِّ مُتَنَدِّبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبِ	يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُصْطَلِمِ
حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ	مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من أصحاب الرسول

هُمْ الْجِبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُصَادِمُهُمْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَدَمٍ
وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا فُصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحَمِ
الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ مُحَرًّا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ

مِنْ الْعِدَا كُلِّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّمَمِ
وَالكَاتِبِينَ بِسُورِ الْخَطِّ مَا تَرَكْتَ أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرِ مُعْجَمٍ
شَاكِيَ السَّلَاحِ لَهُمْ سِيَمَاءٌ تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَنَزُ بِالسِّيَمَاءِ مِنَ السَّلَمِ
تَهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرُهُمْ
فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَمِي

وقد يستضعف قوله :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبًّا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَامِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ
طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَامِ بِأَسْهَمِهِمْ فَرَقًا فَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ الْبَنَمِ وَالْبَنَمِ
أما البارودي - جعل الله له لسان صدق في الآخرين - فقد وصف الحرب
وصفًا حيًّا صارخًا يبعث ميت العزم ، ويثير مدفون الصيال ، وما ظنك
بجندى سَفَّاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح الشوامخ
ليبلغوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار ، وإنه لضلال أجهل من
الهدى ، وغى أهدى من الرشاد !

ولننظر كيف يقول :

قَامَ النَّبِيُّ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُعْتَزِمًا يَحْفَلُ جُمُوعُ الشَّرِّكَ مُخْتَرِمِ
تَبْدُو بِهِ الْبَيْضُ وَالْقَسْطَالُ مُنْتَشِرٌ كَالشَّهْبِ فِي اللَّيْلِ أَوْ كَالنَّارِ فِي الْفَحْمِ
لَمَعَ السُّيُوفُ وَتَضَعَالُ الْخِيُولُ بِهِ كَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ فِي مُغْدَوْدِقِ هَزَمِ

عَرَمَرَمَ يَنْسِفُ الْأَرْضَ الْقَضَاءِ إِذَا سَرَى بِهَا وَيَدُكُ الْهَضْبَ مِنْ خِيَمِ
فِيهِ الْكِبَاةُ الَّتِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهَا مَعَاطِسُ لَمْ تُدَلَّ قَبْلُ بِالْخَطْمِ
مِنْ كُلِّ مُعْتَرِمٍ بِالصَّبْرِ مُحْتَرِمٍ لِلْقَرْنِ مُلْتَرِمٍ فِي الْبَاسِ مُهْتَرِمِ
طَالَتْ بِهِمْ هَمُّ نَالُوا السَّمَاءَ بِهَا عَنْ قُدْرَةٍ وَعَلُو النَّفْسِ بِالْهَمِّ
يَيْضُ أُسَاوَرَةٌ غُلِبُ قَسَاوَرَةٌ

شُكْسُ لَدَى الْحَرْبِ مِطْعَمُونَ فِي الْأَزَمِ
طَابَتْ نَفُوسُهُمْ بِالْمَوْتِ إِذْ عَامُوا أَنْ الْحَيَاةَ الَّتِي يَبْغُونَ فِي الْعَدَمِ
سَاسُوا الْجِيَادَ فَظَلَّتْ فِي أَعْتَبِهَا طَوَعَ الْبَنَانَةَ فِي كَرٍّ وَمُقْتَحَمِ
تَكَادُ تَفْقَهُ لَحْنَ الْقَوْلِ مِنْ أَدَبِ وَتَسْبِقُ الْوَحْيَ وَالْإِيمَاءَ مِنْ فَهَمِ
كَانَ أَذْنَابُهَا فِي الْكُرِّ الْوَيْةُ عَلَى سَفِينٍ لِأَمْرِ الرِّيحِ مُرْتَسِمِ
مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ بَيْنَ الْعَجَاجِ هَوَى الْأَجْدَلِ اللَّحْمِ
وَالْبَيْضُ تَرْجُفُ فِي الْأَعْمَادِ مِنْ ظُلْمٍ وَالشَّمْرُ تَرْعُدُ فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَرَمِ
مِنْ كُلِّ مُطَرِّدٍ لَوْ لَا عِلَاقَتُهُ لَسَاقِ الْمَوْتِ نَحْوُ الْقَرْنِ مِنْ ضَرَمِ
كَانَتْهُ أَرْقَمُ فِي رَأْسِهِ حُمَةُ يَسْتَلُّ كَيْدَ الْأَعَادِي بِأُبْنَةِ الرَّقَمِ
فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنَافَ عَلَى أَرْبَاضِ مَكَّةَ بِالْفُرْسَانِ وَالْبُهَمِ
وَلَفَهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ يُشَدُّ عَلَى أَرْكَانِ رَضْوَى لَأَضْحَى مَائِلِ الدَّعَمِ
فَاقْبَلُوا يَسْأَلُونَ الصَّفْحَ حِينَ رَأَوْا أَنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ
رَبِعُوا فَذَلُّوا ، وَلَوْ طَاشُوا لَوْ قَرَّهُمْ ضَرْبُ يَفْرِقُ مِنْهُمْ جَمْعَ اللَّحْمِ

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال ، وإنك لتعجب حين ترى البارودي

يَفْتَنُ فِي تَصْوِيرِ الْحَرْبِ ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَزَوَاتِ غَزْوَةً غَزْوَةً ، وَانْظُرْ
كَيْفَ يَقُولُ مِثْلًا فِي يَوْمِ بَدْرَ :

يَوْمٌ تَبَسَّمَ فِيهِ الدِّينُ وَأُنْهَمَلَتْ	عَلَى الضَّلَالِ عُمُودُ الشَّرِّكَ بِالسَّجَمِ
أَبْلَى عَلَى بِهِ خَيْرَ الْبَلَاءِ بِمَا	حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ هَمِّهِمْ
وَجَالَ حَمْزَةٌ بِالصَّمْصَامِ يَكْسُوهُمْ	كَسَاءً يَفْرَقُ مِنْهُمْ كُلَّ مُزْدَحَمٍ
وَعَادَرِ الصَّحْبِ وَالْأَنْصَارِ جَمْعَهُمْ	وَلَيْسَ فِيهِ كَيْفٌ غَيْرُ مُنْهَزِمٍ
تَقَسَّمَتْهُمْ يَدُ الْهَيْجَاءِ عَادِلَةً	فَالْهَامُ لِلْبَيْضِ وَالْأَبْدَانُ لِلرَّخِمِ
كَأَنَّمَا الْبَيْضُ بِالْأَيْدِي صَوَالِجَةٌ	يَلْعَبْنَ فِي سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ بِالْقِمَمِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَيْفٌ غَيْرُ مُنْجَدِلٍ	عَلَى الرِّغَامِ وَعُضْوٌ غَيْرُ مُنْخَطِمٍ
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ وَالْحَرْبُ مُسْعِرَةٌ	حَتَّى غَدَا جَمْعُهُمْ نَهْبًا لِمُقْتَسِمِ
قَدْ أَمْطَرَتْهُمْ سَمَاءُ الْحَرْبِ صَائِبَةً	بِالشَّرْفِيَّةِ وَالْمُرَّانِ كَالرُّجْمِ
فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ صَلَفٍ	وَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ خَفَرٍ وَمِنْ شَمِّهِ
جَاءُوا وَلِلشَّرِّ وَسَمٌ فِي مَعَاطِسِهِمْ	فَارْغُمُوا وَالرَّدَى فِي هَذِهِ السِّيمِ
مَنْ عَارَضَ الْحَقَّ لَمْ تَسْلَمْ مَقَاتِلُهُ	وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْأَخْطَارِ لَمْ يَنْجِمِ

أَمَا شَوْقِي فَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ فِي الْحَرْبِ وَصْفًا رَقِيقًا لَا يِلَاقِي مَا تَقْضِي بِهِ الْحَرْبُ
مِنْ غَلْبَةِ الْغَضَبِ وَشُمُولِ الْعُبُوسِ ، وَلِنَنْظُرَ كَيْفَ يَقُولُ :

الْبَدْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ	وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمٍ
شُمُّ الْجِبَالِ إِذَا طَاوَلَتْهَا انْخَفَضَتْ	وَالْأَنْجُمُ الزَّهْرُ مَا وَاسَمَتْهَا تَسِمِ
وَاللَّيْتُ دُونَكَ بَأْسًا عِنْدَ وَثْبَتِهِ	إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَأَى السِّلَاحِ كَيْفِ
تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتِهَا	فِي الْحَرْبِ أَفِيدَةُ الْأَبْطَالِ وَالْبَهْمِ

حَبَّةُ اللَّهِ أَلْقَاهَا وَهَيْبَتُهُ عَلَى ابْنِ آمِنَةٍ فِي كُلِّ مُصْطَدَمٍ
كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرٌ دُجِي يُضِيءُ مُلْتَمِئًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَمِئٍ
بَدْرٌ تَطْلَعُ فِي بَدْرِ فَعْرَتُهُ كَغُرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِي الظُّلَمِ
وهذا شعر جميل ، لكنه أرق من أن يوصَفَ به ذوو البأس وهم يقارعون
الهلول في ميدان الجِلَاد ، ويعجبني قوله في وصف الغُرَّة :

مَهْمَا دُعِيتَ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا تَرَى بِأُسْدٍ وَيَرَى اللَّهُ بِالرُّجْمِ
عَلَى لَوَائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِمٍ لِلَّهِ مُسْتَقْتَلٍ فِي اللَّهِ مُعْتَزِمٍ
مُسَبِّحٍ لِلِقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمٍ شَوْقًا عَلَى سَابِجٍ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمٍ
لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَبْغِي ثَقَلَةً فَرَمَى بَعَزَمِهِ فِي رَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرَمِ
يَبِضُّ مَفَالِيلُ مِنْ فِعْلِ الْحُرُوبِ بِهِمْ مِنْ أَسِيفِ اللَّهِ لَا الْهِنْدِيَّةِ الْخَزْمِ
كَمْ فِي الثَّرَابِ إِذَا فَتَشْتَ عَنْ رَجُلٍ

مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ
لَوْ لَا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَا تَفَاوَتَ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال ، وأشار إليها
البارودي إشارة خفيفة حين قال :

ذَاقُوا الرَّدَى جُرْعًا فَأَسْتَسَامُوا جَزَعًا

لِلصُّلْحِ وَالْحَرْبِ مَرْقَاةٌ إِلَى السَّلَامِ

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد ، وأفصح عنها إفصاحاً يُرَضَى النصف
ويكبحُ جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول :

قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا
 جَهْلٌ وَتَضْلِيلٌ أَحْلَامٌ وَسَفْسَاطَةٌ
 لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ
 وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ
 لَقِيتُ نَفْسٍ وَلَا جَاءُوا لِسَفْكِ دَمٍ
 فَتَحَتْ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
 تَكْفَلَ السَّيْفُ بِالْجُهَالِ وَالْعَمَمِ
 ذَرَعًا وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
 وقد رأى لتأييد حجه أن يضرب المثل بالمسيحية ، فقد كانت دين سلام
 وإخاء ، ولكنها لم تقم إلا بالسيف ، وفي هذا يقول :

سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغُرَاءَ كَمْ شَرِبَتْ
 طَرِيدَةُ الشَّرِّ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا
 لَوْ لَا حُمَاةُهَا هَبُوا لِنَصْرَتِهَا
 بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفْقِ وَالرَّحِمِ
 بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْغَلَمِ
 فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالًا سَاطِعِ الْحَدَمِ
 ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد ، فقال :

عَلَّمَتْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ
 لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدَّوَلَاتِ فِي زَمَنِ
 تِلْكَ الشَّوَاهِدِ تَتَرَى كُلَّ آوِنَةٍ
 بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ
 حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذَّمِّ
 مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ دَعَمٍ
 فِي الْأَعْصِرِ الْغُرْلَا فِي الْأَعْصِرِ الدُّهُمِ

لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُشْلَمْ وَلَمْ تُصَمِّ

المدنية الاسلامية

وقد انفرد شوقي بالأفصاح عن جلال المدنية الاسلامية ، وتقديمها على
 مدنية المصريين واليونان والرومان ، وفي ذلك يقول :

دَعْ عَنْكَ رُومًا وَآتِينَآ وَمَا حَوَاتَا
 كُلُّ الْيَوَاقِيتِ فِي بَغْدَادَ وَالْتُومِ

وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيوَانًا يُدِلُّ بِهِ
وَأُتْرُكُ رَعْمَسِيْسَ إِنْ الْمَلِكَ مَظْهَرُهُ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُوْمَا كُلَّمَا ذَكِرَتْ
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمٍ
وَلَا أُحْتَوَتْ فِي طِرَازٍ مِنْ قِيَاصِهَا
مِنْ الدِّينِ إِذَا سَارَتْ كِتَابُهُمْ
وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ
يُطَاطِئُ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبَسُوا
وَقَدْ مَضَى الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ خُلَفَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَثَرِ فِي
حَيَاةِ الدِّينِ . وَلَا يَعْجِبُنِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ غَيْرُ قَوْلِهِ :

وَأُتْرُكُ رَعْمَسِيْسَ إِنْ الْمَلِكَ مَظْهَرُهُ
فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ
فَإِنَّهُ مِنْ فَرَائِدِ الْأَمْثَالِ وَلَنَسْجِلُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَوَازِنَةِ الْمَفْصَلَةَ أَنَّ
الْبُوصَيْرِيَّ سَمَا فِي الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ سُمُومًا لَمْ يُؤَفِّقْ إِلَى مِعْشَارِهِ فِي سَائِرِ شَعْرِهِ
وَهَذَا أَثَرٌ لَصَدَقِ الْعَاطِفَةِ ، بِخِلَافِ صَاحِبَيْهِ ، فَانْ شَعْرَهُمَا فِي هَذَا الْبَابِ دُونَ
مَا يَعْرِفُ النَّاسُ لَهُمَا مِنَ الشَّعْرِ الْبَلِيغِ ، وَصَدَقَ شَوْقِي حِينَ قَالَ :

لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
مَدِيحُهُ فَيْكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوَى
لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
وَصَادِقُ الْحُبِّ يُنْمَلِي صَادِقُ الْكَلِمِ

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس ، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج : « سابق حُلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين » كما قال أبو حيان .

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره ، ولكننا رأينا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء ، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه ، فلما فرغوا قال الخصيب : ألا تتشدنا أبا علي ؟ فقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تَلْقَف ما يَأْفكون ! قال : هات إذاً . فأنشده رائيته المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
فَاهْتَزَّ لَهَا الْخَصِيبُ ، وَأَمْرُ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِية . وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي - وسنبسط عنه القول - ومنهم حسان بن نغير المعروف بعرقلة الدمشقي ، فقد وزن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين ابن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر كما فعل أبو نواس حين توجه

بقصيدته إلى الخصب ، وفيها يقول :

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّاعِنِينَ بَشِيرُ
لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَهُمْ وَتَكَثَّرَتْ

هُمُومِي وَلَكِنَّ الْمَحَبَّ صَبُورُ

وَكَمْ بَيْنَ أَكْنَافِ الشُّعُورِ مُتِمِّمٌ
وَكَمْ لَيْلَةٌ بِالْمَاطِرُونَ قَطَعْتُهَا
سَقَى اللَّهُ مِنْ سَطْرًا وَمَقَرًا مَنَازِلًا
وَلَا زَالَ ظِلُّ النَّيِّرِينَ فَإِنَّهُ
وَيَا بَرْدَى لَا زَالَ مَأْوُكَ بَارِدًا
أَبَى الْعَيْشُ إِلَّا بَيْنَ أَكْنَافِ جِلَقٍ
وَكَمْ بِحِمَى جَيْرُونَ سِرْبُ جَادِرٍ
وَلَكِنْ سَاحْوِيهِ إِذَا سَرَتْ قَاصِدًا
كَثِيبُ غَزَتِهِ أَعْيُنُ وَشُعُورُ
وَيَوْمٍ إِلَى الْمَيْطُورِ وَهُوَ مَطِيرُ
بِهَا لِلنَّدَايِ نَظْرَةٌ وَسُرُورُ
طَوِيلٌ وَيَوْمُ الْمَرْءِ فِيهِ قَصِيرُ
وَمَاءُ الْحَيَا مِنْ سَاحَتَيْكَ نَمِيرُ
وَقَدْ لَاحَ فِيهَا أَشْمُسٌ وَبُدُورُ
حَبَائِلُهُنَّ الْمَالُ وَهُوَ نَفُورُ
إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الصَّلَاحُ أَمِيرُ

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله :

أَلَا فَرَعَى اللَّهُ الصَّبَا مَا أَبْرَهُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافُ تَرْفُ ظِلَالُهُ
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانٍ لَذَّةٍ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلَاعِبِ
فَالْحَاطِنَا بَيْنَ الثُّفُوسِ رَسَائِلُ
عَقَدْنَا جَنَاحِي لَيْلِنَا بِنَهَارِنَا
وَقَدْ نَا لِسَاقِينَا أَدْرَهَا فَإِنَّمَا
وَحْيًا شَبَابًا مَرَّ وَهُوَ نَضِيرُ
عَلَيْنَا وَسَلَسَالُ الْوَفَاءِ نَمِيرُ
عَلَى شَيْمٍ مَا إِنْ بَيْنَ نَكِيرُ
بِهَا اللَّهُوَ خِدْنُ وَالشَّبَابُ سَمِيرُ
وَرَيْحَانُنَا بَيْنَ الْكُؤُوسِ سَفِيرُ
وَطَرْنَا مَعَ اللَّذَاتِ حَيْثُ تَطِيرُ
بَقَاءُ الْقَى بَعْدَ الشَّبَابِ يَسِيرُ

فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةٌ لَهَبِيَّةٌ لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ ثُوُورُ
إِذَا مَا شَرِبْنَاهَا أَقْنَا مَكَانَنَا وَظَلَّتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمام الساجعة :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ مُعْمَرٍ ظَلَامِهَا إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
شَغَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاطِرِي وَنَعَّمْتُ سَمْعِي وَالْبَنَانُ طَهُورُ
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ وَجِـيـرَتِهِ ، وَالْعَادِرُونَ كَثِيرُ
فَمَا رَاعَنَا إِلَّا خَفِيفُ حَمَائِمِ لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْعُصُونِ هَدِيرُ
تُجَاوِبُ أَتْرَابًا لَهَا فِي خَمَائِلِ لَهْنٌ بِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ
إِنْوَاعِمُ لَا يَعْرِفُنْ بُوُسَ مَعِيشَةٍ وَلَا دَائِرَاتِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ
تَوَسَّدُ هَامَاتٍ لَهْنٌ وَسَائِدًا مِنْ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
كَأَنَّ عَلَى أَعْطَافِهَا مِنْ حَبِيبِهَا تَمَائِمٌ لَمْ تُعَقِّدْ لَهْنٌ سَيُورُ
خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ دَوَاخِلُ غَيْرِهِ زَهَا هُنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وَغَدِيرُ
إِذَا غَازَلَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ كَأَنَّمَا عَلَى صَفَحَتَيْهَا سُندُسٌ وَحَرِيرُ
فَمَا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدَرَفَ جِيدِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسِجِ الظَّلَامِ سِتُورُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّلِيلِ تَيْهَا وَإِنَّمَا يَتِيهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهُوَ قَدِيرُ

ومن الوفاء أن ننوّه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه ، وهو يقول :

وَلِي شَيْمَةٌ تَابَى الدُّنَايَا وَعَزَمَةٌ تَرُدُّ لَهَا مَ الْجَيْشِ وَهُوَ يَمُورُ
إِذَا سِرْتُ فَلَا أَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا مَرَادٌ لِمُهْرِي وَالْمَعَاقِلُ دُورُ
فَلَا عَجَبٌ أَنْ لَمْ يَصْرَفْنِي مَنْزِلُ فَلَيْسَ لِعُقْبَانِ الْهَوَاءِ وَكُورُ
هَمَامَةٌ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْفِي رِكَابَهَا رَوَاحٌ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَبُكُورُ

مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا تُكْفَ عَيْنَاهَا
عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْعَيْبِ أَذُنٌ سَمِيعَةٌ
وَعَيْنٌ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ بَصِيرٌ
وَفِيَتْ بِمَا ضَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً
بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرٌ
وَأَصْبَحْتُ مُحْسُودَ الْجَلَالِ كَأَنِّي
عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي الزَّمَانِ أَمِيرٌ
إِذَا صَلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلُوَائِهِ
وَإِنْ قُلْتُ غُصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء ، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظان الابتذال .

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب ، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلاً عن نفرة جارته منه ، وأنصرافها عنه ، وأن يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين هم بالرحيل ، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر ، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق ، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة ، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالفسدين ، ثم عاد فتكلم عن هيئته ، وما أعد للسلم والحرب ، وماله من طيب العنصر وكرم الأخلاق ، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين :

وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذَا بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى
وَأَنْتَ بِمَا أَمَلْتُ فِيكَ جَدِيرٌ
فَإِنْ تَوَلَّيْنِي مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ
وَإِلَّا فَايُنِي عَاذِرٌ وَشَكُورٌ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها ، فنذكر أولاً أنه حاور جارته بقوله :
 أَجَارَةَ يَتَيْنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
 وَإِنْ كُنْتَ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ

فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء ، وعبارة « أجارة يتينا »
 ثقيلة على السمع ، وهي كذلك غير واضحة المدلول ، أو هي تحتاج على الأقل
 إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد بيتي جارته بيت السكن وبيت النسب
 وقد يريد غير ذلك ، ولقد أذكر - من باب الفكاهة - أني كنت أناقش
 الأستاذ محمد الهياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب ، فقال : كيف
 وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة يتينا أبوك غيور » لقد كان
 يكسر التاء من « يتينا » ظناً منه أن هذا اسم مكان^(١) !!

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الأول بقوله :

وَإِنْ كُنْتَ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ

فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ

فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة ، وذلك يوجب أن تكون
 مرجع هواه ، ثم يصرح بأنها ليست زوجة ولا صديقة ، فيضطرك إلى أن
 تسأله . وإلّا لم تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ؟ ثم يغلب
 عليه ضيق الصدر ، وقلق النفس . فيقول :

(١) عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدّعاة التي مست أخاه ولكننا لا نرى بأساً من
 تسجيل بعض هفوات من عرفناهم من الأدباء ، وهي مع ذلك لا تغض من المنفلوطي الكاتب ، فقد
 شغل الشبان في عصره ، وكان بلا جدال من أقطاب البيان .

وَجَاوَزْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصْلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورُ
فَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرٍ
وهو بهذا يتململ من أسر فؤاده وحبس أمانيه ، في تلك البقعة التي لم يقر
لقلبه فيها قرار ، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم ، حين تأنس العيون
بالعيون ، وتسكن القلوب إلى القلوب . . ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات
الأنواء ، وخطرات النفوس ، فقال :

وَإِنِّي لَطَرَفُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاوِرٌ فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَى ضَمِيرٍ
والزجر هنا ليس معناه الردع ، وإنما هو من زجر الطير . وأصله أن يرى
الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به ، فإن ولّاه في طيرانه ميامنه تفاعل به ، وإن
ولّاه مياسره تطاير منه ، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين ، وهذا
البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به ، وقسوتها عليه ، وإن لم
تصرح بالقطيعة ، ولم تعلن الصدود . . . ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد
في وصف نفسه بصدق الفراسة ، بل شبه نظرتة بنظرة العقاب في سكون
الريح ، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأزغب ، فقال :

كَمَا نَظَرْتُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ لَهَا عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْيَدَيْنِ نَذُورُ
طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ الْقُوتَ عَنْ ذِي ضَرُورَةٍ

أَزْيِغُ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ
فَأَوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءٍ حِينَ بَدَأَ لَهَا مِنْ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمْوَرُ
تُقَلَّبُ طَرَفًا فِي حَجَاجِي مَعَارَةٍ مِنْ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ سُرُورُ
وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته ، إذ هي تقليد صريح

لأسلوب الأعراب ، ويظهر أن أبانواس كان يُعنى في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة ، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين ، كما كان ينقاد لفظته كل الانقياد ، وهو يتحدث عن الصهباء ، ويشيد بذكر الندامى والسقا والمغنين ، من كل رخم الصوت ، أو أصبح الوجه ، أو عذب الحديث ، وهو الذى يقول :

قَدْ أَسْحَبَ الرِّقَّ يَا بَانِي وَأَكْرَهُهُ حَتَّى لَهُ فِي أَدِيمِ الْأَرْضِ أَخْذُودُ
لَا أَزْجِلُ الرِّاحَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَادٍ بِمَنْشَلِ الْأَشْـمَارِ غَرِيدُ
فَاسْتَنْطِقِ الْعُودَ قَدْ طَالَ الشُّكُوتُ بِهِ

لَنْ يَنْطِقَ اللَّهُو حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ

ولنذكر بعد هذا أن أبانواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته ، وصدق فراسته ، إلى الحديث عن حوار زوجه ، فقال :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ يَدَيْهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرِ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبُ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرُ جَرَتْ فُجْرَى مِنْ جَرِيهِنَّ عَمِيرُ
ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار ، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلاسة التعبير ، وانظر الصدق في قوله :

أَمَّا دُونَ مِصْرِ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبُ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء ، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد

والمناقب ، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بأثارة من الملك أوزاد بسطة
في المال - وقوله :

ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ
من الأبيات المختارة ، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات
المستملحة ، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت : إِذَا يَكْثُرُ حَسَادُهَا ،
وتبلغ أملها . وأمر له بألف دينار ، ثم قال في مدح الخصيب :

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابَنَا فَأَيَّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا جَاذَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ
وليس لهُذين البيتين قيمة أدبية ، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه
خير الناس على الإطلاق ، وأن الجود لا يحوزه ، ولا يحل دونه ، وإنما يصير
حيث يصير ، إلى ما هنالك من وثبات الخيال . وقد نال منه الضعف
والاسفاف حين قال :

فَلَمْ تَرَ عَيْنِي سُودَدًا مِثْلَ سُودَدٍ يَحِلُّ أَبُو نَضْرٍ بِهِ وَيَسِيرُ
ولكنه وُفِّقَ كل التوفيق حين قال :

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
فإنه يصف الخصيب بالسعى لنيل السمعة الحسنة ، والصيت البعيد ، ويصفه
مع هذا بضبط النفس ، والحذر من عاديات النوائب ، وجائزات الخطوب ،
ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه ومملكه خطوات الحذر
الهيوب ، الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر ، وأن تثور من حوله
الأقدار ... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين ، وتنكيله بالعاثين بأمن الناس ، فقال :

وَأَطْرَقَ حَيَاتُ الْبِلَادِ لِحَيَّةٍ خَصِيْبِيَّةِ النَّصِيمِ حِينَ تَسُورُ
سَمَوْتَ لِأَهْلِ الْجَوْرِ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ فَأَضْحَوْا وَكُلُّ فِي الْوَثَاقِ أُسِيرُ
إِذَا قَامَ غَشَّتُهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسى شيئاً من الاضطراب ، وكانت لذلك طُعْمَةً لا يتبداد الحكم وسخرية الشعراء ، وأى سُخْرٍ آلم للنفس ، وأوجع للقلب ، من قول أبي نواس في أحد فتيان مصر وهو يرسف في الصَّفَاد :

إِذَا قَامَ غَشَّتُهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ
وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال :

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرُ
وَمَا زِلْتُ تُؤْلِيهِ النَّصِيحَةَ يَافِعًا إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرُ
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتُهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَاءِ تُشِيرُ

وهذا من أجل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك ، وفي هذه القصيدة قطعة آخرها الشاعر ، وكانت أولى بالتقديم ، وهى وصف رحلة الشعراء إلى الخصيب ، ونحن نسرد هذه القطعة تيمناً للموضوع ، ونصرح بأنها رديئة في العبارة ، وفي السياق . قال :

رَحَلْنَا بِنَا مِنْ عَقْرِ قُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ مِنَ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَمِيرُ
فَمَا نَجَدْتُ بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغٍ تَغُورُ
وَعُمَرُنَ مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشَرِبَةٍ وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكَ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
وَوَافِينَ إِشْرَاقًا كَنَائِسَ تَدْمُرُ وَهَنَّ إِلَى رُغْنِ الْمُدْحَنِّ صُورُ

يُؤْمِنُ أَهْلَ الْغُوطَيْنِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغُوطَيْنِ ثُوْرُ
وَقَلَمَيْنِ لَيْلًا دُونَ يَيْسَانَ لَمْ يَكْدُ سَنَا صُبْحِهِ لِلنَّاطِرِينَ يُنِيرُ
وَأَصْبَحْنَ بِالْجَوْلَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاهِنَّ شُطُورُ

وَأَصْبَحْنَ قَدْ فَوَّزْنَ مِنْ نَهْرِ فُطْرُسٍ

وَهُنَّ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ

طَوَالِبُ بِالرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمٍ وَفِي الْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ

واستأنف مدح الخصيب ، فقال :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكَبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مُجِيرُ

مِنَ الْقَوْمِ بِسَامٍ كَانَ جَبِينُهُ سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِى صَوْوُهُ وَيُنِيرُ

زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ فِي الْوَعَى

وَفِي السَّيْلِ لَمْ يَزْهُوَ مِنْبَرُ وَسَرِيرُ

جَوَادُ إِذَا الْأَيْدَى كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى

وَمِنْ دُونَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ

لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ إِذَا اسْتَوْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في

قصيدة ابن درّاج .

البحث السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

تقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب ، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يافكون ، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس ، ولكننا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد ، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع ، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق ، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق ، وسنرى كيف بذَّ أباً نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان ، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط ، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته في ما كان يعنى به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون .

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي - التي وضعها في تفضيل برّ الأندلس على بر العدو ، والتي أثبتتها المقرئ طيب الله ثراه في نفح الطيب - تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين ، وإني لذاكر ما جاء فيها عن الشعر والشعراء ، لأضع يد القارئ على أثره في جملة ثمره لما

كان من التنافس بين قرطبة وبغداد ، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود^(١) .

قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وَلَيْلٍ بِسَدِّ النَّهْرِ أَنْسًا قَطَعَتْهُ
بِذَاتِ سِوَارٍ مِثْلٍ مُنْعَطَفِ النَّهْرِ
نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنْعَمٍ
فِيَا حُسْنَ مَا أُنشَقَّ الْكَاثِمُ عَنِ الزَّهْرِ

وقوله في أبيه :

سَمِذْعٌ يَهَبُ الْآلَافَ مُبْتَدَأً
وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفَى وَهُوَ يَعْتَدِرُ
لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يَقْبَلُهَا
لَوْلَا نَدَاهَا لَقَلْنَا إِنَّهَا الْحَبَرُ

ومثل ابنه الرضى في قوله :

مَرُّوا بِنَا أَصْلًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ
فَأَوْقِدُوا نَارَ قَلْبِي أَيَّ إِيقَادٍ
لَا غُرُوَ إِنْ زَادَ فِي وَجْدِي مُرُورُهُمْ
فَرُؤْيَا الْمَاءِ تَذَكِّي غَلَّةِ الصَّادِي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتاباً في نحو مئة مجلدة مثل المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟

(١) جاء في فتح الطيب ص ٧٧٨ مانصه : « قال ابن سعيد ، أخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فجري بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين . فقال الشقندي : لولا الأندلس لم يذكر بر العدو ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً وأرجو إذا اخلتني له فكر كما يصدر منكها ما يحسن تخليده . ففعلا » .

وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ،
وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل ، التي منها :

أَثْمَرْتَ رُمَحَكَ مِنْ رُءُوسِ مُلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشِقُ مُشْمِرًا
وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُتَمِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرًا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل - مع طولها - أرق منها في التشبيب ،
وهي التي يقول فيها ^(١) :

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظَّامَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد
وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفَرْتَ مِنْكَ الْعِيُونُ بِنَظْرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْجِي الْمَطِيِّ وَرَازِمُهُ
فارتجل :

لَيْنَ جَادَ شِعْرُ ابْنِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ الْعَطَايَا وَاللَّهَّا تَفْتَحُ اللَّهُا
تَنْبَأُ مُجَبًّا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي : هو بالصقع
الأندلسي كالمثني بصقع الشام ، الذي إن مدح الملوك قال مثل قوله :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ النَّوَاءَ هُوَ التَّوَى ^(٢) وَأَنَّ يُمُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب : « مدامع العشاق » . فقد أثبتناها كلها هناك ، وقد
عارضها شوقي بنونية مطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسي لواديك أم نشجي لوادينا

(٢) التوى : الهلاك .

وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمِّنَ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ بِتَقْيِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ
مُجِيرُ الْهَدَى وَالَّذِينَ مِنْ كُلِّ مُلْحِدٍ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ^(١)

وإن ذكر الغربة عن الأوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعًا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى يَمُنْزِلَ غُرْبَةً كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةٌ نَاهِبِ
وَلَيْتَ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلِ فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آئِبِ
هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالِعًا فِي الْأُفُقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ

وان شبه قال :

لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوَسَنِ قَدْ شَيْدَتْ أَيْدِي الرَّيِّعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقُضْبِ
شُرْفَاتِهَا مِنْ فِضَّةٍ وَحُمَاتِهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهُمْ سُيُوفٌ مِنْ ذَهَبِ

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر ،
ويطيب به الزهر . وهو أبو عمرو بن فرج في قوله :

وَطَائِعَةُ الْوِصَالِ عَفَفَتْ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتَتْ دِيَاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقِنَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتَنِ الْقُلُوبِ لَهَا دَوَاعِي
فَلَكْتُ النُّهَى حُجَابَ شَوْقِي لِأَجْرَى بِالْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي

(١) اختار الشنقدي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج ، ولكننا اكتفينا بذكر هذه الأبيات
لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية ، وقد قال الشنقدي في التعقيب على ما اختاره :

« وأنا أقسم بما حوته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به
عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تقن فيه
كل ناظم ونائر » .

وَبِتُّ بِهَا مَيِّتَ السَّقْبِ يَظْمَا فَيَمْنَعُهُ الْعُكَامُ مِنَ الرَّضَاعِ^(١)
كَذَلِكَ الرِّوْضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَاءِ مُهْمَلَاتٍ فَأَتَّخِذُ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشبهى شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر الهمامي :

عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادَى ذِي الْوَجَى
بَدَدَتْ رِيحُ الصَّوْبِ بَأْ لَوْ لَوْهَ فَأَنْبَرَى يُوقِدُ عَنْهُ سُرْجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد :

وَكَانَ اللَّيْلَ حِينَ لَوَى ذَاهِبًا وَالصُّبْحَ قَدْ لَاحَا
كِلَّةً سَوْدَاءَ أَحْرَقَهَا عَامِدٌ أَسْرَجَ مِصْبَاحَا

وهل منكم من وصف ما تحدته الحمرة ، من الحمرة على الوجنة ، بمثل قول الشريف الطليق :

أَصْبَحَتْ شَمْسًا وَفُوهُ مَغْرِبًا وَيَدُ السَّاقِ الْمُحِيَّتِي مَشْرِقًا
وَإِذَا مَا غَرَبَتْ فِي فِيهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقًا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر على كل إنسان .

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار ، واستلبه بلطف استلاب الشمس

لرضاب طلُّ الأسحار ، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ، ويغنى في الارتياح ،

عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله :

(١) السقب : ولد الناقة ، والعكام ما يعكم به .

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ الْحَرَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى رِقَبَةٍ دُثُو رَفِيقٍ دَرَى مَا التَّمَسَ
أَدَبُ إِلَيْهِ دَيْبُ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سَمُو النَّفْسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى وَأَرْشُفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ
فَبِتُّ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَعْرُ الْفَلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه ، فعارض الصهيل بالنهاق ، وقابل العذب بالزقاق ، فقال وياليتيه سكت :

وَنَفَضْتُ عَنِّي الْعَيْنَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْحُبَابِ وَرُكْنِي خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ
وَأَنَا أَقْسَمُ لَوْ زَارَ جَمْلَ مَحْبُوبَةٍ لَهُ لَكَانَ الْطُفُّ فِي الزِّيَارَةِ مِنْ هَذَا الْأُزُورِ
الرَّكْنُ ، المنفض للعيون ، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله :

قَالَتْ لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حِجَّةً فَأَتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّاهِرُ
وَأَسْقَطْ عَلَيْنَا كَسْقُوطِ النَّدَى لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

ولله در محمد بن سفيان أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا ، المتقدمين قدرًا ، حيث نقل السعي إلى محبوبته ، فقال - وياليتيه لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغي أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدون - :

وَوَاعَدَتْهَا وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلنَّوَى بَرُورَتِهَا شَمْسًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِي
جَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى وَطَوْرًا كَمَا رَرَ النَّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
فَعَطَّرَتْ الْأَفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرْتُ بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرَفُ يُشْعَرُ بِالزَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْبِيلِ آثَارَ سَعْيِهَا كَمَا يَتَقَصَّى قَارِيءُ أَحْرِفِ السَّطْرِ
فَبِتُّ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى تَنَبَّهَ بَيْنَ الْغُصْنِ وَالْحُقْفِ وَالْبَدْرِ

أَعَانَتْهَا طُورًا وَالْتَمُّ تَارَةً إِلَى أَنْ دَعَيْنَا لِلنَّوَى رَايَةَ الْفَجْرِ
فَقَضَّتْ عُقْدًا لِلتَّعَانِقِ يَبْنِنَا فَيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ اتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ
وهل منكم من قِيدَ بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال - وهو ابن اللبابة - :
بِنَفْسِي وَأَهْلِي جِيرَةً مَا اسْتَعْنَيْتُهُمْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا وَانْتَنَيْتُ مُعَانَا
أَرَأْسُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلَّوْهُ بِالْمَدَى فَلَمْ أَسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِمْ طَيْرَانَا
وَمَنْ يَقُولُ وَقَدْ قَطَعَ عَنْهُ مَمْدُوحُهُ مَا كَانَ يَعْتَادُهُ مِنَ الْإِحْسَانِ فَقَابِلْ ذَلِكَ
بِقَطْعِ مَدْحِهِ لَهُ فَبَلَّغَهُ أَنَّهُ عَتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وهو ابن وضاح :

هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِرًا بَفِنَائِكُمْ فِي دَوْحِ جَحْدِكُمْ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيَشَكُمْ وَتُقْلَصُوا عَنِّي ظِلَالَكُمْ فَكَيْفَ أُغَرِّدُ
وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الشجر بالأقاح ، وتشبيه
الزهر بالنجوم ، وتشبيه الحدود بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن يأتي به في
منزِعٍ يصيِّرُ خَلْقَهُ فِي الْأَسْمَاعِ جَدِيدًا ، وَكَلِيلَهُ فِي الْأَفْكَارِ حَدِيدًا ، فَأَغْرَبَ
أَحْسَنَ إِغْرَابٍ ، وَأَعْرَبَ عَنْ فَهْمِهِ بِحَسَنِ تَخِيلِهِ أَنْبَلَ إِعْرَابٍ ، وهو
ابن الزقاق إذ قال :

وَأَغْيَدِ طَافَ بِالْكُوُوسِ ضُحًى وَحَثَّهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَقَائِقَهُ وَأَسْهُ الْعَنْبَرِيُّ قَدْ تَفَحَا
قُلْنَا وَابْنَ الْأَقَاحِ قَالَ لَنَا أَوْدَعْتُهُ ثَغْرَ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
فَظَلَّ سَاقِي الْمُدَامِ يَجْحَدُ مَا قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمَ افْتَضَحَا

وقال :

أَدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْضِ الْمُنْدَى وَحُكْمُ الصُّبْحِ فِي الظَّلَامِ مَا ضَى

وَكَأْسُ الرِّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابٍ يَتُوبُ لَنَا عَنِ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ
وَمَا غَرَبَتْ نُجُومُ الْأَفْقِ لَكِنْ تُقْلِنُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضَحَّتْ يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ
زُرْنِمَهَا وَالْغَمَامُ يَجْدِلُ مِنْهَا زَهْرَاتٍ تَرُوقُ لَهْنِ الرِّاحِ
قُلْتُ مَا ذَنْبُهَا ، فَقَالَ مُحِبًّا سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمِلَاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين ، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين
وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلق بذلك ،
فاتتهى إلى غاية السباق ، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو :
أبو إسحاق بن خفاجة القائل :

وَعَشِيَّ أَنْسٍ أَضْجَعْتِي نَشْوَةً فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيَدَمَّتْ
خَلَعْتُ عَلَىَّ بِهَا الْأَرَاكَةَ ظِلِّهَا وَالْعُصْنُ يُضْغِي وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةً وَالرَّعْدُ يَرِثِي وَالْعَمَامَةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرُ سَمَاءِ
قَدْ رَقَ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَغًا مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفُ بِهَ الْعُصُونُ كَأَنَّهَُا هُدْبٌ تَحْفُ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ
وَلَطَالَمَا عَاطَيْتُ فِيهِ مُدَامَةً صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدِيَ الثَّدْمَاءِ
وَالرَّيْحُ تَعَبَتْ بِالْعُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى جُنَيْنِ الْمَاءِ

والقائل :

حُتَّ الْمَدَامَةَ وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالرَّوْضُ مُهْتَزُّ الْمَعَاطِفِ نِعْمَةً
رَيَّانَ فَضْضَةِ النَّدى ثُمَّ انْجَلَى
وَالظِّلُّ خَفَّاقُ الرُّوَّاقِ ظَلِيلُ
نَشْوَانَ تَعْطِفُهُ الصَّبَا فَيَمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ

والقائل :

أَذِنَ النِّعَامُ بِدِيمَةٍ وَعُـقَارٍ
وَأَرْبَعٌ عَلَى حُكْمِ الرِّبْعِ بِأَجْرِعِ
مُتَقَسِّمِ الْأَحْظَافِ بَيْنَ مُحَاسِنِ
تَشَرَّتْ بِحَجَرِ الرَّوْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا
وَهَفَّتْ بِتَغْرِيدِ هُنَالِكَ أَيْكَةٍ
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَّبَّمَا
فَازِجُ لُجَيْنَا مِنْهُمَا بِنُضَارِ
هَزِجِ النَّدَايِ مُفْصِحِ الْأَطْيَارِ
مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصِرِ قَرَارِ
دُرَّرَ النَّدى وَدَرَاهِمِ الْأَنْوَارِ
خَفَّاقَةٌ بِمَهَبِّ رِيحِ عَرَارِ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاءَةَ النُّوَارِ

والقائل :

سَقِيًّا لَهَا مِنْ بَطَاحِ خَزٍّ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ
وَدَوْحِ نَهْرٍ بِهَا مُطِلٍّ
أَطْلَ فِيهِ عِذَارُ طَلٍّ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّمَى سَلْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةٍ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ
غَازِلَتَهَا وَالْأَقْحَوَانَةُ مَبْسَمُ
وَصَبَا بَلِيلُ ذَيْلِهَا مِكْسَالُ
فِي جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
وَالْأَسُ صُدُغٌ وَالْبَنْفَسِجُ خَالُ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحِيلِ اللَّحْظِ فِي شَأْوِ حُسْنِهِ
جَمَاحٍ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَانُ

تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بَخْدَيْهِ لَمْ يَشُرْ
سَقَاهَا وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً
عُقَارًا نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْعِمَامَةِ أَدْهَمُ
وَضَمَخَ دِرْعَ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ
لَهَا مِنْ سَوَادَى عَارِضِيهِ دُخَانُ
كَمَا أُغْوِجَ فِي دِرْعِ الْكَمِي سِنَانُ
وَلَمْ تَرَنْ بِأَبْنِ الْمَزْنِ فَهِيَ حَصَانُ
لَهُ الْبَرْقُ سَوْطٌ وَالسِّنَانُ عِنَانُ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
لَهَا النُّورُ ثَعْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل :

وَأَشْقَرُ تَضَرَّمُ مِنْهُ الْوَغَى
مِنْ جُلْنَارٍ نَاضِرٍ لَوْ نُهْ
تَطْلُعُ لِلْعُرَّةِ فِي شُقْرَةٍ
بِشُعْلَةٍ مِنْ شَعْلِ الْبَاسِ
وَأَذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

وهل منكم من يقول منادماً لنديه ، وقد باكر روضاً بمحبوب وكأس ،
فألفاه قد غطى محاسنه ضباب ، نخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى
ذلك ، وهو الحسن بن بسام :

أَلَا بَادِرُ فَمَا ثَانٍ سِوَى مَا
وَلَا تَكْسَلُ بِرُؤْيَيْهِ ضَبَابًا
فَإِنَّ الرُّوضَ مُلْتَمَسٌ إِلَى أَنْ
عَهَدْتَ الْكَأْسُ وَالْبَدْرُ التَّمَامُ
تَغْصُّ بِهِ الْحَدِيقَةُ وَالْمُدَامُ
تُؤَافِيهِ فَيَنْحَطُّ اللَّثَامُ

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي :

قَالُوا وَقَدْ أَكْثَرُوا فِي حُبِّهِ عَذَلِي
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي الصَّبَابَةِ لِي
عَلَّقْتُهُ حَبِيَّ الشَّعْرِ عَاطِرُهُ
لَوْ لَمْ تَهَيِّمْ بِمَذَالِ الْقَدْرِ مُبْتَدَلِ
لَاخْتَرْتُ ذَلِكَ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ لِي
حُلُوُ اللَّمَى سَاحِرِ الْأَجْفَانِ وَالْمَقِلِ

غَزِيلٌ لَمْ تَزَلْ فِي الْغَزْلِ جَائِلَةً بَنَانُهُ جَوْلَانِ الْفِكْرِ فِي الْغَزْلِ
جَذْلَانِ تَلْعَبُ بِالْمَحْوَالِ أَمْتَلُهُ عَلَى السَّدَى لَعِبَ الْأَيَّامِ بِالْأَجَلِ
ضَمًّا بِكَفَيْهِ أَوْ فَخْصًا بِأَحْمُصِهِ تَخْبِطُ الظِّي فِي أَشْرَاكِ مُحْتَبِلِ

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلق الأصيل :

وَعَشِيٌّ رَائِقٌ مَنَظَرُهُ قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ
وَكَانَ الشَّمْسُ فِي أَثْنَائِهِ الصَّقَتْ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلزُّوْلِ
وَالصَّبَا تَرْفَعُ أَذْيَالَ الرُّبَى وَمُحْيَا الْجَوِّ كَالنَّهْرِ الصَّقِيلِ
حَبًّا — ذَا مَنَزِلْنَا مُعْتَبَقًا حَيْثُ لَا يَطْرُقُنَا غَيْرُ الْهَدِيلِ

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف :

وَمُنَزَّعِ الْحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى لَبَسَ الْمَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لِبَاسِهِ
مُتَأَوِّدًا كَالْغُصْنِ وَسَطَ رِيَاضِهِ مُتَلَاعِبًا كَالظِّي عِنْدَ كِنَاسِهِ
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُدْبِرًا أَوْ مُقْبِلًا كَالدَّهْرِ يَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِْيَاسِهِ

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار :

الْوَامِي عَلَى كَلْفِي بِحَبِّي مَتَى مِنْ حُبِّهِ أَرْجُو سَرَاحَا
وَيَنْبِ الْخَدَّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ كَرْنَجِيٍّ أَتَى رَوْضًا صَبَاحَا
تَحْيَرٌ فِي جَنَاهُ فَلَيْسَ يَدْرِي أَيُّجْنِي الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الْأَقَاحَا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد ، ورشف رصاب الشجر ،

لم يهتد إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن بن سلام الماسلق في قوله :

لَمَّا ظَفِرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ

أَنْضَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بِتَنْقُصِي وَطَفِيقْتُ أَرْشُفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ^(١)
 وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره ، وسواد شعره ، وهو الطليطي :
 أَمَا أُشْتَفْتُ مِنِّْي الْأَيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تُضَايِقَ فِيمَا عَنْ مِنْ وَطَرِي
 وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكُرَّ عَلَى مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ
 وهل نشأ عنكم من النساء مثل ولادة المروانية^(٢) ، ومثل زينب بنت زياد
 المؤدب التي تقول :

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
 وَشَنُّوا عَلَى أَصْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حِمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
 غَزَوْهُمْهُمْ مِنْ مُقَلَّتِي وَأَذْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ
 ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيَّرة بقول أبي بكر
 ابن بقي ليكون اختتام مسكاً :

عَاطِيَّتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيْقِ لِنَاشِقِ
 وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَيْمِيِّ لِسَيْفِهِ وَذَوَّابَتَاهُ حَمَائِلُ فِي عَاتِقِي
 حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكُرَى زَحَزَحْتُهُ شَيْئًا وَكَانَ مُعَانِقِي
 بَاعَدَتْهُ عَنْ أَصْلَعٍ تَشْتَاقُهُ كَيْلًا يَنَامُ عَلَى وَسَادٍ خَافِقِ^(٣)

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها أهمية . (٢) أنشد لها بيتين لم نر لهما قيمة .
 (٣) كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القبايج أن زين شباب الأندلس صفوان بن إدريس التنوفي
 سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن سنن لا تتجاوز السابعة والثلاثين عارض أبيات الشقندي فقال :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
 بننا نشعشع والعفاف رقيبنا
 ضابجته والليل يذكي تحتنا
 وضممت ضم البخل لماله
 أوفقته في ساعدي لأنه
 والسحر مقصور على حركاته
 خرين من غزلي ومن كلماته
 نارين من نفسي ومن وجعنا
 يحنو عليه من جميع جهاته
 ظي خشيت عليه من فلتاته

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي :

هُمْ نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا وَتَشَرَّبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمَدَامُ
يَخَافُ النَّاسُ مُقَلَّتَهَا سِوَاهَا أَيْدَعُرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحُسَامُ
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهَوَ بَاكِ وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَمَامُ
وَأَذْكُرُ قَدَّهَا فَأَنْزَحُ وَجَدًا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامُ
وَأَعْقَبَ يَدْنُهَا فِي الصَّدْرِ غَمًّا إِذَا غَرَبَتْ ذُكَاةُ أَتَى الظَّلَامُ

وبقوله أيضاً :

لَهَا رَدْفٌ تَعَلَّقَ فِي لَطِيفٍ وَذَاكَ الرَّدْفُ لِي وَلَهَا ظُلُومُ
يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيَتَعَبُّهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ



تلك أيها القارئ نفحة من الأدب الأندلسي ، رأينا أن نمهدها لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان ، وإنا لنترجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب ، وتبصرة لعشاق البيان ، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة ، وما ابتدعوه من الصور الطريفة ، مع حرصهم على أن يمثل الشعر أغراض الحياة ، وأطماع العقول ، وألوان النفوس ، وأهواء القلوب .

والقلب يرغب أن يصير - اعدا
حتى إذا هام الكرى بجفونه
عزم الغرام على في تقيله
وأبي عفاي أن أقبل نغره
فأعجب للتهب الجوانح غلة
ليفوز بالآمال من ضماته
وامتد في عضدي طوع سناته
فنتيت أيدي الطوع عن عزماته
والقلب مطوى على جراته
يشكو الظما والماء في لهواته

البحث السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلی المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء ، وكان بصُّعُ الأندلس كالتنبي بصُّعُ الشام ، كما قال صاحب اليتيمة ، وكان له ديوان شعر في جزأين ، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان ، وكان يجيد النثر ، كما نص صاحب الذخيرة ، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب ، فقد ضاع ديوان شعره^(١) ، وضاعت رسائله البليغة ، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الإبانة عن منزلته في عالم البيان .

ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه ، ثم ننتقل إلى وصف نثره وشعره ، بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال .

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلی في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها ، وآخر حامل لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأُسوة كتّابها وشعرائها به بُدِئَ ذكر الجليل وخُتِمَ ، حلَّ اسمه من الأمانى محل الأُنس ، وأحد من تضاءلت الأولُ عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق خطر ذكره ، وقد أجرى الشعالي طرفاً من أمره ، وأغرب بلُمع من شعره ، ثم قال « وإنما ذكرتُه هنا وإن

(١) سيري الفارسي في هامش مقبل أن الديوان لم يضع .

كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمّامه ، حتى أخرجته المحن ، وسالت به تلك الفتى .

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض ، وهذا يرجع إلى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مئى بالمسخ والتحريف ، ولا يزال إلى الآن مخطوطاً يجده الباحث في دار الكتب المصرية ، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع ، والسجع قيّد يضطر الكاتب إلى التعثر ، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب .

وقال أبو حيان : « أبو عمر القسطلی سابق حلبة الشعراء العاصرين وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طوّحت بهم تلك الفتنة الشنعاء ، واضطرتّه إلى النجعة ، فاستقرى ملوك الأندلس أجمعين ، يهزّ كلاً بمدحه ، ويستعينه على نكبتة ، وليس منهم من يصنى له ، أو يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله ، وهو يخطبهم بمقوله^(١) فيصمّون عنه ، إلى أن أناخ بساحة المندر بن يحيى أمير سرقسطة ، فألقى عصا سيره عند ما بواه ، ورحب به وأوسع قراه ، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده . »

وقال ابن فضل الله ، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبانواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على من تقدم ، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر ، وجزم بأن الرجال معادن ، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح ، وأن الأفكار مصايح لا تطفأ ، وأن

(١) المقول : اللسان .

الأفهام مرأى لا تتناهى صوورها ، وأن العقول سحائب لا ينفذ مطرها ،
وعلم أن المعاني غير متناهية ، والفضائل غير متوارية ، وأن أم الليلى ولود ،
وأن الفضل فى كل حين مشهود ، وأن هذا الشاعر فى قصيدته هذه التى
عارض بها أبا نواس ، لم يدع له عارضا يستمطر ، ولا عارضا تدكر . وإنه
لحقيق أن ينشد :

وَإِنِّ وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَأَتِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ

وكذلك كانوا يرون فى ابن دراج شاعراً مفلقاً يخل بمثله الزمان ، ولكن
عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق
ما حكم به المتقدمون .

شئ من نثره

يغلب السجع فى نثر ابن دراج ، ويجد فيه القارىء شيئاً من مستملح
التشبيه ، ولذا ذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

« حاش لله أن استشف المسيل قبل جُؤمِهِ ، وأستكره الدَّرَّ قبل
خُفُولِهِ ، أو أتعامى عن سراج المَعْدَرَةِ ، وأغفل عن الأدب الباهر فى نظَرَةِ إِلَى
ميسرة ... ولكن

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بَدَى مَرِّحٍ مُّهِرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ
مَا أَوْضَحَ الْعُذْرَ لِي لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِي لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
اَلْكِبَرُ صَعُرُوا عَنْ أَرْمَةِ كِبَرَتِ فَمَا اعْتَذَارِي عَمَّنْ عَذَرُهُ الصَّغَرُ
وقد قلبت لهم ظهر محن الأمور ، وميزت بين الميسور والمعسور ، فما وجدت

أحسن بدءاً ، ولا أحمد عوداً ، مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضه ، وسخر لهم بحره وبره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث تنقلب في كرمك ، وأين نأمن في حرملك ، وحيث توحشنا دعوتك ، ولا تعدمنا نعمتك ، فمن ملكك إلى ملكك ، ومن يمينك إلى شمالك .

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب ، وإن كنت أرتاب في نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف .

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد ، فليرض القارئ بما نختاره من تلك القصائد التي أثبتتها صاحب اليتيمة ، أحسن الله له الجزاء ، وإنا لنستجيد قوله في لوعة الشوق :

وَحَشِيَّةَ اللَّفْظِ هَلْ يُودَى قَتِيلُكُمْ دَمِي مُضَاعٌ وَجَانِي ذَاكَ عَيْنَاكَ
إِنِّي أَرَاكَ بِقَتْلِ النَّفْسِ حَازِقَةً قَوْلِي فَدَيْتُكَ مَنْ بِالْقَتْلِ أَوْصَاكَ
مَالِي وَلِلْبَرْقِ اسْتَسْقِيهِ مِنْ ظَمَأٍ هَيْهَاتَ لَا رِيَّ إِلَّا مِنْ ثَنَائِكَ
لَوْ لَا الضُّلُوعُ لَظَلَّ الْقَلْبُ نَحْوَكُمْ ضَعِيَ بِعَيْشِكَ فَوْقَ الْقَلْبِ يُمْنَاكَ
أَصْلَيْتَنِي لَوْعَةَ الْمَجْرَانِ ظَالِمَةً رُحْمَاكَ مِنْ لَوْعَةِ الْمَجْرَانِ رُحْمَاكَ

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط :

إِلَيْكَ شَحَنَّا الْفُلَّكَ تَهْوِي كَأَنَّهَا

وَقَدْ زُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غَرْبَانُ

عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّابَا تَرَامِي بِنَا فِيهَا ثَبِيرٌ وَشَلَانُ

وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا
يقلن وموج البحر والهمل والدجى
زفير إلى ذكر الأحبة حنان
تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهـ

سوى البحر قبر أو سوى الماء أ كفان
وهبنا رأينا معلم الأرض هل لنا
من الأرض مأوى أو من الإنس عرفان
هوت أمهم ماذا هوت رجالهم
إلى نازح الآفان سفن وأطعان
كواكب إلا أن أفلاك سيرها
زمام ورحل أو شراع وسكان
وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان ، وتوديع الأحباب :

وإن بلادًا أخرجتني لعاطل
سلام على الإخوان تسليم آيس
وسقيا لدهر كان لي فيه إخوان
فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة
ولكن قلوب فارتقهن أبدان
وما كان ذاك البين بين أحبة

وما أوجع ما يقول :

فيا عجباً للصبر منّا كأننا
مضى عيشهم بعدى وعيشى بعدهم
لهم غير من كنا وهم غير من كانوا
ومن مختار القصيد قوله :

لك الله بالنصر العزيز كفيل
هو الفتح أما يؤممه فمعجل
أجد مقام أم أجد رحيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزال
إليك وأما صنعه فجزيل
سيوف تثير الحق أنى اتضيتها
بين عمايات الضلال تزول
وخيل يحول النصر حيث تجول

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَزَاكَ مِنْ غَوَى
لَئِنْ صَدَدْتَ أَلْبَابُ قَوْمٍ بِمَكْرِهِمْ
وَإِنْ يَحْشَى فِيهِمْ مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا
وَجَرْدَاهُ لَمْ تَبْخُلْ يَدَاهَا بَغَايَةَ
لَهَا مِنْ خَوَافِي لِقَوَةِ الْجَوِّ أَرْبَعُ
وَيَبِضُّ تَرَكْنَ الشَّرْكَ فِي كُلِّ مُنْتَأَى
تَمُرُّ دِمَاءُ الْكُفْرِ فِي شَفَرَاتِهَا
وَأَسْمَرُ ظَمَانِ الْكُحُوبِ كَأَنَّمَا
إِذَا مَا هَوَى لِلطَّغْنِ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ
وَفِيهَا يَقُولُ :

كِتَابُ عَزِّ النَّصْرِ فِي جَنَابَاتِهَا
يَسِيرُ بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَائِدُ
إِذَا انْشَقَّ لَيْلُ الْحَرْبِ عَنْ صُبْحِ وَجْهِهِ
وَلَهُ قَصِيدَةُ عَيْنِيَّةٍ بَدِيعَةٌ نُوهِتَ بِهَا الذَّخِيرَةُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التَّحْرِيفِ ،
نُحْتَارُ مِنْهَا قَوْلُهُ :

فَمَا تَجَاوَزْتَ قَرْنَ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا
نَحِيتِي مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَقٌ
لَمْ أَخْلَعْ الدَّرْعَ إِلَّا حِينَ شَقَقَهُ
وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ
إِلَّا وَقَرْنُ رَخِيمٍ الدَّلَّ بَارِعُهُ
يَشْدُنِي غُلَّهُ فِيهِ وَجَامِعُهُ
عَنْ صَفْحِ صَدْرِي مَا تَحْوِي مَدَارِعُهُ
يُذِيبُ سَيْفِي وَفِي قَلْبِي مَوَاقِعُهُ

عُصْفُ تَجَرَّعَ أُنْدَاءُ الْغَمَامِ فَمَا
يَمِيسُ سُكْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ
فَبِتْ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ
وَالسَّحَرُ يُسَحِّرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِي
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورَ رَاحَتِهِ
كَأَنَّمَا ذَابَ فِيهَا وَرْدُ وَجَّتِهِ
جَنَى حَيَاةٍ دَنَتْ مِنِّي مَطَاعِمُهُ
قَدْ أَهْبَبُ الْمِسْكَ وَالْكَافُورَ خَازِنُهُ
فِيَا ظَلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمْتُ
وَيَا حَيْنَ ظُبَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدْتُ
يُطَوِّقُ الدَّهْرَ إِلَّا وَهُوَ جَارِعُهُ
وَتَارَةً وَأُنْثَاءُ الْوَشْيِ لَازِعُهُ
وَالشُّوقُ ثَالِثَنَا وَالْوَصْلُ رَابِعُهُ
وَالْمِسْكَ يَعْبَقُ مِنْ كَأْسٍ أَنْزَعُهُ
لَوْلَا الشَّهْيُ جَرَّتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
وَشَجَّهَا رِيْقُهُ الْمَعْسُورُ مَائِعُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ نَأَتْ عَنِّي مَطَامِعُهُ
وَارْخِصْ الْوَرْدَ وَالثُّفَاحَ بَائِعُهُ
بَدْرَ السَّمَاءِ وَفِي حِجْرِي مَضَاجِعُهُ
غَزَاهُنَّ وَفِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رأية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رأيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض بها رأيته أبي نواس في مدح الخصيب ، وقد صن الدهر علينا أيضاً بهذه القصيدة ، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك^(١) ، وقد راجعت كل ما وصلت إليه من تاريخ الأندلس ، وسألت كل من أعرف أنه شغل بتاريخ الأدب في تلك البلاد ، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة ، وإنما يبدءون بقوله :

(١) أصبحت القصيدة كلها تحت يدينا ، وعرفنا أن الديوان لم يضع ، فهو في مخطوطات خزانة المؤرخ الكبير النقيب مولاى عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكي في المغرب ، وقد تفضل السيد محمد ابن عباس الفجاء ، فأرسل إلينا الرائية كاملة ، فله منا أطيب الثناء .

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ يُبُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع ، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر
مقدمة لهذا الحوار^(١) .

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ يَتِيهَا خَفَّ مَرَكِي	عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرٍِ لِلْغَنَى مُتَطَلِّبُ	بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بِوَادِرُ	جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيهِنَّ عَيْرُ
دَعَيْنِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ	إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى	وَأَنَّ يُبُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضَمَنُ	لِرَاكِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ	لِتَقْبِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
ذَرِينِي أَرِدْ مَاءَ الْمَفَاوِزِ آجِنًا	إِلَى حَيْثُ مَاءِ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة ، وبذأبا نواس وَبَرَّهَ ، بقوله في توديع
زوجه ووليدته :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا	بَصَابِرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تَنَاشِدُنِي نَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى	وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَيِّي بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ وَلَحْظُهُ	بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ الْنَفُوسِ خَبِيرُ

(١) هذا هو المطلع :

دعى عزمات المستضام تسير
لعل بما أشجأك من لوعة النوى
وتنجد في عرض الفلا وتغور
يعزّ ذليل أو يفك أسير

تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعُ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
عَصِيَّتْ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لَتَدَّ أَبَ الشَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
لَيْنٌ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ
ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين ، إذ
لم يترك ببغداد زوجا ينازعه إليها الوفاء ، ولا طفلاً تعطفه إليه نوازع الشوق ،
ولواعج الحنين .

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت :
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْعُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
وكلمة « مبعوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول ، وقوله :
عَيْنِي بِمَرْجُوعِ الْخُطَابِ وَحَظُّهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ الثُّفُوسِ خَبِيرُ
بيت نادر المثال ، وقوله :

تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعُ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
من أرق ما صُوِّرَ به الحنان ، وما أوجع ما يقول :

عَصِيَّتْ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لَتَدَّ أَبَ الشَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
وانظر تصوير الحزم بقوله :

لَيْنٌ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ
وقول أبي نواس :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكَبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مُجِيرُ

مِنْ الْقَوْمِ بِسَامٍ كَانَ جَبِينَهُ سَنَا الْفَجْرِ يَسْرَى ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ

زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ فِي الْوَغَى

وَفِي السَّلَامِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرٌ

جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدَى كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى

وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيْرُ

لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ إِذَا اسْتَوْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورٌ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج :

تَلَاَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعُلَى وَبُدُورٌ

مِنْ الْحَمِيرَيْنِ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ سَحَابٌ تَهْمِي بِالنَّدَى وَبُجُورٌ

هُمُ صَدَقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُ وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورٌ

مَنَاقِبُ يَعْنِي الْوَصْفُ عَنْ كُنْهِ قَدْرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرٌ

أَلَا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ نَدَاكَ مُقْصَرٌ وَكُلُّ رَجَاءٍ فِي سِوَاكَ غُرُورٌ

ونحن حين تقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً في

أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله :

مَنَاقِبُ يَعْنِي الْوَصْفُ عَنْ كُنْهِ قَدْرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرٌ

فهو ظاهر العلو، واضح التكلف، أما قوله :

هُمُ صَدَقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُ وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورٌ

فهو يبت ضعيف .

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لا قيمة له ، أما ابن دراج

فقد أجاد الوصف حين قال :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَطِي
أَسْلَطُ حَرًّا أَهْجَرَاتِ إِذَا سَطَا
وَأَسْتَشِقُّ النَّسْكَاءَ وَهِيَ لَوَافِحُ
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلُونُ
وَلَوْ شَهِدْتَنِي وَالشَّرَى جُلُّ عَزَمَتِي
وَأَعْتَسِفُ الْمَوْتَاةَ فِي غَسَقِ الدُّجَى
أَمِيرُ عَلَى غَوْلِ التَّنَافِ مَالَهُ
وَقَدْ خَيَّلْتُ طُرُقَ الْمَجَرَّةِ أَنَّهَا
وَدَارَتْ نَجُومُ الْقُطْبِ حَتَّى كَانَهَا
لَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنَّ الْمُنَى طَوْعُ هَمَّتِي
وهذا شعرٌ جَزَلٌ رصين ، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة
الوصفية ضاع منها شيء كثير (١) .



وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال :

وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلْسَّلَامِ وَرُفِعَتْ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ دُونَهُ
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ ائْتَرَاذُهَا
وَكَيْفَ اسْتَوَى بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسُ
فَسَارُوا مِجَالًا وَالْقُلُوبُ خَوَافِقُ
عَنِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ الشَّرُوقِ سُبُورُ
صُوفٍ وَمِنْ بَيْضِ السُّيُوفِ سَطُورُ
وَآيَاتِ صُنْعِ اللَّهِ كَيْفَ تُنِيرُ
وَقَامَ بَعْبُ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَأَذْنُوا بِطَاءِ وَالنَّوَاطِرُ صُورُ

(١) أشرت من قبل الى أن هذه القصيدة صارت كلها تحت يدي بفضل صديقنا القباح .

يَقُولُونَ وَالْإِجْلَالَ يُخْرِسُ السُّنَا وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمْ وَصُدُورُ
لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الْهَدَى بِكَ حَائِطٌ وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحترى في هيبة اللقاء :

وَلَمَّا قَضَوْا صَدَرَ السَّلَامِ تَهَافَتُوا عَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيَّتُهُ الْبَذَلُ
إِذَا شَرَعُوا فِي خُطْبَةٍ قَطَعَتْهُمْ جَلَالَةُ طَلْقِ الْوَجْهِ جَانِبُهُ سَهْلُ
إِذَا نَكَسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ وَمَالُوا يَلْحَظُ خِلَتَ أَنَّهُمْ قَبْلُ
نَصَبَتْ لَهُمْ طَرَفًا حَدِيدًا وَمَنْطِقًا سَدِيدًا وَرَأْيًا مِثْلَ مَا انْتَضَى النَّصْلُ
فَمَا بَرَّشُوا حَتَّى تَعَاظَتْ أَكْفُهُمْ قِرَالُ وَلَا ضَعْفُ لَدَيْهِمْ وَلَا دَخْلُ
بِكَ التَّأَمُّ الشَّعْبُ الَّذِي كَانَ يَنْتَهَمُ عَلَى حِينِ بَعْدٍ مِنْهُ وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وأيات البحترى في هيبة اللقاء انتهبها كثير من الشعراء . وأذكر أن فقيده
الشباب عبد الحليم المصرى قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار
سنة ١٩٢٠ فى مدح الملك فؤاد فوجهت نظره إلى ما أنتهب من معانى البحترى
فغضب ، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبس :



البحث الثامن والعشرون

بين صبرى ومطران

- ١ -

نوازن في هذا البحث بين نويتين من شعر إسماعيل صبرى و خليل مطران ونرى من الخير أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبرى وأشعاره ، ونبدأ فنذكر أنه ولد في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ ، وكان من رجال القانون ، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية .

كان صبرى شاعراً مجيداً ، ولكنه لم يكن من المكثرين ، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية ، واتفق له أن يغذى الغناء حيناً من الزمان ، وهو صاحب الموال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات :

الْفَجْرُ أَهْوَلُ لَاحٍ قُومُوا يَا تُجَارَ النُّومِ
عَجَبُ تَنَامُوا وَعَيْنِي مَا تَشُوفُ النُّومِ
نَزَلْتُ بِحَرِّ الْمَحَبَّةِ أَحْسِبُ أَنَّهُ عَوْمُ
غَرِقْتُ قَالُوا جَمِيعِ النَّاسِ تَسْتَاهِلُ
عَشِقَ الْجَمَالَ غَنَدَرَهُ الْيَوْمُ وَغَيْرَ الْيَوْمِ

وهو صاحب هذا الدور :

قَدَّكَ أَمِيرُ الْأَغْصَانِ مِنْ غَيْرِ مُكَابِرِ

وَوَرَدَ خَدَّكَ سُلْطَانٌ عَلَى الْأَزَاهِرِ
دَا الْحُبُّ كُلُّهُ أَشْجَانٌ يَا قَلْبُ حَاذِرُ
وَالصَّدِّ وَيَا الْهَجْرَانُ جَزَا الْمُخَاطِرُ

دور

يَا قَلْبُ أَدِنْتَ حَبِيبَتِ وَرَجَعْتَ تَتَدَمَّ
وَصَبَحْتَ تَشْكِي مَا رَأَيْتَ لَكَ حَادَّ يَرْحَمُ
صَدَّقْتَ قَوْلِي وَرَأَيْتَ ذُلَّ الْمُتَيْمِّ
يَلَمَّا نَصَحْتِكَ وَنَهَيْتَ لَوْ كُنْتَ تَقْهَمُ

دور

أَعْرِضْ لِحُسْنِكَ أَوْ رَاقٍ وَاكْتُبْ وَدَوِّنْ
وَأَبَاتْ صَرِيعَ الْأَشْوَاقِ وَاكْتُبْ وَخَمِّنْ
دَا هَجَرَ وَصَبَابَةَ وَفِرَاقٍ يَارَبُّ هَوِّنْ
وَأَرْحَمِ قُلُوبَ الْعُشَّاقِ دَا شَيْءٌ يَحْنَنَّ

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر المملحون ، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء ، وقد ظلت هذه الأدوار على السنة الجماهير المصرية زمناً غير قليل ، وهي محفوظة في ألواح^(١) .

ومضى صبرى يفتنُّ افتناناً شائقاً في مغازلة الصباحة ، وهو صاحب القصيدة الماثورة « ثمال جمال » وفيها تظهر براعته في مناغة الحسناء :

يَا لَوَاءَ الْحُسْنِ أَحْزَابُ الْهَوَى أَيْقَظُوا الْفِتْنَةَ فِي ظِلِّ اللَّوَاءِ

(١) نريد بالألواح : أسطوانات الغناء .

فَرَقَتْهُمْ فِي الْهَوَى ثَارَاتُهُمْ
 إِنَّ هَذَا الْحُسْنَ كَلَمَاءَ الَّذِي
 لَا تَدُودِي بَعْضَنَا عَنْ وَرْدِهِ
 أَنْتِ يَمُّ الْحُسْنِ فِيهِ أُرْدَمَتْ
 يَقْدِفُ الشَّوْقُ بِهَا فِي مَائِجٍ
 شِدَّةُ تَقْضَى وَتَأْتِي شِدَّةُ
 سَاعِي أَمَالٍ أَنْضَاءَ الْهَوَى
 وَتَجَلَّى وَاجْعَلِي قَوْمَ الْهَوَى

تَحْتَ عَرْشِ الشَّمْسِ بِالْحُكْمِ سَوَاءُ
 أَقْبَلِي نَسْتَقْبِلِ الدُّنْيَا وَمَا
 وَاسْفِرِي تِلْكَ حُلَى مَا خُلِقَتْ
 لِتَوَارِي بِلِشَامٍ أَوْ خِبَاءُ
 أَنْ رَوْضًا رَاحَ فِي النَّادِي وَجَاءُ
 نَائِرُ الدُّرِّ عَلَيْنَا مَا نَشَاءُ
 يَمْلَأُ الدُّنْيَا ابْتِدَاءً وَأَزْدِهَاءُ
 تَعُثُّ الصَّبُوءُ فِيهَا بِالْحَيَاءِ
 وَأُرْتَضَى آدَابًا صِدْقُ الْوَلَاءِ
 مَلَكٍ مَا كَدَّرَتْ ذَاكَ الصَّفَاءُ
 أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ مِنْ طِينٍ وَمَاءِ
 لِمَلَا تَكُونُ سُكَّانِ السَّمَاءِ
 خَلْفَ تِمْثَالٍ مَصُوعٍ مِنْ ضِيَاءِ

وهو أيضاً صاحب الأبيات الحسان :

أَبْشُكِ مَا بِي فَإِنْ تَرَحَّمِي رَحِمْتَ أَخَا لَوْعَةٍ مَاتَ صَبَاً
وَأَشْكُو النَّوَى مَا أَمَرَ النَّوَى عَلَى هَائِمٍ إِنْ دَعَا الشَّوْقُ لَبِي
وَأَخْشَى عَلَيْكَ هُبُوبَ النَّسِيمِ وَإِنْ هُوَ مِنْ جَانِبِ الرَّوْضِ هَبَاً
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ بُرْهَةٍ مِنْ الْعُمُرِ لَمْ تَلْقَنِ فِيكَ صَبَاً
تَعَالَى نُجْدَدُ زَمَانَ الْهِنَاءِ وَنَهَبَ لِيَالِيَهُ الْغُرَّ نَهَبَاً
تَعَالَى أَذِقْ بِكَ طَعْمَ السَّلَامِ وَحَسْبِي وَحَسْبُكَ مَا كَانَ حَرْبَاً

وهو الذي يقول :

تُمْسِي تَدْكُرُنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ حَسَنَاءَ مُرْهَفَةِ الْقَوَامِ فَنَذْكُرُ
تَتَبُّ الْقُلُوبُ إِلَى الرُّؤُوسِ إِذَا بَدَتْ وَتُطِلُّ مِنْ حَدَقِ الْعُيُونِ وَتَنْظُرُ

وهذا من وثبات الخيال .

وريحانة هذا العصر أم كلثوم تغني من شعره هذه الأبيات :

أَقْصِرْ فُؤَادِي فَمَا لَدَّ كَرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا الْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرَتْهُ زَمَنًا حَمَلِ الصَّبَابَةَ فَاخْفُقْ وَحَدِّكَ الْآنَا
هَلَّا أَخَذْتَ لِهَذَا الْيَوْمِ أَهْبَتَهُ

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْبَانَا

لهنِّي عَلَيْكَ قَضَيْتَ الْعُمُرَ مُقْتَحِمًا فِي الْوَصْلِ نَارًا وَفِي الْهِجْرَانِ نِيرَانَا
وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء ، وكانت له سهرات تفيض
بالنير العذب من الأدب الرفيع ، وفي أواخر أيامه أمضه المرض ، فكانت
زيارة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء ، وصفه الأستاذ أنطون الجميل

فقال : « كان في عزله يتطلع الى أخبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح الى أخبار القتال » (١).

وألمهته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصور آلام اليائس المحزون :

كَمْ سَاعَةٍ آلَمَنِي مَسْهَا	وَأَزَعَجَتْنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةَ
فَقَسَّتُ فِيهَا جَاهِدًا لَمْ أَجِدْ	هُنَيْهَةً وَاحِدَةً صَافِيَةً
وَكَمْ سَقَتْنِي الْمَرْءُ أُخْتُ لَهَا	فَرَحْتُ أَشْكُوهَا إِلَى الثَّالِيَةِ
فَأَسْأَمَتْنِي هَذِهِ عَنُودٌ	لِسَاعَةٍ أُخْرَى وَبَنِي مَائِيَةِ
وَيَحْكُ يَامَسْكِينُ هَلْ تَشْتَكِي	جَارِحَةَ الظُّفْرِ إِلَى ضَارِيَةِ
حَازِرٍ مِنَ السَّاعَاتِ وَيَلُ لِمَنْ	يَأْمَنُ تِلْكَ الْفِتَّةَ الطَّاعِيَةَ
وَإِنْ تَجِدْ مِنْ يَبْنِهَا سَاعَةً	جَعَبْتُهَا مِنْ غُصَصٍ خَالِيَةِ
فَالَهُ بِهَا لَهْوُ الْحَكِيمِ الَّذِي	لَمْ يَنْسِهِ حَاضِرُهُ مَاضِيَةِ
وَأَمْرُخَ كَمَا يَمْرُخُ ذُو نَشْوَةٍ	فِي قُلَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا الْهََاوِيَةِ
فَهِيَ وَإِنْ بَشَّتْ وَإِنْ دَاعَبَتْ	مُحْتَالَةً خَتَالَةً عَادِيَةَ
عِنَافُهَا خَنْقٌ وَتَقْبِيلُهَا	كَمَا تَعَضُّ الْحَيَّةُ الْبَاغِيَةَ
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَقُلْ لِلَّذِي	تَجْرَحُهُ السَّاعَةُ وَالثَّانِيَةِ
يَاشَا كِي السَّاعَاتِ اسْمَعْ عَنِي	تُنْجِيكَ مِنْهَا السَّاعَةُ الْقَاصِيَةُ

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس ، يدل على ذلك قصيدة (الفرع الأكبر) إذ يقول :

(١) هذا معنى العبارة التي سمعناها من خطبة أنطون الجليل ، وقد ضاق الوقت عن مراجعة الأصل وأخشى أن أكون لونت العبارة بعض التلوين .

غَاضَ مَاءَ الْحَيَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فَعَدَا كَالْحِجَابِ الْجَوَانِبِ قَفْرًا
وَتَقَشَّى الْعُقُوقُ فِي النَّاسِ حَتَّى كَادَ رَدُّ السَّلَامِ يُحْسِبُ بَرًّا
أَوْجُهُ مِثْلَمَا نَثَرَتْ عَلَى الْأَجْدَا ثِ وَرَدًّا إِنْ هُنَّ أَبْدَيْنَ بَشْرًا
وَشِفَاءَهُ يَقْلُنَ أَهْلًا وَلَوْ أَدْبَيْنَ مَا فِي الْحِشَا لَمَّا قُلْنَ خَيْرًا
عَمَرَكَ اللَّهُ هَلْ سَلَامٌ وَدَادِ ذَاكَ أَمْ حَاوَلَ الْمُسْلِمُ أَمْرًا
وفي هذه القصيدة يقول :

تَعِبَ الْفَيْلَسُوفُ فِي النَّاسِ عَصْرًا وَتَوَلَّى السَّرَّارُ الدِّينَ عَصْرًا
وَالْوَرَى طَارِدٌ إِزَاءَ طَرِيدٍ وَعُقَابٌ يُغْسِي يُطَارِدُ صَقْرًا
وَجَبِيشٌ يَقْلُ مِنْ بَعْضِهَا الْبَغْضُ وَهَضْبٌ كَبُرَى تُنَاطِحُ صُغْرَى
حَازِرِي يَازِئَابُ صَوْلَةَ أُسْدٍ مِنْكَ أَقْوَى نَابًا وَأَنْفَذَ ظُفْرًا
لَا تَنَاجَى يَا أُسْدُ إِنْ ذُنَابًا لَمْ تَنَمْ مِنْ رَوَابِضِ الْغِيلِ أَضْرَى
عَبْرُ كُلِّهَا اللَّيَالِي وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْتَحُ الْكِتَابَ وَيَقْرَأُ
وما أحب أن يفوتني إثبات هذه الآيات :

يَاسْرَحَةَ بِجَوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةً سَقَاكَ دَمْعِي إِنْ لَمْ يُوْفِ سَاقِيكَ
عَارٌ عَلَيْكَ وَهَذَا الظِّلُّ مُنْتَشِرٌ فَتَكَ الْهَجِيرِ يَمْشِي فِي نَوَاحِيكَ
فَمَنْ مُعِيرِي جَنَاحِي طَائِرٍ غَرْدٍ كَيْ أَقْطَعَ الْعُمْرَ شَدْوًا فِي أَعَالِيكَ
فَلَا أَنْفَرُ عَنْ أَرْضِ غُرْسَتِ بِهَا وَلَا يَرُنُّ بِسَمْعِي غَيْرُ وَادِيكَ
وانما أكثرنا من الشواهد لأن شعر صبرى لم يجمع في ديوان فأحبنا أن
يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب ، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا
شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون ، وكان صبرى نفسه قليل الاهتمام
بتدوين شعره ، وكان يسأل عن ذلك ، فيجيب : وهبته للفناء !

أما مطران فهو شاعر مبدع ، وهو من المكثرين ، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول ، وشعره مدونٌ نشرت منه المجموعة الأولى باسم - ديوان الخليل - وينتظر أن يُجمع شعره كله في عدة أجزاء ، وقد عرفنا مطران وصحبناه ، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء ، وله في النثر أسلوب مضمخ بالنفحات الشعرية ، وهو رجل خصب الذهن ، مثقف العقل ، مرهف الإحساس . ومن خصائص مطران التلطف والترفق ، فليس له في مصر عدو واحد ، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان ، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين ، فلما مات شوقي سموه شاعر الأقطار العربية ، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب .

وقد تولى رئاسة جمعية أبو لؤلؤ في مصر بعد شوقي ، وهي جمعية شعرية أثرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث ، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور إبراهيم ناجي ، وهما من أكثر الناس تغنيًا بالشعر بين أدباء هذا الجيل .

نونية صبرى

فرعون وقومه :

لَا الْقَوْمُ قَوِي وَلَا الْأَعْوَانُ أَعْوَانِي إِذَا وَنَى يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعَلَا وَإِنِي
وَلَسْتُ إِنْ لَمْ تُؤَيِّدْنِي فَرَاعِنَةً مِنْكُمْ بِفِرْعَوْنَ عَلَى الْعَرْشِ وَالشَّانِ

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا
رُدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
وَأَبْنُوا كَمَا بَنَتِ الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمْ
— أَمْرُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
فَالْمَلِكُ أَمْرُ وَطَاعَاتُ تَسَابِقُهُ
— لَا تَتَرَكُوا مُسْتَحِيلًا فِي أَسْتَحَالَتِهِ
فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكِسْلَانِ
أَوْ فَاطْلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظْمَانِ
لَا تَتَرَكُوا بَعْدَكُمْ نَفْرًا لِإِنْسَانِ
لَا يَتَنُ مُسْتَبْعًا عَنْ طَاعَةٍ ثَانِي
جَنِبًا جَنِبِ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانِ
حَتَّى يُمِيطَ لَكُمْ عَنْ وَجْهِهِ إِمْكَانِ



مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُعْرٍ وَدَانِ لَهَا
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأِ
— لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا
وَأَزْرَتْهُ جَاهُ يَرْ تَسِيلُ بِهَا
— يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَارَةً
مِنْ كُلِّ مَالٍ يَلِدُ فِكْرُهُ وَلَا فُتِحَتْ
وَيُسْهِوْنَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلِ
— بَرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَاخَوْفًا وَلَا طَمَعًا
عَلَى مَنَاكِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانِ
مَا فِي الْمُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَانِ
فِي غَيْرِ مِصْرَ لَعَدَّتْ حُلْمَ يَقْظَانِ
لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
بَطَاحُ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانِ
أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانِ
عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكَوْنِ عَيْنَانِ
جَنًّا تَطِيرُ بِأَمْرِ مِنْ سُلَيْمَانِ
لَكِنَّهُمْ خَلَقُوا طَلَابَ إِتْقَانِ



أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ ، حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا
قَدْ مَرَّ دَهْرُهُ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاخِرَةٌ
مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانِ
بِمَا يُضَعِّعُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانِ

لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالتَّهَارُ سِوَى
كَأَنَّهَا - وَالْعَوَادِي فِي جَوَائِبِهَا
جَاءَتْ إِلَيْهَا وَوُودُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً
فَصَغَّرَتْ كُلَّ مَوْجُودٍ صَخَامَتُهَا
وَعَادَ مُنْكَرُ فَضْلِ الْقَوْمِ مُعْتَرِفًا
تِلْكَ الْهَيَا كُلُّ فِي الْأَمْصَارِ شَاهِدَةٌ
وَأَنَّ فِرْعَوْنَ فِي حَوْلٍ وَمَقْدِرَةٍ
إِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ شَاهِدًا حَجَرُهُ
كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي أَثْنَائِهَا صُورٌ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ

أَيْنَ الْأَلَى سَجَّوُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرًّا مُخْلَدَةً
وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مُجْدِهِمْ وَسَطًا
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهْلَتِهِ

وَصَغَّرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ
وَأَدْرَجُوا طَيِّ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانٍ
فِي الْكَوْنِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانٍ
عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
جَلَالُ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانٍ
إِذَا هُمَا وَزَنَا يَوْمًا بِمِيزَانٍ

نونية مطران

قال ، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر :

أَكْبَرُ بِرَمْسِيْسٍ مَيِّتًا لَا يَلِيْمُ بِهِ
لَوْلَا تَمَاتِيْلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةٌ
فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِيْنُ فَمَا بَلَغُوا
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ
تَخْيِرَ الْخَطَّةِ الْمُثْلَى لَهُ وَلَهَا
مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ يَنْهَمُو
وَرَبَّ سَاءَمَةٍ بَلْهَاءِ هَاءَةٍ
يَسُوْمُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَهَا
مُخَلَّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرَفْعَتِهِ
مُحَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلُّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ
كَمْ رَاحَ جَمْعُ فِدَى فَرْدُوْكُمْ بُذِلَتْ

مَوْتُ وَأَكْبَرُ بِهِ حَيًّا إِلَى الْآنِ
مَا جَالَ فِي ظَنِّ قَاتٍ أَنَّهُ قَانِي
بِهَا مَبَالِغُهُ مِنْ رَفْعَةِ الشَّانِ
مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمُرَانِ
يَعْلُو فَتَعْلُو بِهِ وَالْخَفْضُ لِلشَّانِي ^(١)
إِلَهَ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُهَّانِ
تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ
لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانِ
يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرَمَرِ الْقَانِي
مِنْ شُوسٍ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانِ ^(٢)
مِنْ مَهْدٍ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
وَلَمْ يَوْئُبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحِرْمَانِ
فِي مُشْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبْدَانِ

(١) الشَّانِي : هو المبعوض ، وفي القرآن « إِنْ شَاثَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .

(٢) الشُوس : جمع أشوس ، وهو التكبر .



كَلَّا وَعِزَّتِهِ فِيمَا طَغَى وَبَغَى
 هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ
 وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا
 فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
 وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ أَسْمِهِ دُفِنَتْ
 لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ
 النَّارُ أَسْوَعُ وَرَدًا فِي جَبَالٍ عَلَا
 أَكْرَمَ بَدَى طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ
 يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَسْقُلُهُمْ
 بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ
 فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
 كَمْ فِي سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ

فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
 لَمْ تَرَقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرُ كَمَا رَقِيتَ
 لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُتَمَتِّعٍ
 فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أُمُصَارٍ وَبُلْدَانِ
 الْآتَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا
 بِسَابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانِ
 وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيْسُ مُقَدَّمُهُمْ
 بِأَوْجِهِ بِأَدِيَاتِ الْبَشْرِ غُرَّانِ
 إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغُلْمَانِ

البحث التاسع والعشرون

الموازنة بين القصيدتين

وإني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة ، أو مرات ، قبل أن ينظر فيما نكتب ، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغراوات ، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر ، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين الشورتين من سُور الشعر الرفيع ، وفي الشعر قرآن وإنجيل .

— تفرد صبرى بالحديث عن وصية فرعون ، أو ما سماه مقالة فرعون ، ويألفها من مقالة تصدع الصخر وتنبت الحماسة في صدور الأموات ، وقد مثل الرجل هول المجد ، وعظمة النيل ، حين قال :

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلَانِ
رُدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ أَوْ فَاطِلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمْآنِ

وبذلك دللنا صبرى على أن المجد في مصر لا يباح لأهل الكسل والخمود ، ولكن أى مجد ؟ إن صبرى لم يكن يتمثل المجد المزيف الذى يرتدى أثوابه الوارثون ، لم يكن صبرى يرى المجد فيما يتمتع به العَجَزَةُ الضَّعَافُ الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آبائهم وأمهاتهم من المال الموروث ، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يدوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين ، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبرى ، وبأمثالهم تردهر الدنيا

في المشرق والمغرب، ومن جهودهم تذيق العلوم والآداب والفنون، أما الهائنون
الناعمون الذين يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود
فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، ولو تركت أرض مصر لأوائك الذين
لا يعرفون غير ألوان الطعام. وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد،
ولا تذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجد الساهر
والعمل الموصول.

أنظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون،
واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس: أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان
مما سكب سواك؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك: أساقته إليك يدك الصنّاع
أم كنت ضيفاً على مائدة غيره؟ وأنظر في ثيابك: أكانت خيوطها من خيوط
الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطاً مصنوعة من
الرجس الذي اقترفته بالتزلف والتلق والنفاق؟

قد تقول: إن صبرى لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يدريك؟ إن
وصية فرعون تحتل كل ذلك، وشريعة الحياة نفسها تفرض على الرجل أن
يكون له وجود ذاتي تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد،
وسبيل المعاش.

ثم ماذا؟ ثم بين صبرى أساس السياسة: سياسة الملك والعمران، حين
قال على لسان فرعون:

أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
فَالْمَلِكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَاقُ
لَا يَتَّبِعُ مُسْتَمِعًا عَنْ طَاعَةٍ ثَانِي
جَنِبًا جَنِبًا إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانٍ

اسمعوا هذا : « الملك أمر وطاعات » وهل كان الملك غير ذلك ؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العيناء ، ولا أقول العمياء .
 إن الأمر الرشيد هو صورة العقل ، والطاعة العيناء هي صورة التنفيذ ، والملوك الموفقون طاعتهم رُشدٌ وعصيانهم ضلال ، وكان فرعون ربًّا ، وكانت رعيته عبيدًا ، كان ربا حكيماً ، وكانوا عبيدًا مخلصين ، وقد رأيتم ما صنعت الحكمة ، وما صنع الإخلاص .

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عيناء ، ولم أجعلها عمياء ، أتعرفون لماذا ؟ لأن الشاعر نفسه جعل المصريين أبطالا شجعانًا يُقدِّمون في طاعتهم إقدام الأبرار ، حين قال :

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا	عَلَى مَنَاكِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانٍ
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُغْرِ وَدَانِ لَهَا	مَا فِي الْمُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَانٍ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ	فِي غَيْرِ مِصْرَ لَعُدَّتْ حُلُمَ يَقْظَانٍ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا	لَبَتَّ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
وَأَزَرَتْهُ جَمَاهِيرُ تَسِيلُ بِهَا	بِطَاحٍ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانٍ
يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً	أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانٍ
مِنْ كُلِّ مَالَمٍ يَلِدُ فِكْرُهُ وَلَا فُشِحَتْ	عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكَوْنِ عَيْنَانِ
وَيُشْبِهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ	جَنًّا تَطِيرُ بِأَمْرِ مِنْ سُلَيْمَانٍ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا	لَكِنَّهُمْ خَلِقُوا طُلَّابَ إِتْقَانٍ

وهذه القطعة تصور انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون : فهو ربٌّ يأمر بالرشد ، وهم عباد مخلصونه « لا يطيعون خوفًا ولا طمعًا ، وإنما يقبلون على

المجد لأنهم حُلِقُوا طُلَّابٌ إِتْقَانٌ » وفي هذا المعنى سر عظيم ، فالمجد لا ينهض به الملوك وحدهم ، وإنما المجد صنعة الأبرار بين الشعوب ، والمَلِكُ نفسه من روح شعبه ، هي الجذوة التي تجد فيما تمس أصول الحب المكبوت ، ولو قام نَبِيٌّ بين الأموات وصرخ لما استجاب له مجيب ، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس خيرة كَمَنَ فيها البرُّ كما تكمن النار في الصخرة الصماء ، والمصريون لعهد الفراعين كانوا « طُلَّابٌ ، إِتْقَانٌ » وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون ، وكانت أيديهم مفطورة على المهارة ، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل ، وعزائمهم مقدودة من الصوان ، وكانت إرادة الملوك مظهراً من إراداتهم الذاتية ، فكان خضوعهم خضوع الأشراف لا خضوع العبيد . ومن ذا الذي يسمح له كرم الذوق ، وشرف العقل ، أن يحكم بأن قصر الكرنك لم يكن إلا مشيئة رجل فرد ! إن في خرائب ذلك القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين تولوا هندسته وبناءه كانوا مأخوذين بسُلطان غير سلطان الملك ، هو سلطان الفن وسلطان الجمال .

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعاً دون قصر الكرنك ، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر قرساي ، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في تصور الانسجام بين الجمال والجلال .

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخرين يُؤْمَرُونَ فيأتمرون ، وماذا قال مطران ! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال :

مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ يَنْتَهُمُو
وَرَبَّ سَائِمَةً بِلَهَاءِ هَائِمَةٍ
يَسُومُهَا كُلَّ خَسَفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَلَجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَهَا
مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرَفْعَتِهِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعُلَيَاءِ مُضْطَجِعًا
بِحَيْثُ آبَ وَكُلُّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ
فِي مُشْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبْدَانِ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين ، ولكن أين المنطق ؟

× إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس ، ويحكم بأنها كانت على شقاءها تهواه في السر والعلانية ، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين ، لا صبر العقلاء . ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية ، وهو ظالم ! كيف تهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضميم والذل ؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تختير كلمة غير الهوى ، كنت تستطيع أن تقول إنها كانت تخضع أو كانت تطيع ، فالخضوع قد يكون عن ضعف ، والطاعة قد تكون عن عجز ، أما الهوى فلن يكون إلا عن بيئة من نور القلوب .

إن مطران يصور الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس ، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل ، فكيف يصح أن تتصور أنها

كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود ، وهل يُعْبَدُ الظالمون ؟ كل شيء يُقبل إلا هذا ، فالظالم لا يُعْبَدُ إلا حين يتمثل فيه العابدون ملامح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق . . . إِنَّكَ لَشَاعِرٌ حين تقول :

فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَهَا وَقَبَلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرَمْرِ الْقَانِي
ولكن أين المنطق ؟ إن الفَراش يحترق ، وهو يغازل النور ، ولكنه يعشق
النور عشقا يُهَوِّنُ عليه قسوة الاحتراق ، فمن أين علمت أن رعية فرعون لم
تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت
عنك ، وقد جئت تغمره بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال ،
وللسنين رمالاً ، وفيها زوابع وأعاصير ، رمالاً من النسيان ، وزوابع
من العقوق .

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعوه وهم فافلون عما يصنعون ، لا بد
أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرقة في أنفس من تعبوا في نحته وتدوّقوا
في سبيل روعته طعم الضجر والعناء ، وللتعب طعم معسول في أذواق من
يعرفون ما يصنعون^(١) .

ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد ، واستبدّ بالخلود ، فلم
يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال .

رويدك أيها الشاعر ، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم
يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنَّةٌ طبيعية

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتخذ الأقصر قاعدة الملك ، ومع
ذلك وجدت تماثيله في جهات مختلفة من المدائن المصرية ، وهذا يدل على أنه كان محبوباً جداً
من الأهليين .

لم تنفرد بها مصر ، ولم تُقَصِّر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر
الجرء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشاخات في الأقطار الفرنسية
والانجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر أسماء بعض المهندسين ، ولكن انتظر
حتى يمر على تلك المعالم مامرّ على تمثال رمسيس ، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف
سنة ، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه ، فإن وجدت من يعرفه فعندى لك
نسخة مُذهَّبة من ديوان مطران !

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت ، وهو من وحى شيطانك الرحيم :
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعُلَمَاءِ مُضْطَجِعًا مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
فما هذا الدَّنَسُ في التصوير ؟ وما هذا الرَّجْسُ في التمثيل ؟

أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل
الاختلاس ؟ إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء ، وقد وصل المصريون في
عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهد من الغزاة الفاتحين ، وكانوا لعهد
أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون ، فلك أن تتصور إلى أى غاية من
غايات الفتوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق . وأنت نفسك تقول :

فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِيْنُ فَمَا بَلَغُوا بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءِ وَعُمُرَانِ
أتراه كان يحرث الأرض بيديه ؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد
ولا معين ؟ .

إن ماتم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية ، وهل تخلص الرعية
جَبَّارٍ مُسْتَبِدٍّ غَشُومٍ ؟ .

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين ، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح ، قوانين من أنس القلوب بالقلوب ، وقرب العقول من العقول ، ولا بد أن يكون رمسيس الثانى ظفر فى زمانه بقبس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع به وهو فرد أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد . فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف .

إن الذى يزور وادى الملوك فى الأقصر أو يزور وادى اللوار فى فرنسا يقول « كانت هنا أمة » قبل أن يقول « كان هنا ملك » ولكن قضت سنة الخلود أن يكون فى كل أرض جندي مجهول ، والجنود المجهولون ليسوا فى عرف المجد بنكرات ، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التى أقلته من مكان إلى مكان ، وكل نقش خلد يحمل اسم الفنان الذى تعب فيه ، وإن لم تشهد بذلك رسوم ، ولا حروف ، وسيأتى زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا ترى العيون ، وقد سبقنا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلاً فى خلود التماثيل .

من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية ، ولكن فى أى آذان ؟ فى آذان من يقرءون ولا يفقهون ، أما الأمة التى خلدت رمسيس فهى باقية فى ذمة الضم الخوالد من أحجار الكرنك ، على أيامه السلام . وما هذا الظلم الذى تقترف أيها الشاعر ، وأنت تتمثل ذلك الفرعون وهو فى مضجع الداعرين ؟

أنت تقول إنه سخر الشعب ، وهل تعرف كيف تسخر الشعوب ؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية) وهم جماعة من الممثلين يمدون على

أصابع اليدين ، وإن زادوا فهم يُعَدُّون على أصابع اليدين والرجلين ، فكيف تنتظر أن يُسَخَّرَ رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصارييف الحرب ، وإلى تكاليف السلم ؟ أيفعل ذلك وهو يَتَمَطَّى وَيَتَثَاءَبُ تحت أشجار الجُمُيز ؟ أم يفعل ذلك وهو عقلٌ يُفَكِّرُ ، ورأى يُدَبِّرُ ، ولسانٌ يُبَيِّنُ ؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته ، وفيه خمسة أنفس ، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ ، فمن عسى أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعَدُّ بالملايين ، ولكل قلب شهوات ، ولكل رأس نزوات ، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقود ! إن الملك الذي يجمع طوائف شعبه على رأى واحد هُوَ رَجُلٌ سَخَّارٌ خُلِقَتْ إرادته من كل قلب ، فسيطر على كل نفس ، ووضع على عصره يداً من حديد ، وكذلك كان رمسيس الذي غَمَزَتْهُ في شِعْرِكَ غَمَزَةٌ لَا رَفَقَ فِيهَا وَلَا إِشْفَاق .

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين ؟ لقد فكرتُ في ذلك طويلاً ، ثم بدا لى أن أرجع إلى الظرف الذى نظم فيه هذه القصيدة العصماء ، فوجدت الدكتور محمد صبرى يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة ، ثم أرسل إلى الأستاذ محمد مسعود أياًتاً لينشرها بالمؤيد ، وأيات مطران هى أصل ما فى النونية ، وفيها يقول عن فرعون :

شَاهَ فَأَعْلَى وَبَنَى فَوَطَّدَا لَا لِلْعَلَا وَلَا لَهُ بَلْ لِلْعِدَا

مُسْتَعْبِدًا أُمَّتَهُ فِي يَوْمِهِ مُسْتَعْبِدًا بَنِيهِ لِلْعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام :

إِنِّي أَرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَاهُنَا خَلَاءَتْكَ تَكْثُرُ أَنْ تُعَدَّادَا
مُجْتَمِعِينَ أَجْرًا مُنْفَرِعِينَ أَنْهَرًا مُنْحَدِرِينَ صَعْدًا
صَفَرَ الْوُجُوهِ نَادِيًا جِبَاهُهُمْ كَالْكَلِّ الْيَابِسِ يَعْْلُوهُ النَّدَى
أَكُلْ هَذِي الْأَنْفُسَ الْهَلَكِي غَدًا

تَبْنِي لِفَانٍ جَدًّا مُحَلَّدًا

وهذا من الشعر الحق ، والشاعر يتمثل نفسه واقفًا ينظر العمال وهم يبنون
الأهرام ، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حَدَا إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي عَلَى
نظم نونيته الشَّاء .

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة ؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود
تليفونيا ، وسألته متى نشر دالية مطران ، فأجاب بأنه لا يذكر بالضبط ،
وإنما يعرف أنه ترك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦ .

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمز الفراعين منذ ثلاثين
سنة أو تزيد .

قد يسأل القارئ : وما خطر ذلك في هذه القضية ؟

ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة تغلي غيظًا وحقدًا على
السلطان عبد الحميد ، وكان الناس في أكثر البلاد يرون في صورة عبد الحميد
وجه الجبار السفاح ، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم
وشعراءهم وكتباءهم ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى
بعضهم بالشنق ، الآن عرفنا من كان يعنى مطران وهو يحارب رمسيس ، إنه

كان يحارب عبد الحميد وإن لم يخطر له ذلك على بال ، ومهمة النقد الأدبي هي إمطة اللثام عن المُقَنَّع من ضمائر الرجال .

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران ، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته ، لأن مصر في ذلك الحين كانت ترى عبد الحميد خليفة المسلمين ، ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف ، على حين يجار الخطباء فوق المنابر بالدعاء له ، ويتنسم الجمهور أخباره في المساجد والأسواق .

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس :

هَمْ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ	قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانٍ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا	نَحْوُلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دِيَانٍ
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ	رُسُومُهُمْ مِنْذُ بَاثُو أَرْهَنَ أَكْفَانٍ
وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ أَسْمِهِ دُفِنَتْ	شُعْنًا مُشْكِرَةً فِي رَمْسٍ كِتْمَانٍ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد ، الرجل الداهية الذي طَوَّقَ عصره بِطَوَّقٍ مِنْ فُؤَادٍ ، واستطاع السيطرة والبطش عدداً من السنين .

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره ، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد ، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بِالسِّنَةِ حِدَادٍ .

تلك كانت نفسية مطران ، أما نفسية صبرى فكانت ملكية أكثر

من الملك ، كان صبرى فيما أقترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد ، أو كان على الأقل من المحايدين ، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت فى رأسه العصبية المصرية ، وانطلق يقول فى تمجيد الفراعين :

أَيْنَ الْأَلَى سَجَلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ

وَصَغَرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ

بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ وَأَذْرَجُوا طَيَّ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانٍ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرَبًا مُخَلَّدَةً فِي السَّكُونِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانٍ

فالمعارضة بين صبرى ومطران لم تكن معارضة بين رجلين ، وإنما كانت معارضة بين حزبين ، والشعر الذى نقرؤه وتنغنى به لا يمثل عواطف فردية فى أغلب الأحيان ، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح . ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب ، لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَتْ خُلُوعًا ظَاهِرِيًّا من المعنى الذى عرضناه ، ولكن الناقد الذى يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصْعَبُ عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول .

٦

على أن مطران لم يفقه أن يتمنى للمصريين استعباداً مثل استعباد رمسيس ، استعباداً ترتفع به هاماتهم فى الدنيا فيقفون مواقف الرجال . ولننظر كيف يقول :

لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ
النَّارُ أَسْوَعُ وَرَدًّا فِي مَجَالِ غَلَا
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانٍ
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانٍ

أَكْرَمَ بَذَى طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ يَنْجُو الْأَذْلَاءَ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانٍ
بَضْ طُغَاةٍ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأَحْدَانٍ
كَمْ فِي سَنَاءِ الْكُوكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ

فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
لَمْ تَرَقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانٍ
لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُتَمَتِّعٍ بِسَابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانٍ
أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضُوا بِأَوْجُهُ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانٍ
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمَسِيْسُهُمْ مُقَدَّمُهُمْ إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغُلَامَانٍ
هذا هو الشعر في منطق الحكماء ، الآن يتمنى مطران لو أُتِيحَ للبلاد
الهُوَامِدُ أَنْ تَظْفِرَ بِطَاقِيَةِ يَنْقُلَهَا مِنْ حَيَاةِ الْحَمُولِ إِلَى حَيَاةِ الْإِقْدَامِ ، الآن
يَرَى النَّارَ أَرْفَقَ بِالشُّعُوبِ مِنَ الْعَيْشِ الْوَادِعِ فِي ظِلَالِ التَّرَفِ وَاللِّينِ ، الآن
يُرْحَبُ بِطَمَعِ الطَّامِعِينَ الَّذِينَ يَنْجُو بِهِمُ الْأَذْلَاءُ مِنَ الْخَسْفِ وَالْخُسْرَانِ
فَيَنْقُلُونَ مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ إِلَى مَيَادِينِ الْقِتَالِ ، الآن يَرَى مِنْ سُنَنِ الْمَجْدِ أَنْ
تَفْنَى الْجُمُوعُ فِي سَبِيلِ الْأَفْرَادِ ، وَيَرَى بَعِينَ الشَّاعِرِ أَنَّ سَنَاءَ الْكُوكَبِ
الْوَهَّاجِ يَهْلِكُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَضْوَاءِ وَالْأَلْوَانِ ، الآن يَرَى أَنَّ رَمَسِيْسَ الثَّانِي
رَفَعَ قَوْمَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَجَعَلَ وَطَنَهُ فَوْقَ الْأَوْطَانِ ، الآن يَقْرَأُ مَا نُقِشَ عَلَى
الصَّرُوحِ لِيَرَى كَيْفَ كَانَ الْبِشْرُ يَفِيضُ مِنْ أَوْجِهِ الْجَنُودَ وَهُمْ يَعُودُونَ إِلَى
الْوَطَنِ ظَافِرِينَ .

فما معنى ذلك ؟ أ يكون معناه أن مطران وقع في تناقض ؟
لا ! لم يقع في تناقض ، وإنما عرض صورتين مختلفتين : الصورة الأولى
في معائب الاستبداد ، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد ، ولكل حقيقة
وجهان : أحدهما دميم ، والآخر جميل .

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وثب إليها صبرى ، ولكنه لم
يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جولة شعرية عرض فيها لتقبيح الظلم والتنكيل
بالظالمين ، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول ، هو وثبة
شعبية تجول بالصدر في كل أرض ، وفي كل جيل .

فلنسجل الآن أن مطران تفرد في نويته بهذه المحاولة العقلية ، وهي
عرض جانبين من الرأى في قصيدة واحدة ، وهو نوع من التحليل لا يجيده
من الشعراء إلا الأقلون .

ولنذكر أن بيت القصيد في نونية مطران هو قوله وقد راعته العظمة
في تمثال رمسيس :

لَوْ لَا تَمَاتِيْلُهُ الْآخَرَى مُحَطَّمَةً مَا جَالَ فِي ظَنِّ قَانٍ أَنَّهُ قَانٍ
وما أحب أن تضع الفرصة بدون أن أوجه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك
التمثال ، وليتهم يفكرون في نقله من الأقصر ليُنصَّب في ميدان باب الحديد ،
أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية لينصبوها
في ميدان الكونكورد فتوحى إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع ، ونعجز
نحن عن نقل تمثال رمسيس ليُنصَّب في ميدان باب الحديد فيكون شاهداً
على ماضى مصر في إعزاز العظمة مخلدة بروائع الفن الجميل .

نظم صبرى قصيدته ليرد على مطران فكان لا بد له من وقفة يشرح
بها ما فى الأهرام من جلال :

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ حَتَّى الْفَنِّ مُتَّحِذًا مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كِيَوَانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاخِرَةٌ بِمَا يُضَعِّضُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانِ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ مِنْ أَرْكَانِ شَهْلَانِ
أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ لَا يَأْخُذُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ أَرْكَانِ الْأَهْرَامِ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ
مِنْ أَرْكَانِ الْجِبَالِ ! لَقَدْ تَمَرَّدَ مَلُوكٌ عَلَى الْأَهْرَامِ لِيَهْدِمُوهَا فَلَمْ تَخْدَشْ مَعَاوِلَهُمْ
غَيْرِ الطَّلَاءِ .

وما هذا البيت :

كَأَنَّهَا - وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا صَرَعَى - بِنَاءِ شَيَاطِينٍ لِشَيْطَانِ
ما هذا البيت ! من القليل أن تقول إنه بيت القصيد ، فإن جملة « والعوادي
فى جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال ، وما أجدر هذا البيت بأن
ينقش على الأهرام ليكون صفحة جديدة فى سفر الفنون .

ثم ماذا يا صبرى ؟ ماذا تقول فى أحجار الأهرام ؟ أتقول :

كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ أَمَامَهَا صُخُوفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي أَثْنَائِهَا صُورٌ فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُذْرَانِ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ صَدَى يُرَوِّعُ صُمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
ما هذا الشعر أيها الناس ؟ هذا هو السحر الحلال الذى سمعنا باسمه فى
أخبار الأولين .



أما بعد : فإنني أكاد أحكم بأن الشاعر اسماعيل صبرى هو الذى سن
مذاهب القول فى وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي ، أليست

ضادية شوقى مما نُظِمَ بعد نونية صبرى ؟

إن كان فيما أحكم به شىء من الحق فإسماعيل صبرى إمام أهل هذا
العصر فى الإشادة بآثار الفراعين .

وليس المجال فى هذا الحديث بمتسع لدرس ضادية شوقى فى قصر أنس
الوجود ، فليرجع إليها القارئ فى الجزء الثانى من الشوقيات ، ولتذكر
أن قول شوقى :

رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلَى الْفَرَاعِينَ غَمُضًا
إنما أخذ من قول صبرى :

وَزُحْزِرُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا

عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي

وَيْلٌ لَهُ هَتَّكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَلَالَ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانِ
لَلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ إِذَا هُمَا وَزَنَا يَوْمًا بِمِيزَانِ

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . »

البحث الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان : قصيدة أبي نواس في مدح الأمين ، وقصيدة البارودي في الترحم على صباه .

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع ، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد ، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر ، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صنعت يوم قضت بالنصر للمأمون .

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته ، ولكن من المرجّح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي في سنة ١٩٣ هـ . وأبو نواس ولد سنة ١٤١ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد .

وإنما اهتممنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا نواس كان يحدّ كل الجد في التحسر على ملاعب الشباب ، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين ، واثنتان وخمسون سنة تهدّد عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكؤوس ، وزواجر الدسائس والنمائم ، وأعاصير الجد العاثر والزمن الكنود .

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذي يبكون الديار ويقفون على الأطلال ، كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكؤوس والرياحين

والوجوه الصُّباح ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدَّمن العافيات ، فلما فعلت الاثنان والخمسون فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه ، تلفت فرأى الديار مما يستحق البكاء . . . والله يعلم أى حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل وهو يقول :

يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ لَمْ تَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَامُ
عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ^(١)
أَيَّامٌ لَا أَغْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مُرَاقَبَةً عَلَى ظَلَامٍ^(٢)

وأبو نواس في هذه الأبيات يقاسى لوعتين : لوعة الوجد على الدار التي ذهبت ببشاشتها الأيام ، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أجلتهم عن دار الهوى أحداث الزمان ، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل ، أيام كان يتذوق حياة الطيش والجنون ، فلا يخطو خطوة إلا لديه رقيب من التهم والظنون ، وتلك حياة يراها الشاعر أرق من النجوى ، وأطيب من شهى العتاب .

ثم انظروا هذه الصورة ، صورة الفتك ، في هذا البيت :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدُلُوبِهِمْ وَأَسْمَتُ سَرَحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أُسَامُوا
تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب ، ثم انظروا كيف جمعت أطراف المغامرات الجنونية ، مغامرات اللهو والشباب . وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال :

(١) العرام : الشدة والعنف . (٢) جملة (على ظلام) جملة حالية .

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ أَمْرُؤُ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةُ كُلِّ ذَلِكَ أَثَامُ
الله أكبر ، هذا هو الشعر ، وذلك هو الشاعر أبو نواس !



قصيدة أبي نواس عدتها عشرون بيتاً ، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتاً ، ولكن هذه الأبيات الخمسة ، أو هذه الفاتحة في الشورة النواسية هي التي هاجت البارودي ، وأذكت لوعته وأضرمت شجاءه ، فقال :

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَوَلَّتِ الْأَيَّامُ فَعَلَى الصَّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامُ
تَاللهِ أُنْسَى مَا حَيَّيْتُ عُهُودَهُ وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَامِ ذِمَامُ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس ، وأكاد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف ، فإن نفثته لم تكن نفثة ملتهع ، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف ، ومفتون بأخلاق الماجدين ، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان المجانين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس ، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمائل الأبطال .

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برءوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون ، على نحو ما كان ندمان أبي نواس ، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات ، وإنما يعاقرون الكأس في القصور ، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس ، ومعاني الجود .

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه

وإنما يتمدح ويتمجد ، وتلك حال من يعقل ، لآل حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع .

وانظروا كيف يقول :

إِذْ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرَفٌ ظِلَالُهُ
تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ حِجَالِسٍ
فِي فِتْيَةٍ فَاضَ النِّعَمُ عَلَيْهِمُو
ذَهَبَتْ بِهِمْ شَيْمُ الْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهُوَى
مِنْ كُلِّ أَبْلَحٍ يُسْتَفْضَاءُ بِنُورِهِ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا يَسُوءُ جَلِيسُهُ
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحْسَبُ أَنَّهُ
تَرَوُ الْعِيُونَ إِلَيْهِ فِي أَعْمَالِهِ
فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالْزُّهُوسُ خَوَاضِعُ
نَلْهُوٍ وَلَعِبُ بَيْنَ خُضْرٍ حَدَائِقِ
حَتَّى انْتَبَهْنَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الصَّبَا
وَلَنَا بِمُعْزَتِكَ الْهُوَى آثَامُ
فِيهَا السَّلَامُ تَعَانَقُ وَلِزَامُ
وَنَمَاهُمُ التَّبَجُّيلُ وَالْإِظَامُ
تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ وَلَا إِزَامُ
سُمُحُ الثَّفُوسِ عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ
كَالْبَذْرِ حَلَى صَفْحَتَيْهِ نَمَامُ
بَيْنَ الْمَقَامَةِ وَاصِحُ بَسَامُ
مَوْلَى لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهُوَ هُمَامُ
وَتَسِيرُ تَحْتَ لَوَائِهِ الْأَقْوَامُ
وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالْصُّفُوفُ قِيَامُ
لَيْسَتْ بِغَيْرِ خِيُولِنَا تُسْتَامُ
إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ

وهذا الشعر في غاية من الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه ، فهو لا الندمان العاشون هم رجال أعمال ، وليسوا فتيان غواية ، هم أقطاب الحرب ، وأعلام السلم ، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى ، وللإثم ألوان : هناك إثم الأطفال ، وهناك آثام الأبطال ، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية ، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس .

هيات ، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجميل والتعقل والأفعال ،
وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطياف المبدد المفقود
ومن أجل ذلك قلت : ان الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات
الشباب ، ومن أجل ذلك أيضاً نراه يتكلف الحكمة إذ يقول :

لَا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتَرَفٍ هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامٌ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا لَمَعَ السَّرَابِ وَتَنْقُضِي الْأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ
لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مَخْلَبٍ يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ حِمَامٌ



كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين ، وكذلك منعه الأدب من
الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء ، أما البارودي فقد قصر قصيدته
على شجون قلبه وهموم دنياه ، فرأيناه يندفع في وصف الخمر فيقول :

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا أُعْتَرَتْ بِالْكَأْسِ فَهِيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامٌ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي أَلْوَانِهِ إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمْرَةٍ تَذُرُّ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غُلَامٌ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا فغَاوَرَ جِسْمَهَا مَشَبَحًا تَهَافَّتْ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
خَمْرَاءُ دَارَ بِهَا الْحُبَابُ فَصَوَّرَتْ فَلَسْكَاً تَحْفُ سَمَاءُهُ الْأَوْهَامُ
لَا تَسْبِيحُ تَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَعَانِهَا وَتَرِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ
تَعْشُو الرِّكَابُ فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقْلَمُوا
جُبِسَتْ بِأَكْلَفٍ لَمْ يَصِلْ بِفِنَائِهِ نُورٌ وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامٌ

حَتَّى إِذَا اصْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ
وَقَدَّتْ حَمِيَّتُهَا فَلَوْلَا مَرْجُهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ شَبَّ ضِرَامُ
تَسِيمِ الْعِيُونِ بِنُورِهَا لَكِنَّهَا بَرَدَتْ عَلَى شُرَابِهَا وَسَلَامُ
فَأَصْقَلَ بِهَا صَدَأُ الْهُمُومِ وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطِيْشُ بِلُبِّهِ الْأَلَامُ
وهذا شعر جميل ، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه
الآيات وهو تعبان ؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح ، هي نظم منسجم
مسيبوك ، ولكنها كالسكاس التي قُتِلَت بالماء فلم يبق منها غير الشعاع الخامد
الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان .

أيرانا القارئ تتحامل على البارودي ؟ وكيف ، وقد قرأنا آياته هذه مرة
ومرة ، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك ، ولم تطف بال رأس غاشيات الضلال
إن خمرية البارودي هذه لن تهوى بأحد إلى الجحيم ، ولن يسأل عنها
يوم الحساب ، أما خمريات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له
أوار ، وسيكون يوم الدين جبلاً يتفجر بالبراكين .



قلت لكم : إن البارودي نظم قصيدته وهو تعبان ، ومن آيات ذلك أنه
عاد إلى تكلف الحكمة ، فقال :

يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَائِمٌ لَهُ لَوْ يَسْتَبِينُ عُقَامُ
فَأَطْمَحَ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أَمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ
هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النَّظَامِ وَهَلْ فِيهِ الْأَهْرَامُ
لَا شَيْءٌ يَخْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ

وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورَ بغيرِهَا وَأَتَى عَلَى النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحْرُكٌ وَإِذَا الْخُمُومُ دُ تَلْهَبُ وَإِذَا الشُّكُوتُ كَلَامُ
وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَنِيَّةُ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ
هَذَا يَحُلُّ وَذَلِكَ يَرْحَلُ كَارِهًا عَنْهَا فَصُلْحٌ تَارَةً وَخِصَامُ
فَالْتَوَرُّ لَوْ يَبِينَتْ أَمْرُكَ ظُلْمَةٌ وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ
وهذا شعر رجل تعبان ، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة ، وكان
البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية
حين قال :

لِدُومِ الْمَوْتِ وَأُبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْو يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ



هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس ، لأنها في المديح ، ولأن
البارودي وقف في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب ، على أنه لا مانع
من الإشارة إلى أن البارودي حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون
أطاف بقول أبي نواس في مدح الأمين :

مَلِكٌ أَغْرَأَ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعْدُكَ التَّبَجِيلُ وَالْإِعْظَامُ
ولا بأس من توجيه القارئ إلى العذوبة البادية في قول أبي نواس :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلْعَنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مِنْ وَطِيِّ الْحَصَا فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ
رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ قَرَّ تَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ

سَبَطُ النَّبْتَانِ إِذَا أَحْتَبَىٰ بِنَجَادِهِ فَرَعَ الْجَمَاجِمَ وَالسَّمَاطُ قِيَامُ
مَلِكٌ إِذَا أُعْتَبِرَ الْأُمُورَ مَضَىٰ بِهِ رَأَىٰ فُلَّ السَّيْفِ وَهُوَ حُسَامُ
ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دَنَسَ بها أنصار المأمون أخبار الأمين.

البحث الحادى والثلاثون

بين البارودى وأبى فراس

فى كل لغة شعراء وكُتَّاب وخطباء يخلقون أجواء^(١) من الفكر
والعبقريَّة فيزيدون فى عمر لغتهم ويصلون بينها وبين القلوب والعقول ،
فتزداد تأصلاً وقوةً وحيويةً ، فاللغة الفرنسية مدينة فى حياتها لأمثال هوجو
وميسيه ولامرتين ، واللغة الانجليزية مدينة لأمثال بيرون وشلى وشكسبير ،
واللغة الألمانية مدينة لأمثال شلر وجوت ، والناس مثفقون على أن اللغة
الايطالية مدينة لدانتى أثقل الدين .

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس
صاحب الروميات ، أبو فراس الذى وصف الضعف الانسانى أجمل وصف ،
وشرحه أحسن شرح ، ومثله أصدق تمثيل .

أبو فراس ضحية الكبرياء ، كبرياء الحب والمجد ، أبو فراس الوتر الحثان
الذى خلد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين ، أبو فراس الذى أبكى كل عين ،

(١) الجو يجمع على جواء بكسر الجيم ، وهى اللفظة التى آثرناها فى كتاب النثر الفنى . ولكننا
آثرنا هنا أن نجعلها على أجواء .

وأحزن كل قلب ، وشغل كل بال ، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع
بعد الزئير ، وعلمته الليالى كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال .

كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس فستعرف
أن القوة الانسانية فى حاجة إلى من ييكها حين ترول ، وليت القلم يطاوعنى
لأشرح بعض ما أريد ، وأنا أريد أن أقول : إن عنفوان الرجال من كنوز
الحياة ، ولكنها كنوز معرضة للتزييف حين يعروها الخمود ، العنفوان فى
الرجل الشجاع هو أنضر من الصباحة فى الوجه الجميل ، والصباحه تجد من
ييكها حين ترول ، أما العنفوان حين يخمد فلا يجد من يشيعه بطيف
من الرثاء .

وما قرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال ، تمثلت عنفوان
الفارس الفاتك الذى قضت الأقدار بأن يمسى وهو فى ظلمات من ذلة
الأسر ، وهزيمة القلب ، وأنصهار الروح .

لا تذكروا آلام المتنبي ، ولا أشجان المعرى ، ولا وجد ابن زيدون ،
كل أولئك أحماهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس ، وما ظنكم بقائد عظيم
يذله الأسر حتى يعود طفلا يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول :

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ وَظَنِّي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ

جِرَاحٌ تَحَامَاهَا الْأَسَاءَةُ خَافَةً وَسُقْمَانٍ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ

وَأَسْرُهُ أَقْصَاهُ وَلَيْلُ نُجُومِهِ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ

تَطُولُ لِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْتُرُكَ طَوْلُ

تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عَصَابَةٌ سَتَلْحَقُ بِالْآخِرَى غَدًا وَتَحُولُ

وَإِنَّ الدِّيَّ يَبْتَقِي عَلَى الْعَهْدِ مِنْهُمْ
أَقْلَبُ طَرَفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبٍ
وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ
أَكُلُّ زَمَانٍ أَنْكَدَ غَيْرُ مُنْصِفٍ
فِيَا حَسْرَتِي مَنْ لِي بِخِلِّ مُوَافِقٍ
وَإِنَّ وَرَاءَ السِّتْرِ أَمَّا بُكَائُهَا
فِيَا أَمَّنَا لَا تُخْطِئِي الْأَجْرَ إِنَّهُ
تَأْسَى كِفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرِيَنَّهُ
لَقِيتُ نُجُومَ اللَّيْلِ وَهِيَ صَوَارِمٌ
وَلَمْ أَرَعْ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ خُلَّةً
وَلَكِنْ لَقِيتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكَتُهَا
وَإِنْ كَثُرَتْ دَعْوَاهُمْو لَقَلِيلُ
يَمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ
وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُولُ
وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بِخِيلُ
أَقُولُ بِشَجْوَى تَارَةً وَيَقُولُ
عَلَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ
عَلَى قَدَرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلُ
فَقَدْ غَالَ هَذَا الدَّهْرُ قَبْلَكَ غُولُ
وَحُضْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَهُولُ
عَشِيَّةَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَى خَلِيلُ
وَفِيهَا وَفِي حَادِّ الْحَسَامِ فُلُولُ

أترون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل ؟ إن التوجع لآلام
الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو
يؤسرون ، وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يؤسّر ،
وقضت عليه أن ينتظر من يفديه فلا يظفر بالفداء ، قضت عليه الدنيا أن
يعانى آلام الجروح فلا يسعفه طيب ، ولا يواسيه رفيق ، قضت عليه الدنيا
أن يتمثل أمه باكية مُلتاعة لا يرقأ لها دمع ، ولا يهدأ لها فؤاد ، ويأويل
من تضعف نفسه فيرق لأحزان الأمهات !

على أن أبا فراس كان يتجلد أحياناً في أسره فلا يزيدنا ذلك التجلج إلا

علما بما وصل إليه من فقد الصبر وأنعدام العزاء ، كان يتجلد فيستطيع أن
يَقْرَعَ سيف الدولة بمثل هذا العتاب :

أَمَّا جَمِيلٌ عِنْدَكَ ثَوَابٌ وَلَا لِسِيٌّ عِنْدَكَ مَتَابٌ
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوَى هَوَاهُ خَرِيدَةً وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضَى عَلَيْهِ كَعَابٌ
وَلَكِنِّي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَازِمٌ أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابٌ
وَلَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ وَإِنْ مَلَكَتْهَا رَوْفَةٌ وَشَبَابٌ^(١)
إِذَا اخِلْتُ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَالَةٌ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا انْفِرَاقُ عِتَابٌ
إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدَةٍ مَا أُرِيدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابٌ
فَلَيْسَ فِرَاقٌ مَا اسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ فِرَاقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابٌ
صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّي بَقِيَّةٌ قَوْلٌ وَلَوْ أَنَّ الشُّيُوفَ جَوَابٌ
وَقُورٌ وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ تَنْوِشُنِي وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جَيْئَةٌ وَذَهَابٌ

وَالْحَظُّ أَحْمَدُ — وَالزَّمَانُ بِمُقْلَةٍ

بِهَذَا الصَّدْقُ صِدْقٌ وَالْكَذِبُ كِذَابٌ
بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يُتَوَبُّهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابٌ
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذِنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابٌ
تَغَايَبَتْ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِبَاوَتِي بِمَفْرَقِ أَغْبَانَا حَصًّا وَتُرَابٌ
وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ وَلَا كُلُّ قَوْلٍ لَدَيَّ يُجَابُ
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابٌ

(١) الروفة والروق : أول الشباب . ويقال أيضاً مضى ربيع الشباب .

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلٍ
تَجْرُ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ
وَلَا شُدِّي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ
سَتَدُكُرُ أَيْامِي مُنْمِرُ بْنُ عَامِرٍ
أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا
وَأَسْطُو وَحْبِي ثَابِتٌ فِي قُلُوبِهِمْ
بَنِي عَمَّنَا لَا تَتْرُكُوا الْحَرْبَ إِنَّنَا
بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ يَبْنِي
بَنِي عَمَّنَا نَحْنُ الْوَاعِدُ وَالطُّبَا
وَإِنَّ رِجَالًا مَا أَبْنَاهُمْ كَأَنَّ أُخْتَهُمْ
فَعَنْ أَى عَذْرِ إِنْ دُعُوا وَدُعِيهِمْ
وَمَا أَدْعَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ غَيْرُهُ
وَأَفْعَالُهُ بِالرَّاعِبِينَ كَرِيمَةً
وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بِكَفَى صَارِمٌ
وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَايَا سَرِيعَةٌ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدُّ قَرِيبٌ نَعْدُهُ
فَأَحْوَطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي
وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ

تَحْكُمُ فِي آسَادِهِنَّ كِلَابُ
لَدَى وَلَا لِلْمُعْتَقِينَ جَنَابُ
وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قِبَابُ
وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ
وَكَعْبُ عَلَى عَادَاتِهَا وَكِلَابُ
وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّالِبِينَ تُصَابُ
وَأَحْلُمُ عَنْ جُهَاثِهِمْ وَأَهَابُ
شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابُ
إِذَا قُلٌّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ
وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ
حَرِيُونُ أَنْ يَقْضَى لَهُ وَيُهَابُ
أَبْنَاهُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا
رِحَابُ عَلَى لِّلْعَفَاةِ رِحَابُ
وَأَمَّا وَالْهُ لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ
وَأَظْلَمُ فِي عَيْنِي مِنْهُ شِهَابُ
وَلِلْمَوْتِ ظَفَرٌ قَدْ أَظْلَمَ وَنَابُ
وَلَا نَسَبُ دُونَ الرِّجَالِ قُرَابُ
وَلِي عَنْهُ فِيهِ حَوَاطَةُ وَمَثَابُ
لِنَعْلَمَ أَى الْخُلَّتَيْنِ سَرَابُ

وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً لَدَيْهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوُدِّ أَرْضَهُ وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهِ وَطَلَابُ
كَذَلِكَ الْوَدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلَ جَامِعُ

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لُقِيَّةٌ وَخَطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيْصَرُ
أَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ أَثَابُ بِمِرِّ الْعَنْبِ حِينَ أَثَابُ
فَلَيْتَكَ تَحُلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ وَبَيْنِي وَالْعَالَمِينَ خَرَابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس ، فذلك رجل أسير ضَعْفُهُ اليأس ، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب ، وهو يتكلم كلام الطليق ، لا كلام الأسير ، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع ، والعقاب والثواب ، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول :

تَمَرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شُدِّي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرِ سَابِجٍ وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قَبَابُ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ

وأقصى ما يعانى الرجل أن يسمى لا يملك الضر ، ولا يملك النفع ، وغايات الفتوة أن يكون الرجل نقاعاً ضراراً يخشاه العدو ويرجوه الصديق ، وشكايه أبي فراس في قصيدته هذه شكايه رجال ، أما شكايته في القصيدة

الماضية فشكاية أطفال ، ومعاذ الأدب أن تتجنى عليه ، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم ، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير ، ولا نعرف ما قوبل به أسره في بلاط سيف الدولة ، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء ، وذلك إن وقع شيء منه كاف لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع ، ويحوّله إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء .

قلت : إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق . ألم نر كيف ابتدأها بالنسيب ؟ ألم نر كيف دعا إلى مواصلة الحرب ؟ ألم نر كيف يتمدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول :

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابٌ
ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس ، فمن المستبعد جداً أن تتصور أن الرجل كان يرسل قومه من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع ، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد ، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد ؟

إن الصلة بين القصيدتين الماضيتين ليست بعيدة ، فالأولى توجع ، والثانية تجلّد ، وليس بين التوجع والتجلّد إلا فرق ضئيل .

والشاعر في القصيدتين غير متكلف ، وإنما هو يعمل ما يمرّ بالنفس الإنسانية من صوّر وأطياف ، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف ، وفيها

جبروت واستخذاء ، والشاعر الحق هو الذى لا يكذب على الطبع : وإنما
يتهمج ويتنفس ، ويقسو ويلين ، وفقاً لبسمات العيش أو تكدر الزمان .

قد يقول معترض : وكيف صح لأبى فراس أن ينظم أشعار الحماسة
وهو فى القيْد ؟

ونجيب بأن الليث المأسور فى حديقة الحيوان يتمثل أحداث الغابة فى
كل حين .

والنفس تجتث ماضى النعيم فى أيام الحرمان ، وصوّر النعيم السالف هى
القبس الذى يبدد غياهب البؤس ، ويعقق ظلمات البأساء .

وكيف نحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعندنا البارودى ، البارودى
رجل السيف ، الذى لم يصوّر أيام الحرب والفتوة إلا بعد أن ألقته الحوادث
منفياً فى جزيرة سيلان .

إن إحساس البارودى بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نرعت عنه
الحوادث شارات المجد ، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة
وفتوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب ، وتريه الدنيا كيف تُصوّح
الأزهار ، وكيف تجف الأنهار ، وكيف تدبّل الرياحين .

إن إحساس أبى فراس والبارودى بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس
طبيعى مألوف ، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا يتمدح بماضيه إلا حين
يصبح حاضره لا يكبت العدو ولا يسرّ الصديق .

ومن عجيب التشابه بين البارودى وأبى فراس أنهما ظلّا فى أيام المحنة

والياس يتذكر ان الاحباب ويشكوان سفة الواشين ، وقد مرّ شاهد من
شعر أبي فراس ، فلنذكر بجانب ذلك قول البارودي :

رُدُّوا عَلَيَّ الصَّبَا مِنْ عَصْرِى الْخَالِي	وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللَّمَّةِ الْبَالِي
مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ مَا لَحَتْ خَفَايُهُ	فِي صَفْحَةِ الْفِكْرِ إِلَّا هَاجَ بَلْبَايُ
سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ فِي مَضَاجِعِهَا	بَعْدَ الْحَيْنِ وَقَلْبِي لَيْسَ بِالسَّالِي
لَمْ يَذَرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلَذَّتِهِ	أَنْنى بِنَارِ الْأَسَى مِنْ هَجْرِهِ صَالِي
يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عِدَةٍ	بِالْوَصْلِ يَوْمٌ أَنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي
غَيْبُكُمْ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ	وَمَسَاءٌ صُنِعَ اللَّيَالِي بَعْدَ إِجْمَالِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي مِنْكُمْ عَلَى ثِقَةٍ	حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرِ فِي بَالِي
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْبًا أَسْتَحِقُّ بِهِ	عُتْبًا وَلَكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِ
وَمَنْ أَطَاعَ رُؤَاةَ الشُّوءِ نَفَرَهُ	عَنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أَذْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرُ قَبْلِهِ ثِقَةٍ	وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدْدٌ بَعْدَ إِقْبَالِ

فماذا ترون في هذه الأبيات ؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس ، هو
يتكلم كلام الطليق ، هو يرجو أن لا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين
ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لو شاية ولا إرجاف .

تلك نزوات نفسية ، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص ، وهو مع
ذلك يتوشب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء .

وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلل القارئ على أسرار التناقض فيما
يقرأ للبارودي ، وما يقرأ لأبي فراس . هما شاعران يشتركان في كثير من

النوازع ، ويشتركان في كثير من الصفات ، وبليّة النفي والأسر بلية واحدة وإن اختلفت الصّور والظروف .

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموازنة بين الرائيّتين فرصة لا تتاح في كل حين ، فكلا الشاعرين يتغزل ، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب ، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حرارٍ لا يدرك وقدها إلا من ذاق الأسر والنفي ، وقد ذقنا الأسر مرتين^(١) ، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربة الروحية والغربة العقلية ، وإلى الله نشكو ما نعانى من قسوة الاغتراب في هذا الزمان .

البحث الثاني والثلاثون

الموازنة بين القصصيتين

- ١ -

ونشرع في الموازنة بين الرائيّتين فنقول :
يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس ، فقصيدة البارودي خمسة وعشرون بيتاً ، وقصيدة أبي فراس جاوزت الأربعين قد يقال : وما قيمة الكمية ؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميممة أبي نواس نظر فراها عشرين بيتاً ، فجعل قصيدته أربعين ، وذلك من

(١) كان المؤلف من الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية ، وكان اسمه مقيداً في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقا شعلة من الحرب ، وكانت خليقة بأن ترهب انجلترا وترجعها لو دامت بضلع سنين .

شارات الاهتمام والاحتفال .

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتا ، وهوفي قصيدة البارودي أحد عشر بيتا .

ومن الفوارق بين الشعارين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب إلى الفخر ، أما البارودي فترفق في التخلص حين قال :

وَكَفَّكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُؤْنَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أَمْرُوهُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحْتُ بِهِ صَبُوءُهُ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرَبِهِ الْهَجْرُ
وَإِنِّي أَمْرُوهُ لَوْ لَا الْعَوَائِقُ أَذْغَنْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةَ وَالْحَضْرُ
مِنْ النَّفْرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُوِّفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ جَرُ

وابتداً أبو فراس تصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال:

أَرَاكَ عَصَى الدَّمْعِ شِيَمَتِكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بَلَى ، أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ وَالْكَنَّ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال ، فإن الرجل لا يعاب عليه الحب ،

وإنما يعاب عليه أن يصير أحبابه مضغة الأفواه ، ثم جعل الشكوى بينه

وبين الليل ، فقال :

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى وَأَذَلَّتْ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ
تَسْكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْهَجْرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن

يُدَارَى بالكتمان ، وتمثل نفسه محباً جاحياً لا يصدّه تهيب ، ولا يردّعه إشفاق ،

وكذلك قال :

طَرِبْتُ وَعَادَتْنِي الْمَخِيلَةُ وَالشُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يُلَوِي بِشِيَمَتِي الزَّجَرُ
كَأَنِّي مَحْمُورٌ سَرْتُ بِلِسَانِهِ مُعْتَقَةٌ مِمَّا يَضُنُّ بِهَا التَّجَرُ
صَرِيحُ هَوَى يُلَوِي بِي الشَّوْقُ كُلَّمَا تَلَا بَرْقٌ أَوْ سَرَتْ دِيمَةٌ غَزُرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ رَأَيْتُنِي عَلَى حَسَرَاتٍ لَا يَقَاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتم أسرار الحب ، وأنه لا يشكو بثه إلا إلى ظلمات الليل ، وإنما سلك البارودي مسلكا آخر ، حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتمان ، وحين أعلن أن مابه أخطر من السحر ، وأخطر من الجنون ، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب ، لأن الحب في رِقَّتِهِ وَلُطْفِ مَدَاخِلِهِ لَا يُرَدُّ بِالسَّيُوفِ وَبِالرَّمَاكِ ، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي كانت مواقفه مما يشيب ناصية الزمان :

يَقُولُ أَنَا أَنَا إِنَّهُ السَّحَرُ ضَالَّةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السَّحَرُ

فَكَيْفَ يَعْيبُ النَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي

وَلَا لِأَمْرِي فِي الْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرٌ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفْءُهُ لَأَلَوْتُ بِهِ الْبَيْضَ الْمُبَاتِيرَ وَالشُّمْرُ
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ شَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لَأَحْتَرَقَ الْجَمْرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون ، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف تستطيع العيون النواعس أن تفعل بالرجال ما لا تفعل الصَّهْبَاءُ ، لا يعلم أحد كيف يتفق للرجل أن يذللَّ وَيَخْضَعَ في ميدان الحب ، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخلد الأسيل - وهو أرقُّ من الورد - أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف الصقيل .

لقد يخطر ببال الخليلين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر، وأفتك من الحجر، وأقفل من الداء العضال، ولكن الذي مارس ذنبا الصباحة، وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال يعجب من هذه المصاير المحزنة: مصاير الرجال الذي يعيشون بغنائم من الصخر وقلوب من الهواء. لقد كان البارودي ولا ريب من أقوى الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل يهذى بأحلام « حلوان » هذيان المحموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم يرحمه جواه في شدة ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه يحس بلواه كل الإحساس وهو يقول :

وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ شَرَارِيءُ بِالْجَمْرِ لَأَخْتَرَقَ الْجَمْرُ
وللقارئ أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق شرارة الحب بالجر فيحترق الجمر، فالجر يُحرق ولكنه حين يمسه الحب يحترق، وتلك من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حديث الشامتين، وكذلك استدرك فقال :

عَلَى أَنَّنِي كَأَمْتُ صَدْرِي حُرْقَةً مِنْ الْوَجْدِ لَا يَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفَّ كَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شَوْوَنَهُ

عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أُمْرُوهُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَبُوءَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرَبِهِ الْهَجْرُ
ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من

الضعف وأسبغ عليه نعمة الصبر الجميل ، ولولا لطف الله لغرق الناس في « بحر » من الدموع وهى مليح أجاج .

لقد أعجبنى من البارودى أن يُعرب في الوهم ، فيقول :

وَكَفَّكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شَوْوَنَهُ

عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أَمْرُو أَنَّهُ بَحْرُ

وعبارة « ما شك أمرؤ » عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر يفتن إلى أنه مقبل على أكاذيب ، والكاذب فى حاجة إلى القسَم وإلى التأكيد .

وكنا نود لوأعذرنا عنه ، ولكن هذا الغلو المكشوف لم يُوش بصورة شعرية على نحو ما وُشى البيت البكر الذى جعل به الجمر وقودًا لنار الحب ، والدنيا كلها وقود لتلك النار التى يعذب الله بها من يشاء من عباده الشعراء .

٢

لم يمض البارودى فى حديث هواه ، أما أبو فراس فقدّم صورًا من التشبيب ، عاتب حبيبته فقال :

مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ إِذَا مِتُّ ظَمًا نَا فَلَا تَزَلِ الْقَطْرُ

وهذا البيت عرض له شوق فى مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات فرآه من صور الأثرة وفضل عليه قول أبى العلاء :

فَلَا هَطَلَتْ عَلَى وَلَا بَارِضِي سَحَابٌ لَيْسَ تَنْتَضِمُ الْبِلَادَا

ونحن نرى أبا فراس أصدق من أبى العلاء ، فإن الأثرة من مظاهر الحيوية ، والشاعر الحى لا يفكر إلا فى نفسه ، لأن الحياة تفرض الاستبداد ، ونظرة أبى العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف ، والأثرة هى سر كل شىء ،

فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مصّ الأرض واستنشاق
الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات ، والرجل
العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يُغير على معاصريه ، فهو لا يظهر إلا بعد أن
يُخْمَل الألوْف والملايين ، والشمس لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف
بضياؤها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء ، وكان القمر
أقل عظمة من الشمس لأنك ترى بجانبه نجوما يخطئها العدّ فتحكم بأنه عجز
عن الاستبداد بملك السماء ، وقد يتفق أحيانا أن نرى القمر نهاراً ، ولكن
كيف نراه ؟ نراه في صورة التابع الذليل ، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت
عليه الشمس ، ولو كَفَّت برّها عنه لعاش وهو مجهول .

فقول أبي فراس :

إِذَا مِتُّ ظَمَأْنَا فَلَا تَزَلِ الْقَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك ، أما كرم
أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء ، وإنما يبذل عطايا
الوَهْم بلا حساب ، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا ممن يملك الإفضال على
الناس ، أما الذي يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسرُّ بما
لا يبذل ، والشُّرور بما لا تبذل سرور الضعفاء .

وقد فرح ناس بملاحظة شوق فراحوا يعيدونها في كل مجتمع ،
وهم لا يفقهون !

ومضى أبو فراس فامتعنا بهذين البيتين :

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنِّي أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفَرُ

وَحَارَبْتُ قَوْحِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكَ الْمَاءِ وَالْخَمْرُ

وهذا شعر بديع حقا ، وإن كان البيت الأول مأخوذاً من قول جميل :

أَيُّتُ مَعَ الْهَلَّاكِ صَنِيفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ دَوُو فَضْلٍ

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثانية :

كَأَنَّ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُشَيْنَ لَوَأْنَهَا تَكْشَفُ غَمَّهَا وَأَنْتَ صَدِيقُ

ولننصَّ على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل ، أما

البيت الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر

أبي فراس .

ثم انظروا هذا البيت :

وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِلنَّسَانَةِ فِي الْحَيِّ شَيْمَتُهَا الْغَدْرُ

انظروا هذا البيت وتأملوه ، فعبارة « وفي بعض الوفاء مذلة » تصور ما يلقي

الرجل في الحب ، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون ،

والرجل لا يحب إلا وهو مخبول ، ولو كان يملك من أمره شيئاً لعرف أن

نعيم الحب نعيم صغير بالإضافة إلى ما يُدَالُ فيه من عزِّ النفوس .

وهذا البيت :

وَقُورٌ وَرِيْعَانُ الصَّبَا يَسْتَفْرِهَا فَتَارُنُ أَحْيَانًا كَمَا يَارُنُ الْمُهْرُ

هذا بيت نادر ، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان ، ولك أن

تذكر وقار العقيلة المليحة التي تحيا برزاة الجبال ، ثم يستفرها الصبا فتجنح

إلى التعقُّب والتغضب ، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفُتُون ، وهي

ألمح في العين وأندى على القلب من بسمات الرضا ونعمات الحنين .

وانظروا هذا الحوار الطريف :

تَسْأَلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ وَهَلْ بَفَتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهُوَى قَتِيلُكَ ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمْ كَثُرُ
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَنَّتِي وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
وَلَا كَانَ لِلْأَحْزَانِ عِنْدِي مَسَلُكُ إِلَى الْقَلْبِ لَكِنَّ الْهُوَى لِلْبَلَا جَسْرُ
فَأَيَّقَنْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ وَأَنْ يَدَى يَدِي مِمَّا عَلَقْتُ بِهِ صِفْرُ
فَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ

وهذا أيضاً شعر ، ولكن أى شعر ! إنه من أقوى لفحات الصبابة ، وأطيب
نفحات الوجدان ، والدنيا هكذا تصنع بالرجال ، فذلك الفارس الذى فتك
بمن فتك من الأبطال ، وهدم ما هدم من الحصون ، هذا الجبل يقف
خاشعاً ذليلاً أمام إنسانة تقول : من أنت ؟ فيقول : عاشق ! فتقول : ولكن
من أنت فى العشاق ؟ فيقول فى ذلة المهزوم : أنت تعالين !

ومن كانت هذه الإنسانية التى عنها أبو فراس ؟

ولكن ما قيمة هذا السؤال ؟ أكان من الحتم أن يكون لشئها شأن حتى
تكوى مثله على الجمر المشبوب ؟ إن من أعجب تصارييف القدر أن لا ينبت
الحسن المرموق إلا فى المراتع التى لا يُنْصَب حول حماها حصن ، ولا يرفرف
فوقها لواء .

إن أبا فراس لا يكذب فى مثل هذا التحرق ، ولكن من كان يجب !
كان يجب إنسانة هى اليوم فى ضمير شعره ، لا فى ضمير صدره ، إنسانة أنطقته
بهذه اللوعة الخالدة ، ثم اندرجت فى أ كفان الفناء .

ثم انظروا هذا المصير المحزن ، مصير كل عاشق خبله الهوى فضاع :
وَقَلَّبْتُ أَمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً إِذَا الْبَيْنُ أُنْسَانِي أَلَجَّ بِي الْهَجْرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهَا لَهَا الذَّنْبُ لَا تُجْزَى بِهِ وَلِيَ الْعُذْرُ
هذا مصير كل عاشق : لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر . والعشق ذاته
خروجٌ على المنطق ، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل
دنية ، إلا أن يُثبت البحث أن الحب أسلوبٌ من الظفر بمكنونات الجمال ،
وأن مدامع العشاق هي في عالم المعقول كالمُخَلَّب والناب في عالم المحسوس ،
فالأسد يفترس ، والعاشق يفترس ، وإن اختلفت وسائل الاقتراس .
نحن إذن نبكى لنُخَدِّرَ الفريسة ، وعلى ذلك يكون الدمع في عين
العاشق كالسم في ناب الثعبان !! أتروني كشفت سرَّ المهنة ؟ لا تُراعُوا
أيها العشاق فلاهل الجمال غفلة هي أعجب الغفلات ، هم يرون الشَّرَك
وَيَتَجَاهَلُونَ ، لحكمة يعامها من يصل القلوب بالقلوب ، وينقل الظباء طائفةً
إلى مرايض الأسود .

وكان أبافراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال :
كَأَنِّي أَنَادِي دُونَ مِثْءٍ ظَبِيَّةً عَلَى شَرَفٍ ظَمِيَاءَ حِلْيَتِهَا الذُّعْرُ
تَجَفَّلْ حِينًا ثُمَّ تَدْنُو كَأَنَّمَا تُنَادِي طَلًّا بِالْجَرِي أَعْجَزُهُ الْحُضْرُ
وهو خيال بدوي أطاف به كثير من الشعراء ، والمليحة هكذا خلقت تأمن
وتخاف ، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال .

يُحْسُ البارودي أن أيامه انتهت ، أيام المجد الحربى ، فَيَزْفَرُ :
وَإِنِّ أُمُرٌ لَوْ لَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنَتْ لِسُلْطَانِهِ الْبَدْوُ الْمَغِيرَةُ وَالْحَضْرُ
وعبارة « لولا العوائق » فيها تحفظ معقول : لأنه كَانَ فِي الْقَيْدِ ، أما
أبو فراس فيشمخ :

وَإِنِّ لَنَزَالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ كَثِيرٍ إِلَى تُرَاهَا النَّظَرُ الشَّرُّ
وحال الشاعرين مختلف ، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل
الانجليز بلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لَا يُرْجَى لَهُ مِنْهَا مَعَاد ، فهو خَلِيقٌ
بأن يراعى ذلك فى خفرك . أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان
لهم جيش ، وكان ينتظر أن يُفَكَّ مِنَ الْأَسْرِ ، وفى ذلك ما يفسح أمام نفسه
مجال القوة فيزهو ويحتال ، ويتمجد فيقول :

وَإِنِّ لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأَصْدَى إِلَى أَنْ تَرْتَوَى الْبَيْضُ وَالْقَنَّا
وَأَسْغَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذُّبُّ وَالنَّسْرُ

وهذا نهاية الفخر ، والخيال هنا بارع ، فالفارسي يظل صديان حتى ترتوى
الرماح والسيوف ، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من
لحوم الأعداء .

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه ، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه :

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ
لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ جُرُ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ
تَفَرَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَانْتَفَتَ الدَّهْرُ

والبيت الثانى وثبة هائلة من وثبات الخيال ، ولا يخلو البيت الأول من
حُسْنٍ مَرْمُوقٍ .

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه ، فقد بُحَّ صوته
وهو يستنجد بهم لِيَفْدُوهُ فلم يلتفتوا إليه ، أما البارودى فلم تكن له بَقِيَّةٌ من
مجدٍ غيرُ آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال :

لَهُمْ عُمْدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلُ وَالْوَيْةُ حُمْرٌ وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمُدَّرِجِ الظُّلُمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرُ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِيْبَةً تُصَاخِفُهَا الشَّعْرَى وَيَلْتَمِهَا الْغُفْرُ
وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقَيْنِ صَهْلَهَا تَزَايَعُ مَعْقُودٌ بِأَسْرَافِهَا النَّصْرُ
مُعْوَدَةٌ قَطَعَ الْفِيَا فِى كَانِهَا خُدَارِيَّةٌ فَتَخَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكْرٌ^(١)

والجود فى هذه الأبيات وضع فى أخيلة بدوية ، فإقامة النار لهداية السارين
لا يعرفها القاهريون ، وقوم البارودى الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من
المماليك ، وكان للبارودى فيما يقال أجداد من المماليك ، وكان هذا النسب
الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك ، ويحبب إليه الصيال .

وعبارة : « وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقَيْنِ صَهْلَهَا » عبارة قوية جدا ، وهى
لا تقلَّ جمالا عن تلفت الدهر وتفرع الأفلاك .

والبارودى يجعل خيل قومه « مُعْوَدَةٌ قَطَعَ الْفِيَا » وهو تعبير طريف
فهى ليست من الخيل المدللة التى تحيا فى نعيم المرايض وتُتَمَسَّحُ أَعْرَافُهَا مَسْحَ

(١) الخدارية بالضم : العقاب ، والفتخاء من العقبان : اللينة الجناح .

التلطف والترفق ، على نحو ما يقع في مراتب الوادعين الذين يقتنون الخيل
للزينة لا للحرب .

والبارودي كان يئس من كل شيء ، يئس من نفسه لأن الذين نفّوه
كانوا مُتَصَرِّينَ ، ولأن قومه أنهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف ،
والقوم الذين أعينهم أناهم المصريون ، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي
فهم أسلافه القدماء ، وهؤلاء لم تبق منهم بقية ، ولذلك بكاهم فقال :

أَقَامُوا زَمَانًا ثُمَّ بَدَّدَ شَمْلَهُمْ أَخُو فَتَكَاتٍ بِالْكَرَامِ اِسْمُهُ الدَّهْرُ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضَوُّعُ بَرِّيَاها الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
وَقَدْ تَنْطِقُ الْآثَارُ وَهِيَ صَوَامِتُ وَيُثْنِي بَرِّيَاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا وَالْمُنُونُ لَهُ أَسْرُ
وَمَا هُـذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ يَحُلُّ بِهَا سَفَرُ وَيَتَرُكُهَا سَفَرُ
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمُرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف ، لأن الشاعر كان من اليائسين .

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول ، فتحدث عن أدب

الحرب فقال :

وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْغَيُورَ بِغَارَةٍ أَوْ الْجَيْشَ مَلَمَ تَأْتِيهِ قَبْلِي النُّذْرُ
ومن أشرف آداب الحرب أن تُسَبِّقَ بالذير فلا يكون فيها تَبَيُّتٌ ولا اغتيال
وبلغ غاية الفخر حين قال :

وَيَارُبَّ دَارٍ لَمْ تَخَفْنِي مَنِيعَةً طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَالْفَجْرُ

وكلمة « لَمْ تَخْفَنِي » وكلمة « مَنِيعَةٍ » من الكلمات الأصلية في هذا البيت ، وعبارة :

« طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدى أَنَا وَالْفَجْرُ »

فيها رَشَاقَةٌ وفيها خيال .

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس ، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المغير البطّاش :

وَسَاحِبَةُ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيَتْهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَانِي اللَّقَاءِ وَلَا وَغَرُّ
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لَأَيَّاتِهَا سِتْرُ
وَلَا رَاحٍ يُطْعِنُنِي بِأَثْوَابِهِ الْغَنَى وَلَا بَاتَ يَشْنِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ
وَمَا حَاجَتِي فِي الْمَالِ أَبْغَى وَفُورُهُ إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوَفْرُ

وهذا المتطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال .

وانتقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره فقال :

أَسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَعَى وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ غِمْرُ
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أُمْرِي فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَجْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة الباقية التي يفرع إليها الأبطال المنهزمون ، والقدر له في الأدب الشرقي مكان ، فتراه عند العرب ونراه عند الهنود ، وفي كتاب كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشؤون الناس ، وما نحب أن نفعل كما يفعل كتاب الغرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية ، هيئات ، فالناس في الشرق والغرب ضعفاء ، وإن فتنهم النصر في بعض الأحيان ، والإنسان حيوانٌ لئيم فهو

لَا يَذْكُرُ الْقَدَرَ إِلَّا حِينَ يُغْلَبُ ، وَهُوَ عِنْدَ الْعَاقِبَةِ يَتَسَاءَى إِلَى مَنْزِلَةِ
الْإِلَهِ الْمَعْبُودِ .

وما أخطر ما يلقى الرجل في مآزق الكرب والضيم ، حين يُخَيَّرُ في
الحرب بين بليتين : بلية الفرار ، وبلية الهلاك ، وقد صور هذا أبو فراس
أصدق تصوير حين قال :

وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرُ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يَعِينُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ
وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة « أصيحاب »
فإن لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء
بصياغة الكلام .

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يَمْنُونُ عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما
يصنعون بالأسرى ، ولعلمهم لاحظوا أنه أمير ، وأن الأمراء لهم في الأسر
مَقَامٌ ملحوظ ، ففَرَعَهُمْ بهذين البيتين :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ مَحْمَرُ
وَقَائِمٌ سَيْفٌ فِيهِمْ دُونَ نَصْلِهِ وَأَعْقَابُ رُمُوحٍ فِيهِمْ حُطَمُ الصَّدْرِ

ويكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قيل فيه هذا القصيد ، وأغلب الظن
أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر ، وإن كان في بقية القصيد ما يشعر
بالعقب على قومه إذ قال :

سَيِّدُ كُرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلَمَاءُ يُفْتَقِدُ الْبَدْرُ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَا سَدَدْتُ أَكْتَفُوَابِهِ وَمَا كَانَ يَغْلُو التَّبَرُّ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ

فإن في هذين البيتين دلالة على أنهم أبطأوا في أفتدائه ، وكانوا من الآثمين ،
ثم قال :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
تَهَوُّنٌ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا يُغْلِهِ الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى بَنِي الْعِلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرَابِ وَلَا نَخْرُ
وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد .

— ٤ —

أما بعد فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض ، وتغنى بها الناس
في جميع البلاد العربية ، وما فيها من التشبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء
سجلتها شركة أدويون للآنسة أم كلثوم ، وكلمة :

« لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ »

يحفظها كل أديب . . . والبيت :

تَهَوُّنٌ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا يُغْلِهِ الْمَهْرُ
كُتِبَ أَلْفَ مَرَّةٍ وَمَرَّةٍ فِي دِفَاطِرِ الْإِنْشَاءِ .

أما قصيدة البارودي فقد نُسِيتْ مع الأسف الموجه ، ولم يُحْفَظْ منها

غير هذا البيت :

إِذَا أُسْتُلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَتَ الدَّهْرُ
وكذلك نُكِبَ البارودي مرتين : نُكِبَ حِينَ نُفِيَ وَلَمْ يَرْجِعْهُ قَوْمُهُ بِقُوَّةِ
السيف ، وَنُكِبَ حِينَ نَسِيَ النَّاسُ شَعْرَهُ فِي مَنْفَاهُ .

وَأَكَادَحُكُمْ أَنَّ الْبَارُودِي كَانَ فِي الْحَرْبِ أَفْطَكَ مِنْ أَبِي فِرَاسٍ ،

والحرب بين الجيش المصرى ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التى اشترك فيها أبو فراس .

ولكن البارودى اظروف كثيرة فقد الحظين معاً ، فلم ينتصر سيفه ، ولم يسر شعره ، والدنيا حظوظ ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودى وكان عزمه يدك الجبال .

أيها البارودى العظيم !

لست أتكلف الغضب لك ، والإشفاق عليك ، أنت عبقرية أضاعها المصريون وأضاعها الزمان ، ولكن لا تأس ولا تحزن ، فلست أول من أضاعهم المصريون وأضاعهم الزمان !



البحث الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

- ١ -

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي ، ونونية ابن زيدون ، مقبلون على مصالحة شاعرين من أهل العبقرية ، ومراجعة قصيدتين شغلت احدهما الناس تسعة قرون ، وشغفت الثانية ألوف القلوب .

وابن زيدون صاحب النونية شخصية تمتاز بميزة ظاهرة ، فهو رجل خلقته الدسائس في الحب والملك ، ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون ، فالدسائس من ألوان الشر الوضع ، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس ، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان ، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تسطع من أدبه الرفيع .

ومن عجائب مايقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد ، فالرجل حين يُحرّم تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوّض عليه ماضع من نعيم الراحة الروحية والديوية ، والمجد الأدبي متاع ليس بالقليل ، وهو جدير بأن يوضع في الميزان

ولا يَغُضُّ من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقرين لا يُحْسُون أثر هذا العَوَض ، ولا يرضون عن زمانهم ، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء ، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة ، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنساً مكنوناً بظفرها في عالم الفكر والبيان .

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته بيليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل ، والشهد والعلم والنعم والجحيم .

أما البلية الأولى فهي الحب ، وأما البلية الثانية فهي المجد ، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهدُّ العزائم وتدقُّ الأعناق .

ولا يهمننا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير ، وإنما يهمننا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق ، فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد ، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب ، أما الحب فنفحة روحانية لا يَعْبَقُ طيِّبها إلا في كرام القلوب .

الحب هو الذي جَرَّ العبقرية في صدر ابن زيدون ، ولكن أي حب ؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء .

والحسن منحة إلهية يَرْفُها الله إلى من يشاء ، وهو خَلِيقٌ بأن يصنع ما يصنع ، فَيَعِزُّ وَيُذِلُّ ، وَيَرْفَعُ وَيَضَعُ ، وَيُكْرِمُ وَيُهِينُ ، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب ، وإنما يُسَيِّطِرُ ويستطيع حين يجد رفيقاً من خفة الروح ومن لُطْفِ الذكاء .

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل

ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنحُ الجمال والذكاء
تُحارب بسيفين مرهفين، وتحوّل الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي
يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالقود الذي يُقدّم إلى النار، ومن
قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون ؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي
ملك قلبه، واستأثرت بِنَهاه :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِيَنِي
قَدْ مِتُّ إِلَّا ذِمَاءً فِي يَمْسِكُهُ
مَا سَرَحَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي
كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَفِي كَانُونٍ فَارَقَنِي
شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي فَاهُ وَغَرَّتَهُ
لَنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بِأَكِيَّةٍ
وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتَنِي الْهُمُومُ لَقَدْ
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكُمْ
يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّوْبَدَتِ
وَاللَّهِ مَا فَارَقُونِي بِأَخْتَارِهِمْ
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ

إِذَا لَا كِتَابَ يُؤَافِيَنِي فَيَحْيِيَنِي
أَنْ الْفُؤَادَ بَلَقِيَاهُمْ يُرْجِيَنِي
إِلَّا أَعْتِيَادُ أَسَى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونٍ
بِالْقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِيَنِي فَيَشْفِيَنِي
قَلْبِي وَهَذَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ
شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيَاحِينِ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّيَنِي فَيَرْوِيَنِي
فَكَمْ أَرَاهُ يُعْنِيَنِي فَيَشْفِيَنِي
عَهْدُهُ وَهُوَ يُدْنِيَنِي فَيُسْلِيَنِي
حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ
كَوَاكِبًا فِي لِيَالِي بُعْدِهِ الْجُونِ
وَإِنَّمَا اللَّهُرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِيَنِي
إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي

أَفْدَى الْحَبِيبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي
ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها
ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف ، وَتَنِيمُ الْمِسْمَعِ وَالطَّرْفَ ، بحيث
تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشَّيْبَ إلى أخلاق الشباب . »
كَانَتْ وَلَادَةَ فَاتِنَةِ الْجَمَالِ ، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع ، وتدرِك
أسرار الكلام البليغ . والشاعر الذي يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين ، ينعم
بالحب ، وينعم بالشعر ، والشعر لا يقوى وينضبج إلا إذا عرف المحب أنه
يوجّه أنعامه إلى أذنٍ تسمع وَقَلْبٍ يذوق .

وإليك هذا القصيد في خطاب تلکم الأديبة الحسنة :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرِ مُشْتَاقًا

وَالْأَفْقُ طَلَقٌ ، وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا

وَالنَّسِيمُ أُغْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ	كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقًا
وَالرَّوْضُ عَنِ مَائِهِ الْفَضَى مُبْتَسِمٌ	كَمَا شَقَقْتَ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَاقًا
يَوْمٌ كَأَيَّامٍ لَدَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ	بِتَنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقًا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنُ مِنْ زَهَرٍ	جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقًا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنْتْ أَرْقَى	بَكَتْ لِمَا بِي جَفَالَ الدَّمْعِ رَفَرَاقًا
وَرَدُّ تَأَلَّقَ فِي ضَاغِي مَنَايَتِهِ	فَارْزَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقًا
سَرَى يُنَاخُهُ نَيْلُوقَرٌ عَبِيقٌ	وَسَنَانُ نَبَّةٍ مِنْهُ الصُّبْحُ أَخْدَاقًا
كُلُّ يَهِيْجٍ لَنَا ذِكْرَى تَشْوِقِنَا	إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا

لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَاقًا
لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَلَاقِي
لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى فِي جَمْعِنَا بِكُمْ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقًا



كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنِ مَيْدَانِ أَنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
فَالَا نَ أَتَمِّدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَاقًا

- ٢ -

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون ، وإنما أردنا أن
نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنها بها ذلك الغرام الطريف .
ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد
العربية ، وهي في الشعر العربي تذكرة لبلى ميسيه في الشعر الفرنسي ، فكما
أن الفرنسيين جميعاً يعرفون لبلى ميسيه ، فالعرب يعرفون جميعاً نونية
ابن زيدون ، فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو
لغته وقوميته ، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجهل نونية ابن زيدون التي
سارت مسير الأمثال .

وقد يكون في القراء من يقول : إنها قصيدة في الحب ، وما هو الحب ؟
والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير
قلوب الفحول من الرجال ، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي
يصدر عن صدق المشاعر والقلوب ، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يصدف عنها
إلا الغافلون .

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء (١) :

أُخْصِيَ التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَحَنَا حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُبْسِينَا بِأَنْتِزَاحِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَنْتَلِي وَيُئَلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا بِأَنَّ نَعَضَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَأُبْتُتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا



يَالَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنْ الْعُتْبَى أَعَادِينَا
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا وَلَمْ نَتَّقِلْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا وَلَا أَنْ تَسْرُوا كَاشِحًا فِينَا



كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَدُسُّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
بِنِشْمٍ وَبِنَا فَمَا أُبْتُلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيْامُنَا فَعَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَرَبْعُ اللَّهِوَ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله . إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي ، فانها مختلفة الأغراض ، وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك .

وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً
لَيْسَقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ الشُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُعَيِّرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتَ أَرْوَاحَنَا بَدَلًا
قُطُوفُهُ جَنِينًا مِنْهُ مَا شِينَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَّاحِينَا
إِذْ طَلَمَا غَيْرَ الْيَاسِ الْمُحِيطِنَا
مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا



يَاسَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِ بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَاكَ هَلْ عَنِّي تَذَكُّرُنَا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتِنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
إِنَّمَا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا



رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مُحَضًّا وَتَوَجَّهَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُرًّا فِي أَكْلَتِهِ
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا
مِسْكًا وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
مِنْ نَاصِيعِ التَّبَرِّ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا
تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَّتُهُ الْبُرَى لِينًا
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيدًا وَتَرْيِينًا
وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَايِينَا



يَا رَوْضَةً طَلَمَا أَجَنْتَ لَوَاحِظَنَا
وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بَرَهَ رَرَّهَا
وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَلَسْرِينَا
مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتٍ أَفَانِينَا

وَيَا نَعِيمًا خَطَرَنَا مِنْ غَضَارَتِهِ
لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
إِذَا انْفَرَدَتْ وَمَا شُورَكَتِ فِي صِفَةٍ
فِي وَشْيٍ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
فَقَدَرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبَيِّنَا



يَا جَنَّةَ اخْلُدِ أَبْدَلْنَا بِسَلْسِلِهَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظَّالِمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غَرْوِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ
عَنْهُ النَّهْيَ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُومًا وَغَسَلِينَا
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانٍ وَاشِينَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

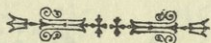
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا
أَمَّا هَـوَ الْهَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَبَّنْبُهُ عَنْ كَشَبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُشَّتْ مُشْغَشَعَةً
لَا أَكُوْسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ
أَبْلَى وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْدُلِي صِلَةً
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
شِرْبًا وَإِنْ كَانَ يَرْوِينَا فَيُظْمِئُنَا
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدْتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا
فِيْنَا الشَّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
سِيمَا أَرْتِيَا حِوَالَا الْأَوْتَارُ تُلْهِمُنَا
فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا
وَلَا اسْتَفْدَنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَتْنِينَا
بَذَرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا
فَالطِّيفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ بَيْضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَا زِلْتَ تُؤَلِّينَا
تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون .

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هوام على تلك الحسنة
هيهات فلن يمكن أن يكون مثله هوام واحد ، وكيف وهو رجل طامح
القلب مُرْهَفُ الإحساس .

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسنة ، ولو أنه دون
جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبُّ وَدَّعَكَ	ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ	زَادَ فِي تِلْكَ الْخَطِيئَةِ إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءٌ وَسَنَاءٌ	رَحِمَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطْلُ بِمَدِّكَ لَيْلِي فَلَكُمْ	بِتُ أَشْكُو قِصْرَ اللَّيْلِ مَعَكَ



البحث الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

- ١ -

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسى القلوب ،
ويكاد يعرف أسرار النفوس ، فإذا تقول عن شوقي ؟ لقد طال الحديث عن
هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب ، ونخشى أن يتحيف حُقوق مَنْ
عرضنا لهم من الشعراء ، ولكن كيف نستكثر القول في شوقي ، وقد بدَّ
ابن زيدون ؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب ، وقد أرسلها من
الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضجَّ لها شعراء مصر ، وأجابه إسماعيل
صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وعبد الحليم المصرى ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن
الجرى في ميدانه ، ولم يؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية
أمير الشعراء .

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان ، وكانت
الآيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعينها ما وُشِّيت به
من الزخرف ، ولكن أين هى من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين
في وادى الطلح بضاحية اشبيلية ؟ لقد تمثل الطائر شبيهاً به في لوعته وجواه
فاندفع يقول :

يَا نَائِحَ الطَّلَحِ أَشْبَاهُ عَوَادِينَا نَشَجَى لَوَادِيكَ أَمْ نَأْسَى لَوَادِينَا

مَاذَا تَقْصُّ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ يَدًا قَصَّتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا
رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكََا غَيْرَ سَامِرِنَا أَخَا الْغَرِيبِ وَظِلًّا غَيْرَ نَادِينَا
كُلُّ رَمَتْهُ النَّوَى ، رِيشَ الْفِرَاقِ لَنَا سَهْمًا ، وَسُلَّ عَلَيْنِكَ الْبَيْنُ سَكِينًا
إِذَا دَعَا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ مِنْ الْجَنَاحَيْنِ عَيٍّ لَا يُكَلِّمُنَا
فَإِنْ يَكُ الْجِنْسُ يَا بْنَ الطَّلَحِ فَرَقْنَا إِنَّ الْمَصَائِبَ يَجْمَعُنَ الْمَصَائِبَنَا
لَمْ تَأَلْ مَائِكَ تَحْنَانًا وَلَا ظَمًا وَلَا أَدْكَارًا وَلَا شَجْوًا أَفَانِينَا
تَجُرُّ مِنْ فَنَنِ ذِيلاً إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الذَّلِيلَ تَرْتَادُ الْمُؤَاسِينَا
أَسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ الْمُدَاوِينَا

والشاعر في هذه الأبيات حيران ، يجعل الطائر في حالين : حال المغترب ، وحال المقيم ، فما تدرى أيبكى من الغربة أم ينوح من فقد الأليف ، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال :

تَجُرُّ مِنْ فَنَنِ ذِيلاً إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الذَّلِيلَ تَرْتَادُ الْمُؤَاسِينَا

وهي حال نشهدها في الطائر المحزون ، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هُدًى من أَيْكَ إِلَى أَيْكَ ، فنعرف أنه يبحث عن يواسيه ، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين ؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال :

أَسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ الْمُدَاوِينَا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه ، وإنما يجد من يذبجه ويشويه ، والناس الأم من أن يَطْبُوا لَطَائِرَ جَرِيحٍ !

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء ولزمان إلى معاناة حبيته

فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء ، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر ، فقال :

وَاهَا لَنَا نَازِحِي أَيُّكَ بِأَنْدَلُسٍ	وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَائِنَا
رَسْمُهُ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ	نَجِشُ بِالْذَّمِّعِ وَالْإِجْلَالِ يَثْنِينَا
لِفَتْيَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمُعَهُمْ	وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلِينَا
لَوْ لَمْ يَسُودُوا بَدِينٍ فِيهِ مَنَبَهَةٌ	لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ	كَالْحَمْرِ مِنْ بَابِلٍ سَارَتْ لِدَارِينَا
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسَخَتُهُ	تَمَاطِلُ الْوَرْدِ خَيْرِيًّا وَنَسْرِينَا
نَسَقِي ثَرَاهُمُ ثَنَاءً ، كُلَّمَا نُثِرَتْ	دُمُوعُنَا نَظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عُيُونُ قَوَائِنَا تُحَرِّكُهُ	وَكَدَنَ يُوقِظُنَ فِي الثَّرْبِ السَّلَاطِينَا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات ، فالشاعر يغلبه الدمع ، وهو يتذكر ملوك الأندلس ، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء ، لأنه في ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله ، وذلك من أبعد الغايات في الثناء .

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية ، فهو في الأندلس لا يسرى من حرم إلا إلى حرم ، ولكن كيف ؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين ! وقدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء .

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل :

لَكِنَّ مِصْرَ وَإِنْ أَغْضَتْ عَلَى مِقَةٍ	عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَامُنَا	وَحَوْلَ حَافَتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَى وَسَامِي لَوْ يَصُوبُ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا نِيْطَتْ عَلَى تَمَائِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي تَرَاهَا
وَالْبِكْرُ هُوَ قَوْلُ شَوْقِي :

مَلَاعِبُ مَرَحَتٍ فِيهَا مَا رَبَّنَا وَأَرْبَعُ أُنِسَتْ فِيهَا أُمَانِنَا
وإنما كان هذا معنى بكرة لما فيه من طرافة الخيال ، أرايتم كيف ترح
المأرب ، وكيف تأنس الأمانى ؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١ ، وكان دعاني للغداء عنده
بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي ، وسعيد عبده ، وأحمد
علام ، فعجبت يومئذ لذلك المبتسم الساحر وسألت نفسي : كيف كان ذلك
الملاك في صباه !

إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق ، وإنما كان كذلك لأن الشاعر
شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون ، ودنيا شوقي لم
تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان ، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض
بالبشر والأياناس ، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر والفتون ،
وكان للجمال قدسية ، وكان للصبا سلطان ، وكانت خطوب الزمن لا تهدد
النفوس كما تفعل في هذه الأيام .

ومن البكر أيضاً قول شوقي :

بِنَا فَلَمْ نَخْلُ مِنْ رَوْحِ يُرَاوِحُنَا مِنْ بَرِّ مِصْرَ وَرِيحَانٍ يُغَادِينَا
كَأَمْ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفُلُنَا وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تُلْقِينَا

يريد أن يقول إن مصر لم تُلْقِه في يَمِّ النَّفْيِ إِلَّا خوفاً عليه من كيد فرعون ،
فرعون القرن العشرين المسترجون بول !

تذكرون قول ابن زيدون :

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِي بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهُوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
وَأَسْأَلُ هُنَاكَ هَلْ عَنِّي تَذَكُّرُنَا إِنْهَا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا

وهذا شعر جميل ، ولكن أنظروا كيف عارضه شوقي فقال :

يَا سَارَى الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَاقِينَا
لَمَّا تَرَفَّرَقَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًّا هَاجَ الْبُكَاءُ فَخَضَبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا
الَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دِيَابِجَهُ عَلَى نِيَامٍ وَلَمْ نَهْتِفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدَمٍ قِيَامَ لَيْلِ الْهُوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزَفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَارَّةٍ مِمَّا تُرَدَّدُ فِيهِ حِينَ يَضْوِينَا
بِاللَّهِ إِنْ جُبْتَ ظِلْمَاءُ الْعُبَابِ عَلَى نَجَائِبِ الثُّورِ مَحْدُودًا (يَجْرِينَا)
تَرُدُّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَةٍ إِنْسًا يَعْنُ فَسَادًا أَوْ شَيْطَانِيَا
حَتَّى حَوَّتْكَ سَمَاءُ النَّيْلِ عَالِيَةً عَلَى الْغَيْوُثِ وَإِنْ كَانَتْ مِيَامِينَا
وَأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ عَلَى وَشَى الزَّبَرْجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَاوِدِنَا
وَحَاذَكَ الرَّيْفُ أَرْجَاءَ مُوَرَّجَةٍ رَبَّتْ خَمَائِلُ وَأَهْتَرَّتْ بِسَالِينَا
فَقِفْ إِلَى النَّيْلِ وَأَهْتِفْ فِي خَمَائِلِهِ وَأَنْزِلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرَّيَّاحِينَا
وَأَسِ مَا بَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا بِالْجَادِثَاتِ وَيَضْوِي مِنْ مَغَانِينَا

انظروا : ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر ، وشوق يسأل البرق أن
يأسو المنازل الداوية ، والمغانى الضاوية ، والمعنيان مقتربان ، ولكن شوق
أعطانا صورة شعرية لتنتقل البرق من أفق إلى أفق ، وانحداره من أرض إلى
أرض ، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعراً
ودَّعَ دنياه حين ودَّعَ النيل .

وقال ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا

عارضه شوق فقال :

وَيَا مُعْطَرَةَ الْوَادِي سَرَتْ سَحَرًا فَطَابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
ذَكِيَّةَ الذَّلِيلِ لَوْ خِلْنَا غِلَاظَهَا قَيْصَ يَوْسُفَ لَمْ تُحْسَبْ مُغَالِينَا

جَشِمْتَ شَوْكَ الشَّرَى حَتَّى أَتَيْتَ لَنَا

بِالْوَرْدِ كُتْبًا وَبِالرَّيَا عَنَاوِينَا

فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَزْوَاجِ غَالِيَةً

عَنْ طَيْبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا

هَلْ مِنْ ذِيُولِكَ مِسْكِي نُحْمَلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشَيًّا مِنْ أَمَالِينَا

إِلَى الَّذِينَ وَجَعْنَا وَدَّ غَيْرَهُمْ دُنْيَا وَوَدَّهُمْ الصَّافِي هُوَ الدُّنْيَا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يَا نَسِيمَ الصَّبَا » ، وهو تعبير ورد في مئات
القصائد ، أما شوق فراح يَفْتَنُ افْتِنَانًا يدل على قوة الشاعرية ، وبراعة
الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي ، وأنها سارت في السحر فطاب
بمسرها كل مرعى سحيق ، وأنها ذَكِيَّةُ الذَّلِيلِ كأنها قيص يوسف ، وأنها

جَسِمَتْ شَوْكُ الشَّرَى حَتَّى أَتَتْ بِالْوَرْدِ مُجَسِّمًا فِي رَسَائِلَ ، وَأَتَتْ بِالرَّيَا مُمَثِّلَةً
فِي عَنَاوِينَ ، وَشَكَرَ لَهَا الشُّعْمَى فَقَالَ :

فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَزْوَاجِ غَالِيَةً عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا
وَابْنُ زَيْدُونَ يَقُولُ « بَلَّغْ نَحْيَتَنَا » وَهِيَ عِبَارَةٌ جَافِيَةٌ ، لِأَنَّهَا وَرَدَتْ فِي صُورَةِ
الْأَمْرِ ، أَمَا شَوْقِي فَيَتَرَفَّقُ ، وَيَقُولُ :

هَلْ مِنْ ذِيُولِكَ مِسْكِي نُحْمَلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشَيْئًا مِنْ أَمَالِينَا
وَابْنُ زَيْدُونَ يَصِفُ أَحْبَابَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى إِحْيَائِهِ لَوْ أَسْعَفُوهُ بِتَحِيَّةٍ ، وَشَوْقِي
يَجْعَلُ كُلَّ هَوًى غَيْرَ هَوًى أَحْبَابَهُ بِعَصْرِ صُورَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، أَمَا هَوًى أَحْبَابِهِ
الَّذِينَ يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ فِي صِفَاءِ الدِّينِ .

وَلَا نُنْكِرُ أَنَّ بَعْضَ أَخْيَلَةِ شَوْقِي مُقْتَبَسٌ مِنْ ابْنِ زَيْدُونَ ، فَقَوْلُ شَوْقِي :

يَاسَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَاحِينَا بَعْدَ الْهَدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَاقِينَا

اِخْتَلَسَ بِرَفَقٍ وَحِذْقٍ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُونَ :

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَاحِنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا

وَالْمَعْنَى الَّتِي عَرَضَهُ ابْنُ زَيْدُونَ فِي ثَلَاثَةِ آيَاتٍ بِسَطِّهِ شَوْقِي فِي ثَمَانِيَةِ عَشَرَ
بَيْتًا ، وَإِنَّمَا اتَّفَقَ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَعَارِضُ ابْنَ زَيْدُونَ فَكَانَ لَا يَدُلُّهُ مِنْ
تَوْشِيَةٍ بَارِعَةٍ تُعَفِّي عَلَى النُّظَرَةِ الْفِطْرِيَّةِ فِي آيَاتِ ابْنِ زَيْدُونَ . وَلِابْنِ زَيْدُونَ
فَضْلُ السَّبْقِ ، وَلِشَوْقِي فَضْلُ الْبَرَاعَةِ فِي تَلْوِينِ الصُّوَرِ الشَّعْرِيَّةِ ، وَهُوَ فَضْلُ
لَيْسَ بِالْقَلِيلِ .

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأُنس فقال :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُو أَيَّامِنَا فَغَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِن تَالُفِنَا وَمَرَبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةً قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
لَيْسَقَ عَهْدِكُمْ عَهْدُ الشَّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

وهذا شعر صافي الديباجة ، رائع المعاني ، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي
فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَنَّ كُنْفَ الرُّبَا رِفَةً^(١) أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غِيَاءَ زَاهِيَةٍ تَرَفُّ أَوْقَاتِنَا فِيهَا رِيَاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ وَالْدَّهْرُ مَا شِينَا
وَالشَّمْسُ تَحْتَالُ فِي الْعَقِيَانِ تَحْسَبُهَا بَلْقَيْسَ تَرَفُّ فِي وَشَى الْيَمَانِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا اخْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا
وَالسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالْدُّنْيَا لَوْ أُطْرِدَتْ وَالسَّيْلُ لَوْ عَفَّ وَالْمِقْدَارُ لَوْ دِينَا
أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّهَا ذَهَبًا مَاءَ لَمَسْنَا بِهِ إِلَّا كَسِيرَ أَوْ طِينَا
أَعْدَاهُ مِنْ يُمْنِهِ (التَّابُوتُ) وَأُرْتَسَمَتْ

عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا
لَهُ مَبَالِغُ مَا فِي الْخُلُقِ مِنْ كَرَمٍ عَهْدُ الْكَرَامِ وَمِشَاقُ الْوَفِينَا
لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَيَالِينَا^(٢)

وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أَعْتَبِهِ مَنَّا جِيًّا وَلَا أَرْخَى مِيَادِينَا
 نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا وَلَمْ يَهْنُ يَدُ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
 وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْعٌ وَلَا خُلُقٌ إِذَا تَلَوْنَ كَلِحَ رَبَاءِ شَانِينَا
 والقارىء حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدرى أيهما أجود ، لأن
 ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :
 وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونِ الْأَنْسِ دَانِيَةً قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِئِينَا
 وبلغ غاية الدقة حين قال :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلَّفِنَا وَمَوْرِدُ اللَّهِوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا
 بفضل التألف ، تألف القلبين ، واللهو لم يصف موارده إلا بفضل التصافى ،
 تصافى الحبيبين ، والدنيا لا كدّر فيها ولا صفاء ، وإنما تصفو حين تصفو
 النفوس ، وتتسوح حين تقسو القلوب ، فالزهر الذى يبسم لك لا يبسم لك وحدك ،
 وإنما تراه يُخَصُّك بالرفق لأن الدنيا صفت لك ، وقد يراه غيرك فى ابتسامه
 صورة من صور العبوس ، والنهر الذى تنظر إليه فى الليالى المقمرة فتراه
 عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته فى حنان ، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك
 إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلبٍ مَرِحٍ وحسٍّ طُرُوبٍ ، وهو نفسه
 قد يبدو للمحزون صورة من صور الأكتئاب .

ويروقنا قول شوقي :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَافِ الرُّبَا رِفَةً أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِينَا
 إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غَيْنَاءَ زَاهِيَةً تَرَفُّ أَوْقَانُنَا فِيهَا رِيَا حِينَا

الْوَصْلُ صَافِيَةٌ ، وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ ، وَالذَّهْرُ مَا شِئْنَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالذُّنْيَا إِذَا اخْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا
يروقنا هذا الشعر ، لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في
أكناف الربوات ، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهاً باللين في أعطاف
الصبا ، وأعطاف الصبا جوهره نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكنته
من أعطاف الصبا سَوْرَةُ الصَّبَوَاتِ ، يروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« تَرَفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رِيَا حِينَا »

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أَرْجُوحَةِ
الهُوَ الْجَمُوحِ .

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدينا
حين تحتفل ، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ، ثم تأملوا روعة
هذا الاستدراك :

« لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا »

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل
محبوبته كل شيء حين قال :

يَا رَوْضَةَ طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظُنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةَ تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتٍ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشْيِ نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة في
الهُتَافِ بِالرَّوْضَةِ الَّتِي « طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظُنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا » تأملوا عبارة

« أَجْنَتُ لَوْ أَحِظْنَا » وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناتها المرموق ، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يحنى القطوف . وعبارة « جَلَاهُ الصَّبَا » ما رأيكم فيما تحويه من سِحْرٍ أَخَذَ ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف : « مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتٍ أَفَانِيَا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوانٌ وَلَذَاتٍ أَفَانِيَا ؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرّةً في كوثر الوصال .

وانظروا هذا البيت :

وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشِي نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
أَتُحْسِنُونَ قُوَّةَ هَذَا الْمَعْنَى ؟ أَلَا يُرِيكُمْ الْخِيَالُ صُورَةَ فَتَى مَنْعَمٍ يَسْحَبُ ذَيْلَ
النَّعِيمِ ؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في التّجسّر على
ما ضاع من دُنْيَا الهوى المفقود .

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين ، أما ابن زيدون فيقول :
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدَلْنَا بِسِلْسِلِهَا وَالْكُوثَرَ الْعَذْبَ زَقُومًا وَغَسَلِينَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالْدَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظَّلمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لَا غَرْوَ أَنَا ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرِبْنَا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا

لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْنُكُمْ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَبَّنَاكَ عَنْ كَشَبٍ
والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف ، ويرى نفسه
انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ، ويرى ورد الهوى القديم
شرباً لا يعدله شرب ، وإن كان يرويه فيظميه . ونعيم الوصل يرهف الحس
فيزيد القلب ظمأً إلى ظمأ والتياحاً إلى التياح . وتحدث الشاعر عن البين
فذكر أنه لم يقع عن سلاوة ولا صدود ، وإنما أكرهته العوادي .
ويروقنا هذا التعبير الموق :

« لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْنُكُمْ »

فكان الدنيا كانت لعهد أفقاً من المفاتن ، وكانت محبوبته كوكب ذلك
الأفق المطلول بأنداء الفتون .

هذا جَزَعٌ مِنْ صُنع الدهر صرخ به ابن زيدون ، وعارضه شوق
فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

وَنَابِغِي كَأَنَّ الْحَشَرَ آخِرُهُ
نَطَوَى دُجَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
ثُمَّتْنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمْ وَتُحْنِينَا
يَكَاذُ فِي غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
حَتَّى يَزُولَ وَلَمْ تَهْدَأْ تَرَاقِينَا
حَتَّى قَعَدْنَا بِهَا حَسْرَى تُقَاسِينَا
لِلشَّامِتِينَ وَيَأْسُوهُ تَأْسِينَا
يَبْدُو النَّهَارُ فِيْهِ تَجَلُّدُنَا

وهذا من الشعر الرفيع ، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف ، وإلا
فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت :

نَطْوَى دُجَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو يَسْكَدُ فِي غَلَسِ الْأَشْجَارِ يَطْوِينَا
أَتَرُونَ كَيْفَ يُطْوَى الدُّجَى بِالْجُرْحِ ؟ أَتَرُونَ كَيْفَ تَكُونُ الْجِرَاحُ أَعْظَمُ مِنْ
ظِلْمَاتِ اللَّيْلِ ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسى الشاعر بقاء الكواكب ، ثم
ينظر فيراها أُتْبِلِيَتْ به فباتت تقاسيه ، وهى حسرى لواغب ؟ والشاعر قد
يَعْظُمُ سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وَتَأْسَى لِأَسَاه .
وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من
الشواغل ، أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهائاً إلا بفضل التأسى
والتجملد للشامتين .

بقى النظر فيما تفرّد به الشاعران .
ونحن نرى ابن زيدون تفرّد بهذين البيتين فى خطاب حبيبته التى أقصاه
عنها الزمان :

نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُتَّتْ مُشْعَشَعَةٌ فِينَا الشَّـمْلُ وَغَنَانَا مُغْنِيْنَا
لَا أَكُوْثُ الرِّيحَ بُدَى مِنْ شَمَائِلِنَا سِيَمَا أُرْتِيَا حَ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا
وهذا من أدق المعانى النفسية ، فالشراب والغناء يهيجان العواطف
الغافية ، ويبعثان الوجد الدفين ، وللشوق فى أمثال هذه اللحظات لذعات
أعنف من الجمر المشبوب ، وأين الجمر بجانب ما يشور فى القلب عند الشراب
والسمع ؟ إن هذه لحظات تكشف الْمُقَنَّعَ من سرائر النفوس ، وتصنع

ما تصنع الحمى العاتية حين تُنطقُ المحموم بأسماء لم يَهْدِ بها لسانه ولا وجدانه
منذ سنين .

وقول ابن زيدون :

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَذَرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِيَنَا

هو أصل المعنى الذى ساقه شوقي فى السينية :

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وهو أَخَذَ رَفِيقٌ لَا يُحَاسِبُ عَلَى مثله الشعراء .

وتفرد شوقي بالفخر ، الفخر بنفسه وبأعجاز النيل ، فقال :

لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَيَالِينَا

وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أَعْيَتِهِ مِنَّا جِيَادًا وَلَا أَرْخَى مَيَادِينَا

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا وَلَمْ يَهْنُ يَمْدُ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ إِذَا تَلَوَّنَ كَالْحَرَبَاءِ شَانِينَا

لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مَيْدَانًا وَلَا صَعِدَتْ فِي مُلْكِهَا الضَّخْمُ عَرَشًا مِثْلَ وَاوِينَا

أَلَمْ تُؤَلِّهِ عَلَى حَافَاتِهِ وَرَأَتْ عَلَيْهِ أُنْبَاءَهَا الْفَرَّ الْمَيَامِينَا

إِنْ غَاظَلَتْ شَاطِئُهُ فِي الضُّحَى لِبَسَا خَمَائِلَ السُّنْدُسِ الْمَوْشِيَّةِ الْغِينَا^(١)

وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِ الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ لَوَافِظَ الْقَزِّ بِالْخَيْطَانِ تَرْمِينَا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع ، وهل عبد المصريون

الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود

تافه سخيف !

(١) الغين : جمع أغين ، وهو الأخضر ، والمؤنث غيناء .

وشوقى لم يعن إلا نفسه حين قال :

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا وَلَمْ يَهْنُ بِيدِ التَّشْيِيتِ غَالِينَا
وقد صدق ، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهذ الجبال ، وانتاشه الخوصوم
أسوأ انتياش ، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب
هذمه ، وإن تكاثرت المعاول وأستحصدت سواعد الخادمين .

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال :

وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ قَبْلَ الْقِيَاصِ دِنَاهَا فَرَاعِينَا
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
كَانَ أَهْرَامَ مِصْرَ حَائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانُ بَانِينَا
إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ عَلِيَا مَقَاصِرِهِ يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُنْقِي الْأَوَّلِينَ^(١)
كَانَتْهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا التَّطَمَتُ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا
كَانَتْهَا تَحْتَ لَأَلَاءِ الضَّحَى ذَهَبًا كُنُوزُ فِرْعَوْنَ غَطَّيْنَ الْمَوَازِينَا

وللقارىء أن يتأمل هذه الأبيات ، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت :

وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت :

كَانَ أَهْرَامَ مِصْرَ حَائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانُ بَانِينَا
وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت :

كَانَتْهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا التَّطَمَتُ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا
ذلك شوقي ، وتلك آياته البينات :

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني ، وتفرد شوقي بوصف
الجمال الطبيعي ، أعطى ابن زيدون محبوبته صورةً هي تحفة في الصور
الإنسانية ، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورةً هي غرّة في الصور الطبيعية ،
أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل ، وأما محبوبية ابن زيدون فقد
صورها بهذه الأبيات :

رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ	مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِيناً
أَوْ صَاغَهُ وَرَقاً مَخْضاً وَتَوَجَّاهُ	مِنْ نَاصِيعِ الثَّبْرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِيناً
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً	تَوْمُ الْعُقُودِ وَآدَتُهُ الْبُرَى لِيناً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُرْفًا فِي أَكْلَتِهِ	بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ	زُهْرُ الْكُوكِبِ تَعْوِيداً وَتَزِيناً
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ تَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا	وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاْفِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصبّاحة . وفي الحُسْنِ أُلُوفٌ مِنَ الْأَفَانِينِ
يعرفها الراسخون في عِلْمِ الْجَمَالِ ، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم ، والزهر
النضير الذي يُضَاحِكُ الشَّمْسَ في حديقة غناء بقصر من قصور الملوك غير
الزهر الظمآن المنسي الذي يَتَفَتَّحُ وهو مهجور في رُبُوعٍ قاصية لا يعرفها غير
الذئاب . إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف ، ولكل لون من ألوان
الجمال وحي خاص . وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال ، وهل يمكن أن يكون
ما يُوحِيهِ الْجَمَالُ الْمُحَجَّبُ شَيْهًا بما يُوحيهِ الْجَمَالُ الْمُبَاحُ ؟ إن الطبيعة قد يبدو
لها أحياناً أن تُكَادِيَ النَّاسَ فَتُنْشِئُ مِنَ الْحُسْنِ فِي حَيِّ بُولَاقٍ مَا تَغِيظُ بِهِ

الناعمين في حيّ القصر العالى^(١) ، ولكنها لا تغلح ، فالجمال الذى ينبت في
البيئات الشوقية يظل سوقى الشمائل والنوازع ، أما الجمال الذى يتفتح في
البيئات المنعمة فيظل ملحوظاً المشارب والميول .

فمعمشوقة ابن زيدون ربيبةُ مُلك ، وربيبةُ الملك تألف السيطرة منذ أيام المهدي ،
ويظل دلالها طول الحياة دلالاً سماوياً يأخذ فيضه من قوة الطبع ، لا من لؤم
التمتع ، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان . وابن زيدون يتمثل
محبوبته خلقت من المسك ، ويرى الناس ما عداها خلّقوا من طين ، وكلمة
(طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون ، إلا أن يكون أراد الإشارة إلى
بعض الناس ، والمرء حين يغضب يرى الناس خلّقوا من طين ، وإن كان
الطين أشرف من بعض من يرى من المخلوقات ، والطين ثربةٌ يحيا
بها الزهر ويتغذى منها الشوك ، وفوقه تتخطر الضباء ، وعليه ترحف
الأفاعى والصّلال .

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً ثَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتُهُ الْبَرَى لِيناً

والجمال الذى تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلائيل جمال غصّ رقيق
يشبه في رفته نواظر العيون ، ولفائف القلوب ، وهذا الجمال منشور في المدائن
نثر الزهر واللؤلؤ ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة
العظيمة ، نعمة البصر والحسّ والدّوق ، لولا الجمال المنعم المصنّون الذى
لا يطمع في تقيّ ظلاله غبي ولا لئيم لَأَقْفَرَتِ الدُّنْيَا مِنَ الشَّعْرِ وَخَلَّتْ مِنْ

(١) القصر العالى : حى بالقاهرة يشارف النيل ، ويسميه السخفاء (جاردن سبقي) .

الأنفاسِ العِطِرةَ أنفاسِ الشعراءِ ، لولا الجمالُ المنعمُ المصون الذي لا يطمع في
تَقْيُّ ظلاله غبي ولا لثيم لما استَطَابَ شاعرُهُ سَهَرَ الليلِ ، وألمَ الجفونِ ،
وهل يُعَيِّ القلبُ في سبيلِ الجمالِ المبتذلِ الذي ترنو إليه جميعُ العيونِ ؟
إن الجمالِ المُبْتَذَلِ شبيهه بالكوكبِ المتهالكِ الذي لا تألم من النظرِ
إليه عَيْنُ رَمْدَاءَ ، أما الجمالُ المنعمُ المصون فشبهِه بالشمسِ لا يقوى على النظرِ
إليه إلا الفحولُ من الشعراءِ ، والأقطابُ من الكتَّابِ ، هو الجمالُ الفردُ ،
ولا يصاوله إلا الرجلُ الفردُ ، وإن كان يتواضعُ فيقول :

مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا
هذا تواضعٌ ، فإن جوهرَ الحبِّ في قلبِ الشاعرِ أنفُسُ من جوهرِ الحسنِ
في وَجْهِ الجميلِ ، وهل تُعَرِّدُ معاني الصبابةِ في الوجهِ المليحِ كما تُعَرِّدُ عرائسُ
الشعرِ في قلبِ الشاعرِ الذي يلتقي الأنوارُ والظلماتُ وحوله جيشٌ من الهوى
المتمرِّدِ والوجدِ المشبوبِ ؟

إن قلبَ الشاعرِ جوهرُ نفيسٍ ، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ
جمالَ الصبحِ المشرقِ ، ولا تنبه مخلوقٌ إلى لَمَحِ الكواكبِ ولألاءِ النجومِ ،
ولا تلفت باحثٌ إلى شعرِ ابنِ زيدون ، وقد طمره الزمنُ بتسعةِ أحجارٍ تسمى
تسعة قرون .

ثم ماذا ؟ بَقِيَ أَنْ نَشْرَبَ صُبَابَةَ الكَأْسِ مِنْ نَوْنِيَةِ شَوْقِي ، وكلُّ صُبَابَةٍ
في الكَأْسِ صابٌ ، بَقِيَ أَنْ نَتَوَجَّعَ لبلواه وهو يتشوّقُ إلى مصرٍ فيقول :

أَرْضُ الْأُبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا مَرُّ الصَّبَا فِي ذُيُولِ مَنْ تَصَايِنَا
كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا غُرًّا مُسْلَسَلَةً الْمَجْرَى قَوَافِنَا
فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَاعِبِنَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِنَا
وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيَا فَدَعَتْ (بَانَ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا)
لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الْجَوْ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحْرَ غَسْلِينَا
سَعِيًّا إِلَى مِصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرِنَا فِيهَا إِذَا نَسَى الْوَافِي وَبَاكِينَا
أَرَأَيْتُمْ هَذَا الشَّعْرَ ؟ أَرَأَيْتُمْ الْخِيَالَ فِي هَذَا الْبَيْتِ :

فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَاعِبِنَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِنَا
أَرَأَيْتُمْ صُورَةَ الْهَوْلِ الْمُقْتَحِمِ فِي هَذَا الْبَيْتِ :

لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الْجَوْ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحْرَ غَسْلِينَا
ثُمَّ مَاذَا ؟ بَقِيَ خَتَامُ الْقَصِيدَةِ ، وَهِيَ آيَاتُ مَا قَرَأْتُمَا إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى أُمِّي يَرْحُمُهَا
اللَّهُ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ هَفَا قَلْبُ الشَّاعِرِ إِلَى أُمِّهِ فِي حُلُوفِ :

كَتَزُّ بِحُلُوفَانِ عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمَوَدِّينَا
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيْبَتَنَا لَمْ يَأْتِهِ الشَّوْقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمِصْرَ أَوْ لَهُ شَجَنًا لَمْ نَذِرْ أَيْ هَوَى الْأُمْنَيْنِ شَاجِينَا
طِيبَ اللَّهِ ثَرَاكَ أَيُّهَا الشَّاعِرُ ، وَرَحِمَ وَالِدَيَّْ وَوَالِدِيكَ ، فَالدَّعَاءُ فِي أَعْقَابِ
شِعْرِكَ كَالدَّعَاءِ فِي أَعْقَابِ الصَّلَوَاتِ .

البحث السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعتقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس ، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه ، وما أبدع الشعراء من بعد في معارضة قصائده المشهورات ، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء .

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي) :

« ليس تعتمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء ، بل هو محض صناعة ، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور ، لا بهرج سطحي زائف ، وقد تقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة ، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة ، فأثار ذلك نفسه الشاعرة ، مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين ، ومعارضة كيتس لسبنسر ، وقد كانت تلك المعارضة أول تجربة شعرية لكيتس ، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة ، وأثر وحيها في النفس » .

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعرًا ، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب ، وهذا كلام عرفنا صحته حين

وازنًا بين المعارضات ، فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبدًا لمن يعارضه ، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع ، والمعارضة في صميمها هي تلاقى روحين ، وأتلاف قلبين ، أو اصطدام نفسين ، واقتتال عبقريتين .

فمن المعارضات التي وقعت بائتلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والخرّاز ، فإن أبا نواس لما قال :

يَا رَيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا	أَكْتُبْ شَوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمَا
مَنْ صَارَ لَا يَعْرِفُ الْوِصَالَ وَقَدْ	زَادَ فُؤَادِي فِي حُبِّهِ وَنَمَا
غَضَبَانِ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ	يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُ مِنْهُ عَاشِقُهُ	فِي جَمْعِ عُذْرِ مَنْ غَيْرِ مَا أُجْتَرَمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَجَرٍ	وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا
أَظْلُ يَقْظَانِ فِي تَذَكُّرِهِ	حَتَّى إِذَا نَمْتُ كَانَ لِي حُلَمَا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخرّاز ، فقال :

إِنْ بَاحَ قَلْبِي فَطَلَمَا كَتَمَا	مَا بَاحَ حَتَّى جَفَاهُ مَنْ ظَلَمَا
وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الْجَفَاءِ فَتَى	قَدْ مَاتَ أَوْ كَادَ أَوْ أَرَاهُ وَمَا
أَشْكُ أَنْ الْهَوَى سَيَقْتُلُنِي	مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا يُرِيقُ دَمَا
كَيْفَ أُحْتِمَالِي لِشَادِنٍ غَنِيَجٍ	أَصْبَحَ بَعْدَ الْوِصَالِ قَدْ صَرَمَا
مَا قُلْتُ لِمَا عَلَا الصَّدُودُ بِهِ	يَا رَيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا
لَكِنْ سَفَحْتُ الدُّمُوعَ مِنْ حَزَنِ	لَمَّا تَمَادَى الصَّدُودُ ثُمَّ نَمَا
إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أَتَاكَ بِمَا	أَتَاكَ عَنِّي قَدْ حَرَّفَ الْكَلِمَا

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم ، وهى من الممتع المتنع ، وفيها
ومضات من السحر المبين ، وأى غزل أرق وأظرف من هذا البيت الذى
يعدُّ من أدق ما قيل فى تلون الملاح :

غَضْبَانَ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ يُسْأَلُ نِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا

وقوله فى فتك العيون :

لَوْ نَظَرْتَ عَيْنُهُ إِلَى حَجَرٍ وَلَدَّ فِيهِ قُتُورُهَا سَقَمًا

وقوله فى أخذ الهوى بأحلام الحب :

أَظْلُّ يَقْظَانَ فِي تَدَكُّرِهِ حَتَّى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِي حُلْمًا

أما أبيات الخراز فهى من الشعر المقبول ، وليست من الشعر الجيد ، وقد
ربط فيها بعض المعانى ببعض على طريقة لم تألفها الأذواق العربية ، ولولا
أنها قيلت فى معارضة أبي نواس لما نقلها راوية ، ولا حفظها كتاب .

ومن المعارضة التى جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس ، وبين
العباس بن الأحنف ، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل
الثقة والإعجاب . والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة ،
فقد جمع بينهما الغزل والظرف ، وصفاء الروح ، بالرغم من اختلاف
المذهبين ، فقد كان أبو نواس متلونا فى الحب يتنقل من فنن إلى فنن ، على
حين كان ابن الأحنف قد وقف قلبه على هوى واحد ، هو محبوبته « فوز »
التي خلد اسمها على الزمان .

حدث حمزة الأصفهاني قال : اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف

فى مجلس فقام عباس لحاجة ، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفى شعره فقال :

هو أرق من الوهم ، وأنفذ من الفهم ، وأمضى من السهم ، ثم عاد عباس
وقام أبو نواس كذلك فسئل عنه عباس ، وعن رأيهِ فيه وفي شعرهِ ، فقال : إنه
لأقر للعين من وصل بعد هجر ، ووفاء بعد عذر ، وإنجاز وعد بعد يأس .
فلما صاروا إلى النبذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه ، فقال أبو نواس :

إِذَا أُرْتَدَّتْ فَتَى الْكَاسِ فَلَا تَعْدِلْ بِعَبَّاسٍ

فقال العباس :

إِذَا نَارَعْتَ صَفْوَ الْكَاسِ يَوْمًا أَخَا ثِقَةٍ فِثْلَ أَبِي نُوَّاسٍ
فَتَى يَشْتَدُّ حَبْلُ الْوُدِّ مِنْهُ إِذَا مَا خُلَّةٌ رَثَتْ لِنَاسٍ

فتناول أبو نواس قدحًا وقال :

أَبَا الْفَضْلِ أَشْرَبَنَ ذَا الْكَاسِ إِنْ شَرِبْتُ شَارِبُ كَاسِي

فقال العباس :

نَعَمْ يَا أَوْحَدَ النَّاسِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ حَافَ لَنَا الْمَجْلِسُ بِالنَّسْرِينِ وَالْأَسِ

فقال العباس :

وَإِخْوَانِ بَهَائِلِ سَرَاةٍ سَادَةِ النَّاسِ

فقال أبو نواس :

وَخَوْدِ لَذَّةِ الْمَسْمُوعِ عِ مِثْلِ الْفُصْنِ الْكَاسِي

فقال العباس :

وَقَدْ أَلْبَسَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ أَحْسَنِ الْبَاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ زِينَتْ بِإِكْلِيلِ يَوَاقِيتٍ عَلَى الرَّاسِ

فقال العباس :

فَلَا تَحْبِسْ أَخِي كَأَسَا فَإِنِّي غَيْرُ حَبَّاسٍ

قال الأصفهاني : فكان مانسى من معارضتهما أكثر مما حفظ .

ويدكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبرى ، و خليل مطران ،
فقد مشى يوماً صبرى باشا بأحد شوارع القاهرة ، فرأى مطران يشرب
الصهباء على قارعة الطريق ، فقال صبرى باشا : يا مطران ، لا يليق بمثلك أن
يشرب تحت أبصار الناس ، فابتدره مطران ، وقال :

وَهَلْ يَضِيرُ الْمَجْدَ أَنْ أَشْرَبَا وَأَجْعَلَ الْحَانَةَ لِي مَلْعَبَا

فطرب صبرى باشا ، وقال :

وَأَنْ يَرَانِي كُلُّ مَنْ مَرَّ بِي وَسَطَ الدَّيَاجِي حَامِلًا كَوْكَبَا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته
عن القصة ، فقال : كان يقع لنا من ذلك شيء كثير ، أما أنتم يا شعراء هذا
العصر ، فقد بددت الشواغل أحلامكم ، ولم يبق لكم من روعة المطارحة
نصيب . . . وقد صدق مطران !

واتفق يوماً أن لقي مسلم بن الوليد رسولاً لأبى نواس يحمل رقعة إلى
عنان ، وفيها هذه الأبيات :

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى سِرِّي وَسِرِّكُمْو غَيْرِي وَغَيْرِكَ أَوْطَى الْقَرَّاطِيسِ

أَوْ طَيْرَ فَيُرْوَجُ (١) إِنِّي سَأَبْعُهُ
قَدْ كَانَ صَاحِبَ تَأْلِيلٍ وَتَدْسِيسِ
وَكَانَ هَمَّ سُلَيْمَانَ لِيَذْبَحَهُ
لَوْ لَا قِيَادَتُهُ فِي أَمْرِ بَلْقَيْسِ
فَأَخَذَ مُسْلِمُ الرِّقْعَةَ مِنَ الرَّسُولِ وَخَرَقَهَا فَانصَرَفَ الرَّسُولُ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ
فَأَخْبَرَهُ بِمَا صَنَعَ مُسْلِمٌ بِرِقْعَتِهِ ، فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ :

لَمْ يَقْوِ عِنْدِي عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
إِلَّا فَتَى قَلْبُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَالِي
إِنَّ الْقِرَاطِيْسَ فِي قَلْبِي بِمَنْزِلَةٍ
كَمْوَضِيعِ السَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
لَوْ لَا الْقِرَاطِيْسُ مَاتَ الْعَاشِقُونَ مَعًا
هَذَا بِنِعَمٍ وَهَذَا كُمْ بَوْسَوَاسِ
فَلَيْتَ أَنَّ إِمَامَ النَّاسِ سَلَّطَنِي
قَلَمٌ أَدْعَى خَارِقًا فِيهِمْ لِقِرْطَاسِ
حَتَّى أَصْبَحَهُ مِنْ حَيْثُ مَأْمَنُهُ
كَأَسَا مِنَ الْمَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حَايِي
مَا أَعْجَبَ الْخَارِقَ الْقِرْطَاسَ أَقْرَأَهُ
يَأْسًا فَحَرَّقَهُ مِنْ حَايِرَةِ الْيَاسِ
مَاذَا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَ كَاتِبَهُ
أَلَيْسَ قَدْ مَشَقَّتْ فِيهِ أَنْامِلُهُ
وَجَازَ أَقْلَامُهُ فِيهَا بِأَنْفَاسِ

و بلغت هذه الآيات مساماً فعارضه فقال :

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِ
الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ
فَشَقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى صَيَانَتُهُ
كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَاسِي
إِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
فَاجْعَلْ كَرَامَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ
فَشَقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى وَكُنْ فَطِنًا
كَمْ ضِيعَ السَّرُّ فِي حِفْظِ لِقِرْطَاسِ
فَأَجَابَهُ أَبُو نَوَاسٍ :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
هَلْ كَانَ عِنْدَكَ فِي الْقِرْطَاسِ مِنْ بَاسِ

سَبَبَتْ كَاتِبَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبَ

هَلْ كَانَ فِيهِ سِوَى شَكْوَى إِلَى نَاسٍ

كَتَبْتُ أَشْكُو بَلِيَّاتِي فَسَاءَ كُفُو مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى النَّاسِ
وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة
لذلك العهد ، ولكن الذين ساءلوا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة
الرسائل الغرامية كانت يوماً من المشكلات ، حتى صح لمثل أبي محمد بن حزم
أن يعقد لها فصلاً في طوق الحماة ، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما
اهتم بها ذلك الإمام الجليل .

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في
هذا العصر ، فأهل هذا الزمن يتصنعون الوقار ، ويتكلفون الاحتشام ، وتبدو
منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها
ملوثة بعيب أشنع من المجون ، وهو الرياء .

ولكن مهلاً . من الذي يحكم بأن من العيب أن يكون للرسائل الغرامية
أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد ؟ ألسنا نرى في أيامنا هذه كيف تقدم
الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد ، وتثبت بها حقوق
تصل أحياناً إلى المواريث ؟

إن النفس الإنسانية ستظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في
حيوات الناس ، وأكثر من ترون من العظماء : هم أطفال في عالم الحب ، وقد
تكون تلك الطفولة هي أساس العظمة عند من يفقهون .

ألم تر كيف كان فيكتور هو جو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل
من أسرار القلوب ؟

ألم تر كيف كان جوت يتكلف الحب ليعرف المستور من
خلائق النساء ؟

ليس العلم كل العلم أن ترى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف
كيف تصح ، وكيف تمرض ، وكيف تحس ، وكيف تعقل ، وكيف تحيا ،
وكيف تموت . ليس هذا كل العلم ، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله
أموال ، وأنشئت من أجله معاهد وكليات . للعلم ميادين أعلا وأشرف
هي ميادين السرائر والقلوب ، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء .



البحث السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره ، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل ، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء ، وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق ، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب ، استطاع أن يكون ملقياً الروحين العظيمين : روح العرب وروح الفرس ، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه الشهرة الأدبية : لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الحجر ، ولم يكن أهلها يوماً من كبار الشاربين ، وإن زعموا أنها تفردت بشراب « المريوتيك » الذي أسكرت به كيلوباترة من أسكرت من عشاقها الأبطال .

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب ، لأن جوّها لا يصلح كثيراً لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الحجر ، على نحو ما يتفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية ، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالاً طوالاً وهم لا يعرفون من الحجر إلا صنوفاً رديئةً يحتفظ بها جماعة من الأقباط توارثوها عن أجدادهم ، فكانوا شرّ ورثة لأقبح ميراث ! ولا كذلك العراق ، فقد عرف الحجر منذ عهد الآشوريين والكلدانيين وظل يفتن في تقطيرها أظرف افتنان . وقصائد ابن الرومي في وصف العنب

تدل على أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس ، لأنهم كانوا
يتمثلون فيه ما يضمّر من أسرار الصهباء .

وحرمان مصر من جيد الحمر يشرح جانباً مهماً من حياتها العقلية ،
فقد نبغت مصر نبوغاً عظيماً في التأليف ، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد
الذي أتبع أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع ، وإنما كان
الأمر كذلك لأن « الصحو » من أقوى الشواهد على سلامة العقل ، أما
الأقطار العربية التي عرفت الحمر ، فكانت لها ميادين غير التأليف ، كان لها
الشعر والخيال ، على نحو ما نرى في الأندلس ، والشام ، والعراق .

وهذا الحكم لا نريد به التعميم ، فمن التعسف أن نقول إن الشعر انعدم
في مصر ، أو إن التأليف انعدم في غير مصر ، لا ، وإنما نحكم بأن الخصائص
الأساسية تختلف هنا وهناك ، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد
منذ خلق ، فلم يكن فيهم فاجر ، ولا زنديق ، على نحو ما توثب الفجور
واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق .

والشاهد أملي واضح صريح : هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز
والخليع ، وأبي نواس ، ففي هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون .
وإليك الحديث .

وصف أبو نواس الحمر فقال :

دَعْ عَنْكَ لَوْحِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالنِّتِّ كَأَنَّ هِيَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال :

بَدَّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ^(١) وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
وعارضه ابن المعتز فقال :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارها الهمزية النواسية ، فأغلب الظن أن
أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون ، ولكنه خاطب
أهل العراق فخاطب قومًا يعرفون من الخمر ما يعرفون .

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية ، وكانت الموازنة بينها
وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس ، ومضى الحديث إلى مكة ، مكة
المكرمة التي شرعت للعالم بغض الصهباء ، نعم في مكة وجدوا فقيها يفصل
بين همزية ابن الضحاك ، وهمزية أبي نواس .

انظروا في هذا ، واسألوا أنفسكم : أيمن نقل الحديث من مكة
المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟

هيئات ، هيئات !

وإنما جاز في مكة ما لم يجوز في مصر لأن مصر كما حدثكم لا تعرف
الخمر ، وإن كان الخواجة خرامبو فتش فيها عشرات الحانات .

مصرفضولية في شرب الشمول ، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله ،
فلا تقول : هات وهاك !

لا تحسبوني أمزح ، فالمصري لا يتقع غلته غير الماء القراح ، وقد ترونه

(١) الآء : ثمر شجر ، واحده آءة . قال الفيروزابادي : وأوت الأديم دبغته به ، والأصل :
أوت فهو مؤء والأصل مأووء .

في مجالس السلاف يصرخ نجاة في طلب كوب من الماء ، والطبيعة الأصلية
تميز خصائص الشعوب .

ما هذا ؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاث ، لأنني لا أجد
من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق .

ولنواجه الموضوع فنقول :

همزية أبي نواس لا تريد على عشرة أبيات ، ولكنها تحدثنا عن أمور
جوهريّة في حياة العراق ، تحدثنا أولاً عن قيمة الخمر في العلاج ، وهي عادة
عراقية ، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية ، فقد رووا أن الأعشى قال :

وَكَاسٍ شَرَبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعراً فاجراً عرف الخمر والنساء . ومشت به شهواته إلى
الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء .

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال :

دَعْ عَنْكَ لَوْحِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِي بِلَاتِي كَأَنْتَ هِيَ الدَّاءُ
وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بنى عامر فقال :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهُوَى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

والتداوى بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات ، وله فتوى في العدد الأخير
من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة « والله أعلم » كأن الله لم يهد خلقه إلى
بعض أسرار الصهباء .

وتحدثنا الهمزية ثانياً عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد ، وتلك

العادة هي إلباس الجوارى ملابس الغلمان ، والظاهر أن الفتنة في عالم الجمال

لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب ، فكانت الجارية لا تلج إلا مذكرة ، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرق والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفى جمعة في رواية (عائدة) التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السويس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جداً ، واندفع يقبلها بعنف حتى آدمى خديها بالتقبيل .

وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوروبا يلبسن ملابس الفتيان ، فإن لم يكن هذا بدءاً حديث العهد ، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطعاهم الغنى والملك .

وهذا بيت أبي نواس :

مِنْ كَفِّ ذَاتِ حَرٍّ فِي زِيٍّ ذِي ذَكْرٍ لَهَا مُجَبَّاتٍ لُوطِيٍّ وَزَنَاءٍ
والدعارة واضحة في هذا البيت ، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر ، وناقل
الفسق ليس بفاسق .

وتحدثنا الحمزية ثالثاً بأن فسقة بغداد كانت عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتماد على عفو الله ، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب : لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال ، والاعتداد بالأعمال يناقض أدب الأبرار ، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال :

لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ
تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد ، فلم يبق إلا النص على مافي قصيدته من المعاني الشعرية :

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت :

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَّاءُ
أما نحن فنستجيد قوله في الراح :

فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءً
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَأُمُهَا لَطَافَةً وَجَفَاءً عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءِ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة ، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة :

« كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءً »

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان .

وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء ، ورجعها إلى
التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور ، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع
خمر الفردوس .

أما قوله :

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْوُ إِلَّا بِمَا شَاءُوا

فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية
الزمان ، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الراح من الجاهلين ، ويقول :

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

وهي سخرية لم يوجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف .



تلك همزية أبي نواس ، فماذا قال الخليل الحسين بن الضحاك ؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين
أشواك البادية ، فقال :

بُدِّلَتْ مِنْ تَفَحَّاتِ الْوَرْدِ بِالْأَشْوَاكِ وَمِنْ صُبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
مَا يَبِينُ بَطْنِ ثَبِيرٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا إِلَى الْفُرَادِيسِ إِلَّا شَوْبُ أَقْدَاءِ
فَعَدَّ هَمَّكَ عَنْ حِلْفٍ تُمَارِسُهُ جِلْفٍ تَلْفَعُ طِمْرًا يَبِينُ أَخْنَاءُ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزع شعوبية كان لها في ذلك العهد
مجال ، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملئون القدح في شمائل
الأعراب ، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي
الفاخرة والحاتمة لكل قصيد ، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة
الحضارة فيقول :

فَفِي غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْرَاءِ صَافِيَةٍ بَطِيرٍ نَابِذَ مَاءٍ لَيْسَ كَلَمَاءُ
مِمَّا تَخَيَّرَ أَوْلَاهَا وَأَوْدَعَهَا رَبُّ الْخَوَزَنَقِ فِي جَوْفَاءِ مَيْثَاءِ
رَاحَ الْفُرَاتُ عَلَيْهَا فِي جَدَاوِلِهِ وَبَاكَرَتْهَا سَحَابَاتُ بَانَوَاءِ

وقد أطل الخليع في قصيدته اطالة ممتة تملأ نحن المصريين ، ولكنها تمتع
أمثال العراقيين . فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد ، وسره أن تدفن
في الأرض ، وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون ، فلننس ما لا نعرف من
تلك العهود ، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأيت نور الوجود :

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصِفِهَا عَنْ مِثْلِ رَقْرَقَةٍ فِي جَفْنِ مَرَهَاءِ^(١)
لَمْ يَبْقَ مِنْ شَخْصِهَا إِلَّا تَوَهُُّهُ فَالْشَّيْءُ مِنْهَا إِذَا أُسْتَشْبِتَ كَاللَّاءِ^(٢)

(١) المرهء ، هي التي ابيضت حالق عينيها . (٢) اللاء هنا السراب .

تُمَارِجُ الرُّوحِ فِي أَخْفَى مَدَاخِلِهِ كَمَا تَمَارِجُ أَنْوَارٍ بِأَضْوَاءِ
لَا يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا حِينَ تَبْعُثُهَا إِلَّا التَّنَسُّمُ أَوْ لَذَّةٌ بِأَحْشَاءِ
يَحْكِي تَطَوُّقَهَا بِالْكَأْسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أَطَافَتْ بِهِ وَأَوَاتُ عَسْرَاءِ
ثُمَّ اسْتَحَالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلَى الْمَاءِ
عَرْشٌ بِلَا طُئْبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِي حُسْنٍ لَأَلَاءِ
لَا يَسْتَطِيعُ سَنَانُورٌ لَهَا نَظْرًا حَتَّى تَعُودَ لَهُ لَحْظَاتُ حَوْلَاءِ
كَأَنَّ تَأْلِيفَ مَا حَاكَ الْمِزَاجُ لَهَا سَلَخٌ تُحِلُّهُ عَنْ ظَهْرِ رَقَشَاءِ
لَا شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْهَا فِي تَصَرُّفِهَا مِنْ كَفِّ مُخْتَلِجِ الْأَعْطَافِ وَضَاءِ
هذه الآيات تخيرناها تخيراً ، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها
أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل .



ونحن لا نستطيع اليوم وصف الخمر بأنها بدت « مثل رققة في جفن
مرهء » ولا يسرنا أن يكون الجب ألف فوقها صورة تشبه ظهراحية الرقشاء ،
ولكننا نستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخله ممازجة
الأنوار للأضواء ، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليل .
ولا ننس النص على أن الخليل ختم قصيدته بغمز العرب فقال :
هَذَا النَّعِيمُ وَلَا عَيْشٌ تَكُونُ بِهِ هِنْدٌ بِرَايَةٍ مِنْ بَعْدِ أَسْمَاءِ^(١)
فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوية .

(١) أسماء ، اسم امرأة أصلها « وسماء » من الوسامة وهي الحسن الثابت . قلبت الواو همزة
فوزنها فعلاء .



بقى ابن المعتز ، فهاذا قال :

إن ابن المعتز جرى في همز يته مجرى الـتـمـك فانطلق يحدث عن صبواته

حديث الغوى المفتون ، ويقول :

أَمْ كُنْتُ عَادِلَتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَيْنَ التَّوَرُّعِ مِنْ قَلْبِ يَهِيمٍ إِلَى حَانَاتِ قُطْرُ بُلٍ بِالْعُودِ وَالنَّاءِ^(١)
وَصَوْتُ فَتَّانَةِ التَّغْرِيدِ نَاطِرَةٍ بَعَيْنِ ظَنِي يُرِيدُ النَّوْمَ حَوْرَاءِ
جَرَّتْ ذُيُولُ الشَّيَابِ الْبَيْضِ حِينَ مَشَتْ كَالشَّمْسِ مُسْبِلَةً أَذْيَالَ لَأَلَاءِ
وَقَرَعَ نَاقُوسٍ دِيرِيٍّ عَلَى شَرَفِ مُسَبِّحٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَاءِ^(٢)
وَكَأْسٍ حَيْرِيَّةٍ شَكَّتْ بِمِزَلِهَا أَحْشَاءَ مُشْعَرَةٍ بِالْقَارِ جَوْفَاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس ، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم ، ولكنه ورد في معرض طريف ، أما البيت الرابع فهو تحفة لأنه جعل محبوبته في الشياب البيض كالشمس تسبل أذيال اللآلئ ، وفي البيت الخامس حنين إلى النواقيس ، ولكن أى حنين ؟ أهو حنين الخاشعين ؟ هيئات ، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صباية ومجالس سلاف .

ثم مضى يذكر أعمار الحمر فقال :

جَاءَتْ بِهَا حُفْلُ الْأَثْمَارِ يَانِعَةٌ بِطَيْرٍ نَابَازٍ أَوْ كُوْنِي وَسُورَاءِ^(٣)

(١) الناء هو الناي . (٢) دعاء : كثير الدعاء . (٣) كل هذه أسماء أما كن .

تَرْفُو الظَّلَالَ بِأَغْصَانٍ مُهْدَلَةٍ
أَجْرَى الْفُرَاتُ إِلَيْهَا مِنْ سَلْسِلِهِ
وَطَافَ يَكْلُوهَا مِنْ كُلِّ قَاطِفَةٍ
مَوْكَلٌ بِالْمَسَاحِي فِي جَدَاوِلِهَا
قَابَ فِي آبٍ يَحْنِيهَا لِمَاصِرِهَا
فَظَلَّ يَرْكُضُ فِيهَا كُلُّ ذِي أُشْرِ
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَلْفَحُهَا
حَتَّى إِذَا بَرَدَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ لَهَا
صَبَّ الْخَرِيفُ عَلَيْهَا مَاءً غَادِيَةً
تِلْكَ الَّتِي إِنْ تُصَادِفَ قَلْبَ ذِي حَزَنِ
يَسْقِيكَهَا خَنْثُ الْأَحَاطِ ذُو هَيْفٍ
وجملة القول أن هؤلاء الشعراء ركضوا في ميدان واحد فوصفوا الخمر
والسقاة وصفاً يختلف بعض الاختلاف ، وكان أقصرهم نفساً أبو نواس ،
ولكنه كان أعرفهم بأسرار الصهباء .

والقصيدة الوحشية هي قصيدة الخليع فقد أكثر فيها من العمل
والأفتعال ، فظلت سجيناً لا يعرفها من الناس غير أهل العراق ، وقد وقع
ابن المعتز في بعض ما وقع فيه الخليع ، فأخذ يؤرخ الخمر يوم كان لها تاريخ ،
فأصبحت قصيدته غريبة في زمن تكتهل فيه الصهباء وهي بنت يوم واحد

(١) الجرعاء: الرملة الطيبة المنيعة . والميثاء اللينة . (٢) المساحي الأراضي المهيأة للزراعة .

لأن أهل هذا الزمن عرفوا من العناصر ، ما لم يعرف الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوى الصهباء فيردها ناراً تأكل الهشيم من أحلام الرجال .
أما أبو نواس فقد وقف عند المعاني الفطرية التي يعرفها الناس في جميع البلاد ، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق . وأجود الشعر ما استطاع مداعبة القلوب في كل أرض وفي كل جيل .

البحث الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

- ١ -

رأى القارئ طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، وهي آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب .

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلاً نبين به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء ، وأظهر أولئك الباحثين رجلاً : أحدهما من رجال القرن الرابع ، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر .

أما الأول فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب « الموازنة بين الطائيين : أبي تمام والبحتري » وهو باحث عظيم فصلت الكلام عليه تفصيلاً في الجزء الثاني من كتاب « النثر الفنى »^(١) فليرجع إليه القارئ إن شاء ، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك .

وأما الثاني فهو أستاذي . وصاحب الفضل عليّ : المغفور له الشيخ محمد المهدي بك ، وكان أديباً نادر المثال ، ولكن لم ينشر له شيء ، وقد فصلت آراءه الأدبية في الجزء الأول من كتاب « البدائع »^(١) ولكن بقي مجال للقول في ذلك الباحث الجليل ، فإنني لم أكتب عنه في « البدائع » إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس ، ومذهبه في الحياة الاجتماعية ، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء ، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته في هذا الكتاب ، لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبداً ، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكراه ما يجب من الوفاء .

- ٢ -

كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء وكان يوازن بين العصور الأدبية .

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جداً وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى^(٢) .

وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي ، وهو يقول : « الموازنة بينهما من جهات :

« الجهة الأولى : الموضوع ، ونرى أن موضوع قس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت ، وتوجيه الناس إلى توحيد الله ، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام ، وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصيح قومه في مسائل الدنيا ، ونصح ذريته ، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة .

(٢) عندي صورة من هذه الموازنة .

(١) انظر الطبعة الثانية ج ١ ص ١ - ١٨

الجهة الثانية : العبارة ، والفرق فيهما بينهما ظاهر ، فإن عبارة قس عبارة البديهة ، وإن كانت مسجوعة ، فهي العبارة الصالحة للدعاء ، وهي بمقام الخطبة أليق : لسهولة معناها ، ووضوح معناها ، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده ، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم .

وأما عبارة أكنم فهي عبارة منتقاة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم ، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظير ؛ فهي أشبه بكلام الحكماء ، ولا غرو فقد كان أكنم حكيمًا محكمًا عالمًا بالأنساب وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه ، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز أعلى ، وعبارة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ . وإن شئت قلت : عبارة قس أخطب ، وعبارة أكنم أحكم .

الجهة الثالثة : المعاني - والفرق بينهما جلي أيضًا ، فإن معاني قس عامة قليلة ، نظرية ، ليس فيها توليد ، ولا كذلك معاني أكنم : فإنك تجدها كثيرة مفصلة في ضروب عدة ، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف ، وهذا شأن الخطباء : إذا أرادوا تثبيت ما يدعون إليه .

الجهة الرابعة : حال الخطيبين - فإن قسًا كان يخطب للعرب كافة وهو رابك جملته ، ويشير بيده وبالخصرة ، ويفصل الكلام ب(أما بعد) ويتقلب في البلاد لهذا ، حتى طار ذكره ، واشتهر في الخافقين قدره ؛ وكان من أمره أن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرظه .

وأما الثاني فقد كان يخطب قومه ، ويتجربى العقلاء منهم ، ويقول :

« لا تحضروني سفيهاً » ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه ، واستعداده - فيما أعلم - من هذه الجهة أعرق في الخطابة ،

الجهة الخامسة : أن قسًا كان يقول الأشعار من روح خطبته سهلةً

مُتَقَبِّلَةً لِتُحْفَظَ إذا لم يُحْفَظَ الكلام ، وكان أ كثم يستعين بالأمثال لجمالها وقصرها ، وبالرائع من الحكمة كذلك ، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدَّهَاءِ ، وهو أليق بمقام الخطابة ، وأن الأمثال الحكيمة التي تحتاج إلى روية في فهمها إنما هي للخاصة ، وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة ، وعلى هذا يكون قسٌ أخطب ، وأ كثم أحكم ، وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة ، مع أن كلام أ كثم فيها أبلغ في نظر الحكماء ، ومن يتعشقون الجزل الموجز الدقيق المعنى ، الرصين المبني .

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك ولكنه لم يجد من الشواهد ما يروى الغلة ، فاكتمى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن سجية ، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم ، وكذلك كان لكل منهما منزع وطريق .

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جدًا ، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة ، والخلافة الراشدة . قال : « إذا أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك ، ثم نكشف عن مكانته الثانية ، لتتجلى صورتاه في المكانتين ، ويعرف شأنه في الزمانين ، فنقول :

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراض والأحساب والذود عن البيضة ، فكما يغير الفارس برحه وحسامه ، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده ، فإذا فتّ السيف في الأعضاء ، فتّ الشعر في القلوب ، وإذا أصاب التّبال بنبلة الجسوم ، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيّل الأعداء ، وتحميس الأولياء ، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه ما ثلّا فيها لم يترحز عنها .

فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال اخذُ جعل يُنشد ويُصنئ إليه ، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده ، فقال عليه الصلاة والسلام : لهذا أشد عليهم من وقع النّبل وقد كان حسان ينافح عنه ، ويشجع قومه ، ويخذل عدوه .

وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي صلى الله عليه وسلم منبراً في مسجده ، ينشد عليه الشعر .

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَةَ الذي شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها إلا الفتح ، ومات في غزوة مؤتة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتجز ببعض رجزه في تلك الغزوة ، وهو قوله حينما أُصيبَتْ إصبعه :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ	وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي	هَذِي حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمَنَيْتِ فَقَدْ لَقِيتِ	إِنْ تَفْعَلِي فَعِلْهُمَا هُدَيْتِ ^(١)

(١) يريد صاحبيه اللذين استشهدا قبله ، وهما : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب .

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري الذي كان يعارض ابن الزبيري من شعراء المشركين ، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين ، ومنه قوله في قصيد طويل ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق :

وَمَوَاعِظٍ مِنْ رَبَّنَا نَهْدِي بِهَا بِلِسَانٍ أَزْهَرَ طَيْبِ الْأَنْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَأَشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حِكْمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بَزْعِمَهُمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَى تُغَالِبَ رَبَّهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الْغَالِبِ

مراده بسخينة قريش لأنها كانت تأكلها وهي حساء من دقيق ، والأمثلة من هذا النوع مستفيضة .

فإذا نظرنا إليه من ناحية أنه كان يُجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيراً من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الله ، وكثر في كلامهم ذكر الجنة وما أعد الله لعباده من النعيم المقيم ، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أعطى كعب بن زهير برده حينما جاءه تائباً بعد أن هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها :

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتِمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلاء عنه وتأمله العفو :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا أَهْيَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلَوْا سَبِيلِي لَا أَبَالَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ

أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَقُوبُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُورٌ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَنْ تَقْرَأَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَقْصِلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ
وَكَذَلِكَ حَبَابُ قُرَّةِ بَنِ هَيْبَةَ وَكَسَاهُ بُرْدَيْنِ وَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ

من الشعراء ، فقال يذكر ذلك في قصيد طويل ويمدحه :

حَبَابَهَا رَسُولُ اللَّهِ إِذْ تَزَلَّتْ بِهِ وَأَمَكْنَهَا مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مُفْنِدٍ
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلَيْهَا أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْحَالِ قَبْلَ أَنْ يَبْذُلَهُ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِحِ الْمُتَجَرِّدِ^(١)
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ هَذَا الْعَطَاءَ لِلتَّائِلِ لَا لِلشَّعْرِ ، قُلْنَا لَهُ : وَمَنْ التَّائِلُ أَنْ يُعْطَى
الشَّاعِرُ لَشَعْرِهِ وَهُوَ مَا نَزِيدُ فِي مَقَالِنَا هَذَا .

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن
المتشور ، ويبالغون في أعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن ، وإن كثيراً
منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه فيه من هز أنفُسهم إلى
الكرم ، والدلالة على محاسن الشيم ، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في
أسلوب ساحر ، إلى غير ذلك ، فإننا نجد في الإسلام لم ينزل كثيراً عن هذه
المنزلة ، ولم يفض منه أن النبي صلى الله عليه وسلم ما عُلِّمَ الشعر وما ينبغي له
إلا بمقدار ما تقضى أميته من الكتابة ، فكما لا يقول قائل بفضيلة الأمية
للناس لأن الرسول كان أمياً لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر لأن
الرسول لم يعلمه ، ولهذا أكثر الحُصَّ على تعامه واستماعه وروايته على شريطة

(١) هو الحصان .

أن يكون في الحث على فضيلة ، أودم رذيلة ، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول له :

« مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب . »

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر ، وكان مما ترويه جميع شعر لبيد .

وقد روى الحسن بن رشيق القيرواني أن أعرابيا وقف على علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، فقال إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال على خط حاجتك في الأرض ، فأنى أرى النصر عليك . فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير ، فقال على : يا قنبر ادفع له حلتى الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنَهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حَسَنِ الشَّاحِلَا
إِنَّ الشَّنَاءَ لِيُخَيِّ ذِكْرَ صَاحِبِهِ كَالْغَيْثِ يُخَيِّ نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
لَا تَرْهَدِ الدَّهْرُ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا
فقال على يا قنبر : أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فامسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك .

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره لما وجده في شعره من شكر النعمة ، وتمحيض النصيحة ، والترغيب في الآجل .
هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوى الكريم .

وليس من بنى عبد المطلب رجالاً ونساء من لم يقل الشعر حاشا رسول الله ، وناهيك بالعباس فقد كان شاعراً مجيداً وله شعر ماثور معدود في الطبقة العالية ، من ذلك قوله يوم حنين :

أَلَا هَلْ أَتَى عِرْسِي مَكْرَرِي وَمَوْقِي بَوَادِي حُنَيْنٍ وَالْأَسِنَّةُ تُشْرَعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ جَاسَتْ لَهَا قَدِي وَهَامٌ تَدْهَدِي وَالسَّوَاعِدُ تُقْطَعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتُ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِزُورَاءِ تُعْطَى بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ^(١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجلّة من الصحابة والتابعين .

وكانوا يتغنّون به ولهم في ذلك أخبار طويلة ، فن ذلك ما رواه السائب ابن يزيد : بينا نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف غنّنا ، فقال له عمر بن الخطاب : فإن كنت آخذاً فعليك بشعر ضرار ابن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة فارس مغوار ، وشاعر مفلح مقدم على ابن الزبيري فهو أشعر قریش) ومن شعره :

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ جَاحِيَرِي قُرَيْشٍ وَلَاتَ حِينَ جَاءَ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الْأَرْضِ وَوَدُّوا بِالصَّيْلِ الصَّلَاءَ^(٢)
وَأَلْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ^(٣) عَلَى الْقَوْ بِأَهْلِ الْحُجُونِ وَالْبَطْحَاءِ
إِنْ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ فَانْهِنِيهِ فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأَسْدِ لَدَى الْغَابِ وَالْغُ فِي الدَّمَاءِ
إِنَّهُ مُطْرَقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمْرَ سَكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ^(٤)

(١) لعلها تعطى السهام ، وتمنع العدو . (٢) البطان : حزام يعجل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوغ الأمر شدته . (٣) أى الداهية الشديدة . (٤) أى التى لا تقبل الرقى .

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وأراد بسعد سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي ، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده . فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع به في حقن الدماء ، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث .

وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثرًا منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية .

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم بنو كعب فقتلوا فيهم ، وأخذوا أموالهم ، فاستنجد بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنشده بين يديه :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَيْنَا وَأَيَّهِ الْأَنْلَدَا ^(١)
نَحْنُ وَلَدْنَا هُمْ فَكَانُوا وَلَدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوا الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَنَصَبُوا لِي فِيكَ دَاءَ رَصَدَا	وَيَدْتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا	وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَادَا	فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدَا
وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَا تُوتَا مَدَدَا	فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا ^(٢)	فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا

قدمت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج بمن معه لنصرهم . فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلث الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر ، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثراً صالحاً ، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون المهجائين عقاباً صارماً حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله ، ويظاهرون أعداءهم عليهم ، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالخطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة ، وكان من استرحامه قوله :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلَ لَا مَاءً وَلَا شَجَرُ
الْقَيْتَ كَسَبِهِمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَأَغْفِرْ عَلَيَّكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ

ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أثره منه قبله ، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة .

فأما النظر من حيث جودة السبك ، وغزارة المعنى ، وتشخيصه ، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين ، لأن العصر الثاني غزر معناه بالكتاب والسنة ، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى ، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصاً منهم الشعراء العشاق ، وشعراء الحكم والأمثال . فأما من جهة المتانة ، وصفاء العربية ، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين .

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصاً الموضوعات الدينية . هذا ولا يفوتنا أن نبين أن ناساً تنسكوا وزهدوا في الشعر ، وزهدوا فيه الناس ، أخذوا بظاهر ما جاء في الكتاب

العزيز من قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) وبما ورد من الأخبار في ذم الشعر ، ولم يفظنوا إلى أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح ، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدَّى لا بنثر ولا بنظم ، وقد تغالى بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان تنقض الوضوء ، فكان ابن عباس وابن سيرين ينهايان الناس عن ذلك ، وقد قيل لسعيد بن المسيب إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني أمية .

وملخص الفوارق :

أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية .

أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية لأن الكتاب زاحمه .

أنه في الإسلام أثره منه في الجاهلية .

» » » أعلى من جهة غزارة المادة ، وتشخيص المعنى .

» » » أوسع موضوعاً .

» » » دون الجاهلية في المتانة .

» » » دون الجاهلية في صفاء العريية .

أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية .

فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر .

وهذه الفروق كلها فروق متقاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الأطلاع المتذوق لكلام العرب .



هذا وقد لاحظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدي أولعوا بالموازنة الشعرية ، فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثاً في الموازنة بين أبي تمام وشوقي ، وهي نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم . والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي ، ومن الذين يستظهرون أكثر نواذره الأدبية ، وقد حضرته منذ أشهر وهو يلقى محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشارات وبراهين صورة جديدة من الشيخ المهدي ، وإن لم يفتن لذلك . والأستاذ العظيم هو الذي يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان .



فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	أهواء النقاد	١٨٥	بين البوصيرى والبارودى
١٠	عود إلى أهواء النقاد	١٩٨	أسلوب البارودى
١٧	أنفس الشعراء	٢٠٧	التخلص والاقتضاب
٢٥	شعراء الأحزاب	٢١٦	المعجزات
٣٣	نفسية الناقد	٢٢٥	وصف القرآن
٤٣	الحاسة الفنية	٢٣٦	أبونواس وابن دراج
٥٦	خطر الابهام والغموض	٢٤٦	نفحة من الأدب الأندلسى
٦٤	الصور الشعرية	٢٥٩	حياة ابن دراج
٧٠	أهمية الصور الشعرية	٢٧١	بين صبرى ومطران
٨١	اختلاف الصور الشعرية	٢٨٢	الموازنة بين النونيتين
٨٨	الصور الشعرية فى القرآن	٢٩٨	بين البارودى وأبى نواس
٩٩	المعانى والأغراض	٣٠٥	بين البارودى وأبى فراس
١٠٩	الحصرى وشوقى	٣١٤	الموازنة بين الرائييتين
١٢٢	البحترى وشوقى	٣٣٠	بين أبى نواس وعبد الباقي إبراهيم
١٣٥	بكاء الممالك عند البحترى وشوقى	٣٤٠	بين شوقى وابن زيدون
١٤٤	حزين شوقى إلى مصر	٣٤٩	الموازنة بين القصيدتين
١٥٦	بين البحترى وشوقى	٣٦٨	معارضات أبى نواس
١٦٣	الفصل بين البحترى وشوقى	٣٧٦	بين أبى نواس وابن المعتز والخليع
١٧٤	البوصيرى وشوقى	٣٩٦	أقطاب الموازين

الفهرس المفصل (١)

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤	جراحة الأخطل على الغض من الشعائر الإسلامية	١	الموازنة باب من النقد
١٥	تشيع منصور النيرى لأهل البيت الثالث	١	اهتمام النقاد بالموازنات في مختلف العصور
١٧	مطالع الجاهليين	٢	لا ينبغي أن يتصدى للموازنة إلا العالمون بأسرار البيان
١٨	رأى الجاحظ في شعر أبي نواس	٣	تعصب ابن الأعرابي للقديم
١٩	ملاحظات نقدية	٤	التعصب للجنس
٢٠	أخيلة بدوية في شعر شوقي	٥	جماعة من الشعراء عند سكيمة بنت الحسين
٢١ ✓	مأخذ على شوقي وحافظ ومطران	٨	البلاغة عند الصوفية والفقهاء
٢٢	بين ابن الرومي وابن المعتز	٩	هل يستطيع الشعراء يسائر الأغراض الدينية
٢٣	أخيلة بدوية		
٢٤	أساس الموازنات الشعرية		
	البحث الرابع		البحث الثاني
٢٥	الشعر في زمن النبوة	١٠	تظير ابن الرومي
٢٦	هجوم القرآن على الشعراء	١١	الشعر الوسيط لا يؤثر إلا إذا مس بعض النوازع الوجدانية
٢٦	شاعر الرسول	١٢	امراءه ترقص ابتها لتعطف زوجها
٢٧	ارتياح اليهود	١٣	الأخطل في حضرة عبد الملك بن مروان
٢٨	حزب المعارضة في عصر النبوة		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩	حملة النسك على الشعر وفتاوى بعض	٥٥	رأى الأمدى والموصلى فى الحاسة الفنية
	الفقهاء		البحث السابع
٣٠	الشعر فى رأى الرسول	٥٦	خطر الإبهام والغموض
٣١	أشعار الخلفاء	٥٧	منظومة الناشئ فى وصف الشعر
٣٢	قصيدة روح بن زنباع	٥٨	المقامة الشعرية
٣٣	كيف عصفت السياسة بآثار الشعراء	٥٩	رأى أبى حاتم فى خصائص بعض الشعراء
	البحث الخامس	٦١	الأوصاف الفضفاضة عند نقاد العصر
٣٣	الموازنة نوع من القضاء		الحاضر
٣٤	موازنة الخاتمى بين البحترى وأبى تمام	٦٢	خلاصة ما يجب أن يتحلى به الناقد
٤٠	فلان أشعر الناس !		من الصفات
٤١	اضطراب النقاد فى العصر الحاضر		البحث الثامن
	البحث السادس	٦٤	ماهى الصورة الشعرية ؟
٤٣	ماهى الحاسة الفنية	٦٥	وصف أبى نواس للصهباء
٤٤	رأى صاحب (المثل السائر)	٦٨	كيف وصفها ابن عنين
٤٥	فهم الكتاب للأدب	٦٩	أبيات البحترى فى النديم
٤٦	أشعار الكتاب	٦٩	صورة شعرية لابن الرومى فى وصف
٤٧	الجمال المعقد والجمال البسيط		العناق
٤٩	ما هو البيان المعقد		البحث التاسع
٥٠	كيف كان جمال النبى فى صباه	٧٠	أهمية الصور الشعرية
٥١	طوائف من الأخيلة الشعرية	٧١	العتاب فى شعر بشار
٥٣	قد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء	٧٢	قصيدة الشريف الرضى فى العتاب
٥٤	شواهد من الشعر الجيد	٢٦	موازنة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٣	قصيدة مويك المزموم في رثاء زوجته	١٠٢	أبيات أشجع في الرثاء
٧٤	قصيدة ابن الزيات في رثاء زوجته	١٠٣	قصيدة طريف العبسي في رثاء ابنه
٧٦	استعطاف الأحباب في شعر الطغرأى	١٠٤	وصف طالب العلم
٧٦	لامية سعيد بن حميد في العتاب	١٠٥	وصف القاضي الظالم
٧٨	الحاربون الذين أنصفوا أعداءهم	١٠٦	أوصاف الأمانى
٨٠	افتنان ابن الأحنف في وصف	١٠٨	أعرابي يعظ سليمان بن عبد الملك
	الكتمان		البحث الثالث عشر
	البحث العاشر	١٠٩	الحصرى وشوقى
٨١	اختلاف الصور الشعرية	١١٠	حياة الحصرى
٨٢	أوصاف الخيل	١١١	قصيدة الحصرى
٨٥	أوصاف الحمام الباكية	١١٢	قصيدة شوقى
	البحث الحادى عشر	١١٤	أغراض القصيدتين
٨٨	الفرق بين الصورة الشعرية والاستعارة	١١٤	مواطن الحسن
	التمثيلية	١١٨	مظان الضعف
٩٠	قصيدة النابغة في انتقام الحية من	١٢٠	روعة الخيال
	الحليف الفادر	١٢٠	البراعة في تناول المعانى
٩١	الصور الشعرية في القرآن	١٢١	الحكم بين الشعاعين
	البحث الثانى عشر		البحث الرابع عشر
٩٩	المعانى والأغراض	١٢٢	البحترى وشوقى
١٠٠	اللفظ المتخير والخيال	١٢٣	حياة البحترى
١٠١	وصف الليل	١٢٤	بداية حياته
		١٢٥	اتصاله بأبى تمام

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢٩	شخصية شوقي	١٥٧	بكاء الأندلس في سينية شوقي
١٣١	ملاح وصفية	١٥٩	صور المعارك في حوائط الإيوان
١٣٢	وفاء البحترى وشوقي	١٦٠	وصف القصور الأندلسية
١٣٣	قصيدة البحترى في رثاء المتوكل	١٦١	موازنة بين معنيين
١٣٥	البحث الخامس عشر	١٦٢	لم يظلم أحد أهل الشرق ، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون
١٣٦	وصف الممالك البائدة (في القرآن)		البحث الثامن عشر
١٣٧	قصيدة الأسود بن يعفر	١٦٣	الفصل بين البحترى وشوقي
١٣٨	أبيات متمم بن نويرة	١٦٤	وصف الصهباء
١٣٩	إيوان كسرى ✓	١٦٥	عجب الصنعة في جوانب الإيوان
١٤١	نفسية البحترى حين نظم السينية	١٦٨	نفثة شوقي في بكاء الحمراء
١٤٤	نفسية شوقي حين وقف بالجرء	١٧٠	خروج العرب من الجنة الأندلسية
١٤٦	البحث السادس عشر	١٧٢	توديع ديار الأندلس
١٤٧	حنين شوقي إلى مصر	١٧٣	معارضة المراهوي لسينية البحترى
١٤٨	المصري في وطنه غريب		البحث التاسع عشر
١٤٩	طغيان ملوك مصر هو من وحى مصر	١٧٤	حياة البوصيري
١٥٠	الجزيرة والجيزة والنيل	١٧٥	قصيدته في نقد المستخدمين
١٥٢	وصف أبي المول	١٧٧	قصيدته في جارية جميلة أنكرت
١٥٥	وقفه قصيرة		عليه الغزل وهو أشيب
	التخلص والاقتضاب	١٧٨	أبيات في حمارة استعارها منه ناظر
	الموازنة بين المطلعين		الشرقية
	البحث السابع عشر	١٧٨	قصيدته فيما وقع بينه وبين امرأته
	وصف إيوان كسرى		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٠	وصف الغار الذي أوى إليه الرسول	١٨٠	قصيدة البردة
٢٠٣	النظم في قصيدة البارودي	١٨١	السبب في نظم البردة ورؤية الرسول
٢٠٦	سميك يا رسول الله		في المنام
	البحث الثاني والعشرون	١٨٢	الصلوات في المدايح النبوية
٢٠٧	ما هو التخلص؟	١٨٣	نهج البردة وشارحها
٢٠٨	ما هو الإمام؟		البحث العشرون
٢٠٩	التخلص في قصيدة البردة	١٨٥	افتتاح القصائد بالنسيب
٢١٠	مواجهة الغرض في همزية شوق	١٨٦	المحاكاة في التشبيب
	وهمزية البوصيري	١٨٨	أبيات في التشوق إلى أروند
٢١١	رياضة النفس	١٨٩	مطلع شوق ومطلع البوصيري
٢١١	وصف القطاة في قصيدة البارودي	١٩٠	موازنات بين أبيات شوق وأبيات
٢١٢	إحالة الوصف إلى صورة شعرية		البوصيري
٢١٣	أبيات تمثل لوعة الوجد	١٩٢	جرح الأحبة لا يؤلم
٢١٤	وصف الدنيا في شعر شوق	١٩٣	وصف الملاح في قصيدة شوق
٢١٥	الندم في قصيدة شوق	١٩٥	بين شوق والطغرائي
	البحث الثالث والعشرون	١٩٥	قصيدة البارودي
٢١٦	المعجزات	١٩٧	وصف السحاب في قصيدة البارودي
٢١٧	معجزة الرسول هي القرآن		البحث الحادي والعشرون
٢١٨	شق صدر النبي وهو غلام	١٩٨	تنقل الشعراء من معنى إلى معنى
٢٢٣	الإرهاصات التي يقال إنها صحبت	١٩٩	استعطاف الرسول في قصيدة كعب
	ميلاد الرسول		ابن زهير

الصفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
وأدباء المغرب	البحث الرابع والعشرون
٢٤٦ رسالة الشقندى فى تفضيل برّ	٢٢٥ وصف القرآن فى قصيدة البوصيرى
الأندلس على برّ العدو	٢٢٧ آيات القرآن فى قصيدة شوقى
٢٤٧ شواهد من أطايب الأدب الأندلسى	٢٢٩ وصف الحرب فى قصيدة البوصيرى
٢٤٩ وصف الغربية ومكابدة الزمان	٢٣٠ وصف الحرب فى قصيدة البارودى
٢٤٩ رياضة النفس على العفاف	٢٣٢ وصف البارودى للغزوات
٢٥٠ وصف الندمان والأحباب	٢٣٢ رقة شوقى فى وصف الحرب
٢٥١ السعى إلى المحبوبة فى ظلمات الليل	٢٣٣ أبياته فى وصف الغزاة
٢٥٢ من طرائف المدائح	٢٣٣ حكمة الجهاد
٢٥٢ وصف الكئوس والتغور	٢٣٤ المدنية الإسلامية كما وصفها شوقى
٢٥٣ أوصاف ابن خفاجة	البحث الخامس والعشرون
٢٥٤ وصف السحائب والأنهار	٢٣٦ كيف نظم أبو نواس قصيدته فى
٢٥٥ التغزل فى غلام حائك	مدح الخصيب
٢٥٦ وصف الأصيل	٢٣٧ معارضو أبى نواس فى الرائية
٢٥٦ وصف راقص جميل	٢٣٨ وصف الحمائم فى قصيدة البارودى
٢٥٦ وصف الخال والرضاب	٢٣٩ أغراض الرائية
٢٥٧ الطليطلى يبكى بصره وصباه	٢٤١ وصف العقاب
٢٥٧ أبيات ولادة المروانية	٢٤٢ الجزالة فى شعر أبى نواس
٢٥٧ الترفق بالحبيب	٢٤٣ وصف الخصيب
٢٥٨ وقدة الشوق فى قطعة غزلية	البحث السادس والعشرون
البحث السابع والعشرون	٢٤٦ المنافسة بين أدباء المشرق
٢٥٩ حياة ابن دراج الأندلسى	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٦٠	رأى كتاب التراجم فى ابن دراج	٢٨٦	هجوم مطران على رمسيس الثانى
٢٦١	شئ من نثره	٢٨٨	الدفاع عن رمسيس وشعبه المطيع
٢٦٢	أشعاره فى الحب والوصف	٢٨٩	الصلة الروحية بين الحاكمين
٢٦٥	رأية ابن دراج		والحكومين
٢٦٦	الموازنة بينه وبين أنى نواس	٢٩٠	كيف اتفق لمطران أن يتحامل على
	البحث الثامن والعشرون		رمسيس
٢٧١	حياة اسماعيل صبرى	٢٩٢	نفسية مطران حين نظم قصيدته
٢٧١	أدواره الغنائية		النونية
٢٧٣	قصيدة « تمثال جمال »	٢٩٣	رأى مطران فى فضل المسيطرين
٢٧٥	قصيدة « كم ساعة »		على الشعوب
٢٧٦	قصيدة « الفرع الأكبر »	٢٩٥	الفن فى نونية مطران
٢٧٧	حياة خليل مطران	٢٩٦	وقفه صبرى أمام جلال الأهرام
٢٧٧	نونية صبرى	٢٩٧	شوق هو الذى وجه الشعراء إلى
٢٨٠	نونية مطران		الفن المصرى
	البحث التاسع والعشرون		البحث الثلاثون
٢٨٢	رأى صبرى فى وصية فرعون	٢٩٨	متى نظم أبو نواس قصيدته فى
٢٨٣	سياسة الملك والعمران على لسان		مدح الأمين
	فرعون	٢٩٩	التباعد أبى نواس على أيام الشباب
٢٨٤	انسجام الأهواء بين فرعون وقوم	٣٠٠	أخلاق الندمان فى قصيدة البارودى
	فرعون	٣٠٢	وصف الصهباء فى قصيدة البارودى
٢٨٥	عشق المصريين للاتقان والتجويد	٣٠٣	الحكمة المتكلفة فى قصيدته
		٣٠٤	مدح أبى نواس للأمين

الصفحة الموضوع

البحث الحادى والثلاثون

٣٠٥ فضل الشعراء على لغاتهم

٣٠٦ روميات أبى فراس

٣٠٧ قصيدته فى التوجع إلى أمه الرءوم

٣٠٨ قصيدته البائية فى العتب على سيف

الدولة

٣١٠ حالته النفسانية

٣١١ الموازنة بين رائية البارودى ورائية

أبى فراس

٣١٢ قوة التشابه بين الرجلين

البحث الثانى والثلاثون

٣١٤ الفوارق بين البارودى وأبى فراس

٣١٦ وصف الحب عند هذين الشاعرين

٣١٨ الأثرة من مظاهر الحيوية

٣٢٠ صور وجدانية

٣٢٢ الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب

الثعبان

٣٢٣ الحماسة عند الشاعرين

٣٢٤ الفخر فى قصيدة البارودى

٣٢٥ بكاء البارودى لقومه الذاهبين

٣٢٦ شمائل أبى فراس فى الحرب

٣٢٧ إشار الموت على الفرار

الصفحة الموضوع

٣٢٨ مصير البارودى ومصير أبى فراس

البحث الثالث والثلاثون

٣٣٠ انصراف الشعراء عن ملاعب الكرة

٣٣١ ملعب الكرة فى الجامعة المصرية

٣٣٢ قصيدة أبى نواس فى ملعب الكرة

٣٣٤ أرجوزة عبد الباقي إبراهيم

٣٣٥ الموازنة بين الأرجوزتين

٣٣٨ الفروق بين الشاعرين

البحث الرابع والثلاثون

٣٤٠ ابن زيدون صريع الحب والمجد

٣٤٢ قصيدة فى الشوق إلى محبوبته

٣٤٣ قصيدة « إني ذكرك بالزهراء »

٣٤٤ نونية ابن زيدون

٣٤٨ أبيات « ودع الصبر محب ودعك »

البحث الخامس والثلاثون

٣٤٩ نفسية شوقى حين نظم النونية

٣٥٠ شكوى الاغتراب والأعداء

٣٥١ تنقل الشاعر فى الأندلس من حرم

إلى حرم

٣٥٢ غرام شوقى بالجمال

٣٥٣ رسالة البرق عند شوقى وابن زيدون

الصفحة	الموضوع
	البحث السابع والثلاثون
٣٧٦	المصريون لا يحسنون وصف الصهباء
٣٧٧	الفرق بين مصر وبين غيرها من الأقطار العربية
٣٧٨	بين مصر والعراق
٣٧٩	همزية أبي نواس في البحر والجون
٣٧٩	بعض ما فيها من المظاهر الاجتماعية
٣٨٢	همزية الحسين بن الضحاك
٣٨٤	همزية ابن المعتز
	البحث الثامن والثلاثون
٣٨٦	أقطاب الموازين بين الشعراء
٣٨٧	الشيخ محمد المهدي بك
٣٨٨	الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم
	ابن صيفي
٣٩٠	الموازنة بين عصر الجاهلية وعصر
	البعثة والخلافة الراشدة
٣٩٧	ملخص الفوارق بين العصرين
٣٩٨	أثر الشيخ المهدي في تلاميذه بمدرسة
	القضاء الشرعي والجامعة المصرية

الصفحة	الموضوع
٣٥٤	نسيم الصبا في القصيدتين
٣٥٥	ما أخذ شوقي من ابن زيدون
٣٥٦	بكاء أيام الأنس في القصيدتين
٣٥٨	وقدة الشوق في نونية ابن زيدون
٣٥٩	اشتراك الشاعرين في التفجع والحنين
٣٦٠	قسوة الليل وقسوة الفراق
٣٦١	ما تفرد به الشاعران
٣٦٢	أعجاد النيل في قصيدة شوقي
٣٦٣	وصف الأهرام
٣٦٤	تفرد ابن زيدون بوصف الجمال
	الإنساني
٣٦٤	اختلاف الوحي باختلاف ألوان الجمال
٣٦٥	سحر الجمال المصون
٣٦٧	اشتياق شوقي إلى الوطن وإلى أمه
	البحث السادس والثلاثون
٣٦٨	المعارضات الشعرية
٣٦٩	معارضات أبي نواس
٣٧١	بين أبي نواس وابن الأحنف
٣٧٢	بين صبري ومطران
٣٧٣	بين أبي نواس ومسلم بن الوليد
٣٧٤	خطر الرسائل الغرامية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	حرف الحاء	٢١٢	تحدّر عن غُرٍّ طوال الذوائب
١٤	ولستُ بآ كل لحم الأضاحي	٢١٣	على عذبات الجزع تحسبه قلبا
١٩	منك يشكو ويصيحُ	٢٤٩	بمدامع وتراثبا بتراثب
٢٣	ريّان يُغَبِّقُ بالمدام وَيُصْبِحُ	٢٤٩	أيدى الربيع بناءها فوق القُضْبِ
٨٠	إلا مصانعة العدو الكاشح	٢٧٤	رحمت أخالوعة مات صبا
٨٣	وأفترّ نأُك عن شبة القارح	٣٠٨	ولا لمسىء عندكن متاب
٨٥	ففتحت وذو الشجو الغريب ينوح	٣٧٢	وأجعل الحانة لى ماعبا
٢٥٠	ذاهبا والصبح قد لاحا	٣٩١	بلسان أزهر طيب الأثواب
٢٥٢	وحثها والصباح قد وضحأ		حرف التاء
٢٥٣	يتهادى بها نسيم الصباح	٣٠، ٣٩٠	وفى سبيل الله ما لقيت
٢٥٦	متى من حبه أرجو سراحا	٥٣	على الرجل المسكين كاد يموت
	حرف الدال	٢١٣	صروف النوى من حيث لم تك
٦	بوادى القرى إني إذن لسعيد		ظنّت
٣٧	من وشيها نشرأ لها وقصيда	٢٥٧	والسحر مقصورٌ على حركاته
٣٨	كواكب إلا أنهن سعودُ		حرف الثاء
٣٨	وكفى على رُزئي بذاك شهيدا	٣٠	أرقت أوأمر فى العشيرة حادث
٤١	ولا قرار على زأر من الأسد	٢٤٣	فيها يمهّد مضجعى ويدمّث
٤٦	لما نقي عنى الجلد		حرف الجيم
٤٦	كل شيء غير جودى	١٢٤	وظلال عيش كان عندك سَجَسَج
٤٨	عجوزاً ومن يحب عجوزاً يفند	٢٥٠	يتهادى كتهادى ذى الوجى
٤٨	ويأتيك بالأخبار من لم تزود		
٥٤	فما كاد لى عن ظهر واخمة يبدى		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤	جَاهِنَ الهوى من حيث أدرى	٨٠	إذا ما التقينا صدود الحدود
	ولا أدرى	١٠٢	ما مثل من أنعى بوجود
٣٠	هواك فليم فالتأم الفُطُورُ	١١١	أقيام الساعة موعده
٣١	فلا وربك ما بروا ولا ظفروا	١١٢	وبكاه ورَحَمَ عودُه
٣٢	تلاعب فيه شَمَالٌ وَدَبُورُ	١٣٦	والهم محتضر لدى وسادى
٣٥	سقاك الحيا ريحانه وبوا كره	١٨٠	ولا من وجى حتى تلاقى محمدا
٣٥	فى وسعه لسى إليك المنبرُ	١٨٨	ألا خبرونا عنه حَيِّتُمُو وَقْدًا
٣٧	فروتك رياه وجادك ماطرُه	١٩٨	خلايا سفين بالنواصف من دد
٣٨	خف الهوى وتقضت الأوطارُ	٢٤٢	حتى له فى أديم الأرض أخذود
٣٩	فخذار من أسد العرين خذار	٢٤٧	فأوقدوا نار قلبى أى إيقاد
٤٠	ولزرت قبرك والحبيب يزَارُ	٢٥٢	فى دوح مجدكم أقوم وأقعد
٤٨	إذا ما زدتَه نظرا	٢٩٠	لا للعلا ولا له بل للعدا
٥١	به الحمد يعطى مثله زاخر البحر	٣٩٢	وأمكنها من نائل غير مُفْنَدٍ
٨٦	لها مُقْلٌ تُجْرَى الدموع ولا تُجْرَى	٣٩٥	حلف أبينا وأبيه الأتلا
٨٩	عصفور برٍّ ساقه التقديرُ		حرف الراء
٩٠	وما أصبحت تشكو من الوجد	٤	كما انحطَّ بازٍ أقتم الريش كاسِرُه
	سَاهِرُه	٦	لقلت بنفسى النشأ الصغارُ
١٢٢	وتفجرتَ يمينك خمسةَ أنجُرٍ	٩	لم ينكر الكلب أنى صاحب الدارِ
١٣٣	وَقَوْضُ بادى الجعفرى وحاضِرُه	١٣	أبدى النواجدَ يومَ عارمٍ ذكرُ
١٥٥	عيناً لغيرك دمعها مدرارُ	١٥	عليكم بالسَّوءِ من الأمورِ
١٧٨	حاشاك من قوم أولى عُسْرُه	٢٠	حديث الجار والجاره
		٢٢	يدحو الرقاقة مثل الملح للبصرِ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	حرف السين	١٨٢	أهل السموات والأرضين أو يذروا
١٨	بها أثرٌ منهم جديد ودارسُ	١٨٧	يسعى على قصرات المرخ والعُشْرِ
٢٩	إن تصدق الطير نك لميساً	٢٣٦	وميسور ما يرجي لديك عسيرُ
٣٨	تقضى حقوق الأربع الأدراس	٢٣٧	ومن جور أيام الفراق مجيرُ
٣٩	أقواتها لتصرف الأحراس	٢٣٧	وحياً شاباً مرّ وهو نضيرُ
٤٢	نازعتني إليه في الخلد ندى	٢٤٧	بذات سوارٍ مثل منعطف النهر
٦٦	إن كان قبل الدهر شيء يغرسُ	٢٤٧	وبعد ذلك يلقي وهو يعتذرُ
٧٨	ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا	٢٤٨	لما رأيت الغصن يعشق مُثمراً
١٢٥	ونشوة بين ذاك الورد والآس	٢٥١	فأت إذا ما جمع الساهرُ
١٣٩	وترفعتُ عن جدّا كل جنس	٢٥١	بزورها شمساً وبدر الدجى يسرى
١٤٤	فاذكرا إلى الصبا وأيام أنسى	٢٥٤	فامزج لحيماً منهما بنضارٍ
١٧٣	أمة كالخديد صلب المَجَسَّ	٢٥٧	حتى تضايق فيما عنَّ من وطرى
٢١٢	به جنبنا الجودى والليل دامسُ	٢٥٧	وما لهم عندى وعندك من ثارٍ
٢٥١	ونام ونامت عيون الحرس	٢٦١	تُحمر الحواصل لا ماء ولا شجرُ
٢٥٥	بشُعْلَةٍ من شُعْلِ البأس	٢٦٦	وأن بيوت العاجزين قبورُ
٢٥٦	لبس الحاسن عند خلع لباسه	٢٧١	من غير مكابرُ
٣٧١	فلا تعدل بعباس	٢٧٤	حسناء مرهفة القوام فندكرُ
٣٧٢	غيرى وغيرك أو طى القراطيس	٢٧٦	فعدا كالح الجوانب فقرا
٣٧٣	إلا فتى قلبه من صخرة قاسى	٣١٥	أما للهوى نهى عليك ولا أمرُ
٣٧٣	كم مرّ مثلك فى الدنيا على راسى	٣١٦	وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجرُ
٣٧٣	هل كان عندك فى القراطيس من باس	٣٣٢	من ولد العباس سادات البشرُ
		٣٣٤	متعت فيه العين والضميرُ

الصفحة	الموضوع
٤٢	وجذوةٌ من غرامى وقدها باقى
٨٠	وفرقَ الناسُ فينا قولهم فِرَقًا
٨١	سلوتُ لَكِما ينكروا حين أُصَدِّقُ
٢٥٠	ويدُ السَّاقِ الحَيِّ مَشْرِقًا
٢٥٧	صهباء كالمسك الفتيق لناشق
٣٤٣	والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
	حرف الكاف
٦٦	فذابت كَذُوبِ التَّيْرِ أَخْلَصَهُ السَّبْكُ
٢٦٢	دَمِي مضاعٌ وجانى ذاكِ عيناكِ
٢٧٦	سَقَاكَ دَمْعِي إِنْ لَمْ يُوفِ سَاقِيكَ
	حرف اللام
٣	فَيُبَلِّ الصَّدَى وَيَشْفَى الْغَلِيلُ
٨	بالدين والناس بالدينيا مشاغيلُ
٩	كيف يسعى فى جنونٍ مَنْ عَقَلَ
١٦	يتطامنون مخافة القتل
١٨ ، ٣٩١	مَتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَّ مَكْبُولُ
٢٣	بِفيها يُعَلِّ بِه الزنجبيلُ
٢٩	عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطولِ
٣٧	إليك تحمَلْنَ الثناء المَبْجَلَا
٤٤	ما كل ماشية بالرحل شمالُ
٤٨	وحسنًا على النسوان أم ليس لى عقلُ

الصفحة	الموضوع
	حرف الضاد
٢٣	من الجوّ ذُكْنًا والحواشى على الأرضِ
٢٥٢	وحكم الصبح فى الظلماء ماضى
	حرف العين
٥	كرام إذا عدَّ الخلائق أربعُ
٤١	وإن خلت أن المتئى عنك واسعُ
٤١	وإذا تردَّ الى قليل تنقعُ
٦٨	فى خدرها إلا وميض شعاعِ
٧٣	أم العلاء فنادها لو تسمعُ
١٣٧	للحادثاتِ فهل تَرَيْنِي أَجْزَعُ
٢٠٧	إلى النحر منها مستهلٌ ودامِعُ
٢٤٩	وما الشيطان فيها بالمطاعِ
٢٦٤	إلا وقرنُ رقيمِ الدل بارعةُ
٣٩٤	بوادى حُنَيْنٍ والأسنة تُشرعُ
	حرف الفاء
٢١	أم ليل عُرْسٍ أم بساط سلافِ
٣٧	وَلَهْ بظاعنها وبالمتخلفِ
٦٩	محض النجار عذب المصنِ
	حرف القاف
٤١	وأخشى مصارع العشاقِ

الصفحة الموضوع

- ٤٨ وكل نعيم لا محالة زائلٌ
٥٢ تَمَشَّتْ به مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ
٥٣ فلن تموت أو تجيدَ قتلها
٥٤ يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
٥٩ بمنجردٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْتَ كُلِّ
٧٦ والدهر يعدل تارة ويميلُ
٨٢ قد رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرَ مُحَجَّلٍ
٩٩ طَبَنَ الْعَدُوُّ لَهَا فَغَيَّرَ حَالَهَا
١٠١ بَصُوحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
١٠١ كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْصُولُ
١٠٣ فِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءِ جَمِيلُ
١٣٤ عَلَى فَاقَةِ ذَاكَ الْبُغْدَى وَالتَّطَوُّلُ
١٣٤ وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالْأَحِبَّةِ يُقْبَلُ
١٧٨ أَخْلَاقُهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلُ
١٩٤ وَقَدْ حَمَمَتْهُ رَمَاهُ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ
١٩٥ نَصَالُهَا بِمِيَاهِ الْغَنَجِ وَالْكَحْلِ
١٩٩ كَأَنَّهُ مُهْلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
٢٠٩ لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مَوْكَلُ
٢٥٠ سَمُوْ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ
٢٥٤ وَالظِّلَّ خَفَّاقُ الرِّوَاقِ ظَلِيلُ
٢٥٤ وَدُوحُ نَهْرٍ بِهَا مُطْلُ
٢٥٤ وَصَبَاً بِأَيْلٍ ذَلِيلًا مَكْسَالُ

الصفحة الموضوع

- ٢٥٥ لَوْ لَمْ تَهْمَ مَدَّالِ الْقَدْرِ مُبْتَدِّلُ
٢٥٦ قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ
٢٦٣ أَجَدَّ مُقَامُ أُمِّ أَجَدِّ رَحِيلُ
٢٧٠ عَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيئَةُ الْبَذْلِ
٣٠٦ وَظَنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدْبِلُ
٣١٣ وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللَّمَّةِ الْبَالِي
٣٩٣ فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حَسَنِ الثَّنَا حُلَاً

حرف الميم

- ٥ وَقْتُ الزِّيَارَةِ فَارْجِعْ بِسَلَامِ
٧ بَشِينَةٌ لَا يَخْفَى عَلَى كَلَامِهَا
١٧ فَلَايَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ
١٩ لِأَزَالِ الْمَالَ وَالْأَعْدَاءَ ظَالِمًا
٣٥ يُسَيِّرُ ضَافِي وَشَيْهًا وَيَنْمَنُ
٣٥ هِيَ الْأَنْجَمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمًا
٣٧ ضَعَى وَتَخَالَ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمَّا
٤٢ فَأَغْلَيْتُمُو طِينًا وَأَرْخَصْتُمُو دِمَا
٥٢ تَغْصَنَ بِهِ عَيْنِي وَيَلْفُظُهُ وَهْمِي
٦٦ فِي الْجَوِّ مِثْلَ شِعَاعِهَا وَنَسِيمِهَا
٧٢ أَبَى بَعْدَ طَوْلِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَقَوْمَا
١١٠ لَهَا مِنْ مَسَكٍ رَقَّتْ خَتَامُ
١٢٤ تَوَخَّى الْأَجَرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَامَا
١٢٦ تَحْمَطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمِ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٦	واقضاه بالتظنى	١٥٢	أعالج شوقا في الضمير مُكْتَمًا
٥٦	وشددت بالتهذيب أسْرَ مُثُونِهِ	١٨٦	مزجت دمعاً جرى من مُثْلَةٍ بدم
٥٧	وإن كان في الصفات فنونا	١٨٨	أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
٦٤	كأنه لؤلؤٌ يتلوهُ عَقِيَانُ	١٩٦	يا رائد البرق يمم دارة العلم
٦٩	وَمِنْ عَيْنِي وَعَيْنِكَ وَالزَّمَانِ	٢٠٨	والظلم من ذى قدرة مذمومٌ
٦٩	إليه وهل بعد العناق تدان	٢٤٨	أثاب بها مُعْيِي المطىَّ وَرَازِمُهُ
٧٤	بُعَيْدَ الكرى عيناه تبتدران	٢٥٥	عهدت الكأس والبدر التمام
٧٨	نُحْيِيهَا وَإِنْ كَرُمْتَ عَلَيْنَا	٢٥٨	وتشرب لبَّ شاربها اللدام
٨٥	فانى إلى أصواتكن حزينُ	٢٥٨	وذاك الردف لى ولها ظلومٌ
٨٦	فأشعلت ما خبا من نار أشجاني	٢٧١	قوموا يا تجار النوم
١٢٣	فهيج لى شوقا وجدّ أحزاني	٢٧٢	ورجعت تندم
١٧٥	فلم أر فيهمو حراً أميناً	٢٩٩	لم تبق فيك بشاشة تُسْتَامُ
١٧٧	والتصابي بعد المشيب رُغُونُهُ	٣٠٠	فعلى الصبا وعلى الزمان سلامٌ
٢٥٢	على الدهر إلا واشنيت مُعَانَا	٣٦٩	أكتب شوقى إلى الذى ظلما
٢٥٤	جماحٌ وبالصبر الجميل حِرَانُ	٣٦٩	ما باح حتى جفاه مَنْ ظلما
٢٦٢	وقد ذعرت عن مغرب الشمس		حرف النون
	غربانُ	١٢	يظلُّ فى البيت الذى يلينا
٢٧٢	واكتب ودون	٢٠	وأرينا فلق الصُّبح المبينُ
٢٧٤	ولا بشافعةٍ فى ردِّ ما سانا	٣٩	سَمْطَانٍ فيها اللؤلؤ المكنونُ
٢٧٧	إذا ونى يوم تحصيل العلأوانى	٤٠	وشلاً بعينك ما يزال مَعِينَا

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٨٠	موتٌ وأكبرُ به حيًّا إلى الآن	٣٧٩	وأخرى تداويتُ منها بها
٣٤٢	إذ لا كتابَ يوافيني فيُخَيِّنِي		حرف الياء
٣٤٥	وناب عن طيب لُقَيَانَا تَجَافِينَا	٢٢	غَبَّ سَمَاءُ هَامِيَّةُ
٣٤٩	نَشَجَى لَوَادِيكَ أُم نَأْسَى لَوَادِينَا	٧٦	تَوَمُّ الحِمَى أَنْضَاوُهَا وَالْمَطَالِيَا
	حرف الهاء	٢٥٦	والصبُّ غير الوصل لا يشفيه
٢٤٨	تَجِيدُ الطَّيَا وَاللَّهَّا تَفْتَحُ اللَّهَّا	٢٧٥	وَأَزْجَتْنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةُ



فهرس الأعلام^(١)

حرف الألف

إبراهيم الدباغ ص ٣٧٢

إبراهيم الصولى ص ٤٥

إبراهيم بن المدبر ص ١٢٣

إبراهيم ناجى ص ٢٧٧

الأيوردي ص ٢١٣

أحمد بن خالد ص ٨١

أحمد زكى أبو شادى ص ٢٧٧، ٣٦٨

أحمد علام ص ٣٥٢

أحمد فؤاد [ملك مصر] ص ٢٧٠

ابن الأحنف ص ٨٠، ١٥٥

الأخطل ص ١، ١٣، ١٤، ١٥

الأخفش ص ٤٥

أرطاة بن سهيبة المرمى ص ٥١

إسحاق بن خفاجة ص ٢٥٣

إسحاق الموصلى ص ٣، ٥٥

إسماعيل رأفت ص ١٤١

إسماعيل صبرى ص ٢٠، ٢٧٠، ٢٧٦

٢٧٧، ٢٨٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٧٢

أبو الأسود ص ٤٨

الأسود النهشلى ص ١٣٦

أشجع بن عمرو السلمى ص ١٠٢

أبو الشيص ص ٦٠

الأصمعى ص ٣، ٤٥

الأعشى ص ١، ١٨٠

الأمدى ص ٣٨٦

امروء القيس ص ٢١، ٥٠، ٥٨، ٥٩

١٠١، ٢٥٠

الأمين ص ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٤

انطون الجميل ص ٢٧٥

أ كثم بن صيفى ص ٣٨٧

أوس بن حنجر ص ١٢٦

حرف الباء

البارودى ص ١٠٣، ١٠٩، ١٨٥، ١٩٥

١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤

٢٠٦، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٥

٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧

٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٢

٣١٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣

٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨

البحترى ص ١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧

٣٨، ٣٩، ٦٦، ٦٩، ٨٤، ٨٥

١١٣، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥

١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١

(١) جمعه فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك ورتبه الأديب سليمان فهمى مبارك .

الجرجاني ص ١٢٤

جرير بن عطية ص ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ،

١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٥٨

أبو جعفر الممائي ص ٢٥٠

جميل ص ٤ ، ٦ ، ٧

ابن الجهم ص ٢٣

حرف الحاء

الحاتمي ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

حافظ إبراهيم ص ٢ ، ٢٠ ، ٤١ ،

٤٢ ، ٦١

الحجاج ص ١٠٧

حسان بن ثابت ص ٢٦ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩٠

الحسن بن بسام ص ٢٥٥

حسن عبد الوهاب ص ١١٠

الحسن بن وهب ص ٤٥

الحصري ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣

الخطيئة ص ٣٩٦

أبو حفص بن برد ص ٢٥٠

أبو حفص القرطبي ص ٢٥٨

الحكم الخصري ص ٤٨

حمزة الأصفهاني ص ٣٧٠

حناد بن حندج المري ص ١٠١

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٧٠

بديع الزمان ص ٧٥ ، ٢٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥

بشار بن برد ص ٤٠ ، ٤١ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣

أبو بكر الصديق ص ٣٠ ، ٢٠٠

بكر بن النطاح ص ٦٠

البوصيري ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ،

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢

البولاني ص ٢١٢

حرف اثناء

أبو تمام ص ١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٣٨ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ٢٠٨

حرف التاء

الثعالبي ص ٢٤٨ ، ٢٥٩

ثعلب ص ١٣٣

حرف الجيم

الجاحظ ص ١٨ ، ١٩ ، ٤٥ ، ٦١ ،

٩٩ ، ١٠٦

أبو حيان ص ٢٣٦

حرف الخاء

خالد بن برمك ص ١٣٨

ابن خالد ص ٨٤

ابن خاقان ص ١٤٣ ، ١٥٢

ابن خروف ص ٢٥٦

الخراز ص ٣٦٩

خزيمة بن هند ص ٢٣

ابن خفاجة ص ١٤١

خلف الأحمر ص ٣

ابن خلكان ص ١١٠ ، ٢٥٨

الخليع ص ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٥

خوفو ص ١٤٨

حرف الدال

ابن دراج ص ١٠٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ،

٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،

٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

أبو الدرداء ص ٧١ ، ٧٣

ابن دريد ص ٥٩ ، ٢١٣

ابن الدمينه ص ١٩ ، ٥٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧

الديراني ص ٣٣

ديك الجن ص ٨٦

حرف الذال

الذبياني ص ٨٩ ، ١٠٠

حرف الراء

ابن أبي ربيعة ص ٨ ، ٢٥١

الرشيد ص ١٥ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٢٤٦

ابن رشيق ص ١٤ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٢٠٧ ، ١٢٧

الرصافي ص ٢٥٢

الرقاشي ص ١٤٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

ابن رواحة ص ٣٠

المروانية ص ٢٥٧

روح بن زنباع الجذامي ص ٣٣

ابن الرومي ص ١ ، ١٠ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠

حرف الزاي

زرافة التركي ص ١٣٢

زريقة الحلبيه ص ١٢٤

ابن الزمخشري ص ٣١ ، ١٨٢

ابن الزيات ص ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤

ابن زياد ص ١٦٩

ابن زيدون ص ١٤١ ، ١٤٨ ، ٣٠٦ ،

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ،

٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٦٧

زين الدين يعقوب ص ١٨١

زينب بنت زياد ص ٢٥٧

حرف السين

سعاد ص ١٩٨

سعد بن عباد الأنصاري ص ٣٩٥

سعيد ص ٢٤٧

سعيد بن حميد ص ٧٦

سعيد عبده ص ٣٥٢

سعيد بن المسيب ص ٢٩ ، ٣٩٥

ابن سلام الملقب ص ٢٥٦

سلامة بن جندل ص ١٨٧

سليم البشري ص ١٨٣ ، ١٨٤

سلم الخاسر ص ٦٠

سكينة ص ٤ ، ٦ ، ٧

ابن سيرين ص ٢٩

سيف الدولة ص ٣٠٨

حرف الشين

الشافعي (الامام) ص ٣٠

ابن شبة ص ١٢٦

شداد بن أوس ص ٢٢٢

الشريف الرضي ص ٢٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٩١

الشقندي ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧

شكسبير ص ٦١

شوقي ص ١ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٢ ، ٤٨ ،

١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٨ ،

٢٩٧ ، ٣٤٠ ، ٢٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ،

٣٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠

شيرويه بن كسرى ص ١٣٣

حرف الصاد

صادق عنبر ص ٤١

صريع الغواني (مسلم بن الوليد) ص ٥٢

صفوان بن إدريس ص ٢٥٧

صلاح الدين بن يوسف ص ٢٣٦

الصوفاني ص ١٢٩ ، ١٣٠

حرف الضاد

ابن الضحاك ص ١٠٩

عبد الله بن رواحة ص ٢٦ ، ٣٩٠
عبد الباقي إبراهيم ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،
٣٣٦ ، ٣٣٧
عبد الحليم المصري ص ٢٧٠
ابن عبد ربه ص ١٠٩
عبد الرحمن بن حسان ص ١٥
عبد الرحمن بن زياد ص ٢٦٥
عبد الرحمن بن عوف ص ٣٩٤
عبد الصمد بن المعذل ص ٦٠
عبد العزيز البشري ص ١٨٣ ، ١٨٤
عبد العزيز جاويز ص ٦٢
عبد العزيز الجرجاني ص ٣
عبد العزيز الجهني ص ٧٨
عبد العزيز دعبيس ص ٢٧٠
عبد القادر الجرجاني ص ٩٣
عبد الملك بن صالح ص ١٢٣
عبد الملك بن مروان ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥
العبيسي ص ١٠٣
العقبى ص ١٠١
عثمان بن عفان ص ٣١
علام سلامة ص ٤١
أم العلاء ص ٧٣
علوة (معشوقة البحتری) ص ١٢٤

ضرار بن الخطاب ص ٣٩٤
ضيف أحمد ص ١٢
حرف الطاء
طاهر بن الحسين ص ٩٥
طرفة بن العبد ص ٤٨ ، ٥٨ ، ١٩٨
الطغرائي ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٩٥
الطليطلي ص ٢٥٧
الطوسي ص ١٢٤
طه حسين ص ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٣٦
حرف العين
عائشة ص ٢٠٠ ، ٢٠١
عائكة ص ٢١٢
ابن أبي عامر ص ٢٦٥
ابن عباس ص ٢٩
عباس (الجدید) ص ١٨٣
العباس ص ٣٩٤
عباس الجمل ص ٣٩٨
عباس بن الأحنف ص ٦٠ ، ٣٧٠
عباس بن القباچ ص ٢٥٧ ، ٢٦٥
أبو العباس الناشئ ص ٥٦
أبو العباس المبرد ص ١ ، ٦٠ ، ٦١
عبد الله بن عبد الله بن عتبة ص ٢٩

القاضي أبو القاسم ص ٦٢، ١٠٤، ١٠٥
 القباچ ص ٢٦٩
 قس بن ساعدة ص ٣٨٧
 قرة بن هبيرة ص ٣٩٢
 حرف الكاف
 كثير ص ٤، ٥، ٩٩، ١٨٧
 كرومر ص ١٥٥
 كسرى ص ١٤٣
 كعب بن زهير ص ١، ١٧، ١٨، ٨٨
 ١٨٠، ١٨٦، ١٩٨، ٣٩١
 كعب بن مالك الأنصاري ص ٢٦، ٣٩١
 الكميث بن زيد ص ١٨٠
 حرف اللام
 لبيد ص ٤٨
 ليلي ص ١٢٩
 حرف الميم
 المأمون ص ٨، ٩، ٨٩، ٣٠٥
 المؤيد ص ١٣٢
 مالك بن أنس ص ٣١
 المتنبي ص ١٨٥، ١٩٢، ٢٤٨، ٢٥٩، ٣٠٦
 المتوكل ص ٢٣، ٣٢، ٣٣، ١٣٢، ١٣٤
 محبوب ثابت ص ٢٠

علي بن جبلة ص ٦٠
 علي بن الجهم ص ٦٠
 علي بن أبي طالب ص ٣١، ٣٥، ٢٩٩
 ابن عمار ص ٢٤٨
 عمر بن الخطاب ص ٣١، ٣٩٣، ٣٩٤
 عمر بن سليم الخزاعي ص ٣٩٥
 عمرو بن عبيد ص ٨
 أبو عمرو القسطلي ص ٢٥٩، ٢٦٠
 أبو عمرو بن فرج ص ٢٤٩
 ابن عنين ص ٦٨
 عيسى (عليه السلام) ص ٩٤
 عيسى بن هشام ص ٢٠٣
 حرف النون
 الغزالي ص ٣٠، ١٦٢
 حرف الفاء
 الفرزدق ص ١، ٤، ٨، ١٣، ٤٠، ٥٨
 فريد وجدى ص ٦٢
 ابن فضل الله ص ٢٦٠
 الفيروزابادي ص ٣١
 حرف القاف
 ابن القائف ص ٧٦، ٧٨
 قاسم أمين ص ٦٢

مطران ص ١ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٢ ، ١٣٠
 ابن المعتز ص ١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٦
 ١٠٩ ، ١٣٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤
 المعتصم ص ٨١ ، ٨٤
 المعتمد بن عباد ص ٢٤٧ ، ٢٤٨
 المعري ص ٣٠٦
 مصطفى القشاشي ص ٣٥٢
 مصطفى الرافي ص ٦١
 المنتصر ص ١٣٢ ، ١٣٣
 المنصور ص ١٣٨
 المنصور بن أبي عامر ص ٢٤٦ ، ٢٥٨
 منصور النيرى ص ١٥
 المنفلوطى (أبو بكر) ص ٢٤٠
 المنفلوطى (مصطفى) ص ١٧ ، ٦٢ ، ٢٤٠
 المقرئ ص ٢٤٦
 موسى (عليه السلام) ص ٢٤٦
 موسى بن جابر ص ٥٤
 المويالى ص ١٨٣
 مويالك ص ٧٣
 حرف النون
 النابغة الذبياني ص ١ ، ٤١ ، ٥٨ ، ١٠١ ،
 ٢٠٧
 النشار ص ٢٥٦

أم الحسين ص ٢٠ ، ١٢٢
 أبو محم الشيباني ص ٨٥ ، ٨٦
 محمد الأمين ص ٥٥
 محمد تيمور ص ٢١
 محمد السباعي ص ٦١
 محمد صبرى ص ٢٩١
 محمد بن سفر ص ٢٥١
 محمد بن ظفر ص ٢١٩
 محمد فريد (شهيد الوطنية) ص ١٤٦
 محمد عبده (الإمام) ص ١٧٣
 محمد بن عبد الله [رسول الله صلى الله عليه وسلم]
 ص ١٦ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٥٠ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ،
 ٣٩٠
 محمد بن عبد الملك ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٤
 محمد مسعود ص ٢٨٧ ، ٢٩٠
 محمد المهدي (الشيخ محمد المهدي بك)
 ص ٤ ، ٦ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٨٨ ، ٣٨٧
 محمد بن منصور ص ١٠٢
 مرجايوت ص ١٤١
 مروان بن أبي حفصة ص ٥٩
 مسلم بن الوليد ص ١ ، ١٩ ، ٦٠ ، ١٠٩ ،
 ٣٧٣ ، ٣٧٢

حرف الهاء

ابن هاني ص ١٩٤
الهرابي ص ١٧٣
هشام بن عبد الملك ص ٣٣
الهلالي ص ٤١
هند بنت معاوية ص ١٥
أبو الهول ص ١٤٩
الههياوي ص ٢٤٠

حرف الياء

ياقوت ص ٣٣، ١٣٨، ١٨٧
أبويحيى بن أبي زكريا ص ٢٤٧
يزيد بن معاوية ص ١٥
يوسف (عليه السلام) ص ٥١

نصر بن منيع ص ٨٨

نصيب ص ٤، ٥٠، ٧٠

لقمان الحكيم ص ٨٨

للنعمان بن المنذر ص ٢٠٧

أبونواس ص ١، ١٨، ١٩، ٤٨، ٥٢،

٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ١٦٩، ٢٣٦،

٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤،

٢٤٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦،

٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٩٨، ٣٠٢،

٣٠٤، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٦٨،

٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٩

ابن نويرة ص ١٣٧، ٢٣٦

حرف الواو

ولادة بنت المستكفي ص ٣٤٣

وهبون ص ٢٤٨

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب : « الموازنة بين الشعراء » مصححاً بمعرفتي ومراجعة المؤلف

أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر ورئيس لجنة التصحيح

[القاهرة في يوم الخميس ٦ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ . الموافق ٢٢ أكتوبر

سنة ١٩٣٦ م] .

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

المذكر النبوي

في الأدب العربي

ظهر هذا الكتاب في العام الماضي فنال إعجاب الأدباء والعلماء ، وقد سُرَّ به فضيلة المصلح الكبير ، الأستاذ : الشيخ محمد مصطفى المراغي حفظه الله ، فأوصى بأن يكون من المراجع في مكتبة الأزهر ، ومكتبات المعاهد الدينية ، لأنه أول كتاب يؤرِّخ تطوُّر المذاهب الأدبية في المدائح النبوية .

ونحن نشر هنا بعض ما جاء عن هذا الكتاب في الصحف والمجلات .

- ١ -

قال حضرة الأستاذ أحمد الشنتناوى خريج الجامعة المصرية وعضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية من مقال نشره في جريدة الأهرام :

من الناس من يشعر كلما طال به العهد بالحياة العلمية أنه لا يزال في مستهلها وفي مطلع درجاتها ، إذ تتفتح أمامه تلك الحياة ، وتتعدد سبلها ونواحيها ، فيسير في رحابها الشوط البعيد دون أن يعتريه سأم أو ملال ، وهو في كل خطوة يخطوها في ذلك الميدان المحبَّب إلى النفوس الملهذبة يشعر أنه انتقل بنفسه إلى عالم آخر أبهى جمالا وأكثر لذة وأعم نفعا من سابقه .

ومن الناس كذلك من يساق سوقا إلى تلك الحياة العلمية ابتغاء درجة علمية ينالها فتكون مفتاح رزقه وقوته في حياته ، أو إرضاء لوالدين أو أقارب ، فإذا ما حصل على تلك الاجازة المطلوبة جعل بينه وبين الكتاب ألف حجاب ، حتى لكأنه شيء خفيف ينغص عليه حياته .

ولست هذه الحال بنادرة الحدوث بل إنها ظاهرة خطيرة ، نراها بين متخرجى الجامعة المصرية والمدارس العالية على حدّ سواء ، فان المتخرج بعد أن ينال إجازته العالية يشعر أنه أصبح أستاذاً في فنه ، ضليعاً في مادته ، ولا حاجة له بعد ذلك إلى كتاب أو قلم . ومن حسن الحظ أن يكون الدكتور زكى مبارك أحد أفراد الفئة الأولى المتعطشة دائماً إلى الاستزادة والنهل من ينابيع العلم ، فكتابه «المدائح النبوية» الذى أخرجه أخيراً إلى قراء العربية لم يكن فى الأصل سوى باب من مؤلف كبير قدمه إلى الجامعة المصرية عن « أثر التصوف فى الأدب والأخلاق » لنيل إجازة الدكتوراه فى الآداب ، ولكن اللجنة التى ألقت لفحص الرسالة رأت أن الباب الخاص بالمدائح النبوية خليق بأن يظهر مستقلاً عن الأصل ، فتلقى الدكتور زكى هذا الاقتراح فرحان جزلاً إذ أن مؤلفه سيكون فى الأدب العربى كتاباً قائماً بذاته ، عن المدائح النبوية ، وهى لون جديد من فنون الشعر العربى يعبر عن العواطف الدينية النبيلة التى تحتلج فى النفوس المفعمة بالصدق والإخلاص لأشرف خلق الله أجمعين .

ولو كان الدكتور زكى مبارك من الفئة الثانية طلاب الإجازات العلمية لكسب العيش ، وليس للعلم لذاته ، لذهب فى الأرض صاخباً لا عنماً ينعى الجامعة المصرية ومن فيها ويتعرق على تلك الساعات بل الأشهر الطوال التى صرفها فى تحضير هذا الباب الخاص من رسالته .

وفى الحق أن كتاب «المدائح النبوية» يعدّ نوعاً جديداً من فنون الأدب لم يتعرض له الأدباء من قبل بالكثير أو القليل على الرغم من أن تلك المدائح قد ظهرت فى عالم الوجود منذ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعل أعظم جزاء يثاب عليه الدكتور زكى بتأليف هذا الكتاب أنه أول من رسم خصائص المدائح النبوية فى الأدب ، تلك المدائح التى كان لها أثر كبير فى الحركة الأدبية فى جميع العصور .

والكتاب ليس بالمطول الممل ، ولا بالمتصر المخل ، إنما هو عرضٌ منظم لأشهر المدائح التى قيلت منذ كانت تجرى على الطرائق الجاهلية ، مبيناً ما بها من مواطن الضعف والقوة والجمال ، كاشفاً عما بها من الألفاظ والتعابير والمصطلحات .

وهو لا يكتفى بذلك بل يورد أيضاً المناسبة التي قيلت فيها القصيدة ، فان معظم المدائح التي قيلت في النبي صلى الله عليه وسلم أو في أهل البيت قد قيلت في منابات مختلفة ولأغراض شتى . فهو يعرض لدالية الأعشى ولامية كعب وقصائد حسان ، ثم يتكلم عما وقع في خطب علي بن أبي طالب من المدائح ويبين كيف نشأ مدح أهل البيت ، وكيف ترعرع هذا الفن في البيئات الإسلامية . ثم خص السكيت بدراسة وافية وهو شاعر فحل شرع للشيعنة مذاهب القول وعلمهم أساليب الجدل ومقارعة الحججة بالحجة ، كما عرض للمدائح التي قالها دعبل والشريرف الرضى ومهيار الديلمي وغيرهم من فحول الشعراء .

ولما وصل المؤلف إلى البوصيرى وقف أمام آثاره الأدبية وقفة طويلة وحدثنا عما عنده من ضروب السحر والجمال وتكلم عن أثر البردة في اللغة العربية وكيف انتهى فن المدائح النبوية إلى فن أدبي رفيع هو فن البديعيات الذي أذاع في الناس ألواناً مختلفة من الثقافة الأدبية ، كل ذلك في أسلوب أدبي جميل ومنطق صحيح .

غير أن لنا على هذا الكتاب المفيد ملاحظات ثلاثاً تتناول الشكل دون الموضوع نوردها فيما يلي :

أولاً : الكثرة في إيراد الشواهد الشعرية فانه لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من أبيات الشعر ، وهذا دون شك من الشواهد الضرورية اللازمة لتقريب المعنى المراد استخراجها إلى ذهن القارئ ، ولكن كان من المستطاع الاكتفاء بإيراد جزء القصيدة الذي به الشاهد المقصود دون ذكرها بتمامها ، فليس الغرض من الكتاب أن يكون سجلاً للمدائح النبوية بكاملها وإنما الغرض منه كما ذكر المؤلف في المقدمة هو رسم خصائص المدائح النبوية .

ثانياً : في غضون هذا الكتاب نبذ كثيرة تختلف طولاً وقصرًا لا تنطوي بحال من الأحوال تحت موضوع كتاب « المدائح النبوية » فنجد مثلاً في كلامه عن البوصيرى صاحب البردة المشهورة يذكر قصائد له يشرح فيها حال المصريين في ذلك الوقت ، أى في القرن السابع الهجرى ، وأن الموظفين كانوا يسرقون الغلال وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ولا شربوا الخمر كما يذكر الخلافات التي كانت بين المسلمين والأقباط في ذلك العهد . وكذلك بعض القصائد التي يشكو فيها حاله وأنه رجل فقير معدم وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون وأنهم

يتحسرون على فقد الكعك أيام الأعياد وأن أمراته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، وتنف شعره شعرة شعرة ، وغير ذلك من النبذ ، وهى كلها أخبار أدبية جميلة ، ولكن هذه الأخبار لها مواضعها الخاصة بها ، ومن رأينا أن لا يخرج الكتاب عن موضوعه - وإن كان ذلك يقصد به إلى التنويع والإفادة - خصوصاً فى كتاب كبير يقدم إلى الجامعة المصرية بقصد الحصول على إجازة الدكتوراه فى الآداب .

ثالثاً : أما الملاحظة الأخيرة فهى أن الدكتور زكى قد خصّ خاتمة الكتاب بفصل عن قصة المولد النبوى ، وهو فى الواقع موضوع هام شائق لأن هذه القصة نوع من المداخل النبوية كثير الذبوع فى البلاد الإسلامية عامة وفى مصر بنوع خاص ، وهذا ما حدا بوزارة الأوقاف المصرية أخيراً إلى دعوة أهل العلم لوضع صيغة جديدة يراعى فيها تحرى الأخبار الصحيحة الثابتة عن مولد الرسول وحياته . واتفاق هذه الصيغة مع روح العصر الحاضر . ولكن على رغم ما لهذه القصة من أهمية ، فإن مؤلف كتاب « المداخل النبوية » لم يخصها إلا بنحو سبع صفحات من كتابه ، وكان الأحرى أن يجعل لها نصيباً من الدرس والتحليل أكبر من ذلك النصيب .

ومهما يكن من الأمر فإن هذه الملاحظات كلها لا تتصل إلا بشكل الكتاب . أما موضوعه فقد وفاه الدكتور حقّه من البحث بحيث لا يسع القارئ إلا الثناء على همته وجلده فى الدراسة والتحليل ؟
أحمد الشنتناوى

- ٢ -

وقال الكاتب الكبير الأستاذ محمد عوض جبريل الحرّى بجريدة الأهرام :
لست أدري ماذا يكون نصيبى من الدكتور زكى مبارك ، وماذا عساى ألقى منه ، إذا وصفته على حقيقته وجلوت للناس صورته ؟ غير أنى قائل - بعد أن استخرت الله واستعنت به - إنه رجل ثائر لا تروقه الحياة ، ولا يطيب له العيش إلا فى الغزوات القلمية ، وحين يثار النقع فيناضل الأقران ويصارعهم ثم لا يبالي متى يكتب له الفوز على خصمه .

بل لو جاز وصف المساجلة فى الأدب بالمعارك الحربية ، وتشبيه الأدباء بالجنش الذى يخوض

غمارها ، لتملأنا الدكتور زكي مبارك ضابطاً من الضباط ، قد ازدان صدره بالشارات العسكرية وحمل سيفه ، وراح يقارع به ويصاول ، ثم لا يغمده في جفنه إلا بعد طول الطعان ومجاهدة الأقران .

ذلك شأنه في بحوثه ومؤلفاته ، فهو في مثل جَلْبَلَة الرعد ، كأنما يريد أن يقنع الناس جميعاً بما يدعو إليه عن عتيدة وإيمان .

على أن ثورة الدكتور زكي مبارك ، ليست من الثورات الخربة التي تهلك الحرث والنسل ، بل هي أبداً للخير والإصلاح ، فهو لا يهدم إلا لينى ، ولا ينقض حجراً إلا ليضع مكانه حجراً أمتن وأبقى على الزمن ، فتورته للأدب وفي سبيل الأدب .

ومالنا ، مع ذلك ، تهيبه ونخشى بوائق غضبه ، وهذا كتابه «المدائح النبوية» الذي ظهر أخيراً ، يجاهر هو في مقدمته بما لم نزد على أن وصفناه به ؟ إذ يقول : « والحق أنى لا أستطيع أبداً أن أكتب البحث مرتين ، لأنى أُنزِع أدبى من ثورة العقل والقلب . وقد درست نفسى مرات كثيرة فرأيت السهم الأول أنفذ في جميع الأحيان ، ورأيت معاودة الصقل والتهذيب ضرباً من الزخرف لا تسيعه طبيعة فطرت على الثورة والافتحام .. » ثم هو يشن على « الملحدون » غارة شعواء ويعالئهم بحرب مستعرة ، فيقول : « إن أعداء القرآن لا يعادونه عن عقل ، وكيف يعقل من يعادى البدر المشرق والجليل الركين ؟ إنها نزوات تطوف برءوس المرورين الذين توهموا أنه لم يبق للإسلام أوس ولا خرج ، وأن الوادى خلا من الأسد الغضاب ، ألا ساء ما يتوهمون ، ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهبين ، وإن بقيت لهم ذكرى فستكون صورة من صور إبليس ، فان تعللوا بأن الشهرة مغنم عظيم فليئذ كروا أن إبليس سيظل أشهر منهم ، وإن قضوا الأعمار الطوال ، في خدمة الإفك والضلال . »

« سيقول السفهاء من الناس وما دخل هذا الكلام في مقدمة المدائح النبوية ؟ ونجيب بأننا نصور حالة من أحوال هذا الزمان ، فنحن لم نخلق أعداء نحاربهم ، وإنما نحارب أعداء نراهم رأى العين .. » إلى أن يقول : وقرأنى من غير المسلمين لا يسيئهم هذا القول فليس القرآن ملكاً للمسلمين وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء ، وكذلك كانت الثروة

والإنجيل ، وهل كانت الشرائع إلا موارد يفرع إليها الظماء في عالم العقول والقلوب والأذواق ؟

ومما يجيب هذه الثورة إلى النفوس أنها مقرونة بالخصب وجودة الإنتاج الفكري ، فالدكتور زكي لا يكاد يفرغ من مؤلف حتى يمسك بأسباب مؤلف آخر ، يأتي فيه بجديد ويسد به فراغاً في الأدب ، ويزيد من ثروته ، وكتابه « المدائح النبوية » الذي نحن بصدده هو إحدى هذه الثرات الشهية التي يجود بها على قراء لغة العرب .

ذلك أن الدكتور قد تكلم في الكتاب عن المدائح وفحص نشأتها منذ عهد الرسول ، إلى أن أصبحت فنا قائماً بذاته ، ثم أورد هاشميات الكميث بن زيد ، وشعر دعبل الخزاعي ، وتأنيته المشهورة في التفجع لآل البيت والبكاء عليهم ، وقصائد الشريف الرضي ومهيار الديلمي وبردة « البوصيري » وما قاله غير هؤلاء الشعراء من المدائح .

ولكن المؤلف لم يقف عند ذلك ، ولم يقصر جهده عليه ، ولو فعل لما كان قد زاد على أن جمع شتات هذه القصائد وضم ما تفرق منها ، غير أنه سلك منهجاً لم يسلكه غيره ، فهو يقف بك عند كل شاعر ، وقفة مؤرخ الأدب المطلع على أسرار البيان العربي ، العليم بأدوار التاريخ وما كان لها من أثر نحسه في أسلوب المدائح النبوية التي قيلت عصور مختلفة ، ونراه فيما بينها من تفاوت .

فهو إذ يورد قصيدة كعب بن زهير التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم إثرها لم يفسد مكبول

والتي يقول منها :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

هو إذ يورد هذه القصيدة ، لا يذهب فيها مذاهب المتقدمين ولا يجري مجراهم ولكنه يراها « قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك ، وتكاد تخلو من روح الدين . ولا غرابة في ذلك فان كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت ، ومن كان في مثل حالة لا ينتظر منه صدق الثناء » ، وهنا يروى المؤلف ما كان من انصراف كعب وعدوله

عن لقاء النبي ، بعد أن صرفته قريش وأجزلت له العطاء ، وما كان أيضاً من قدوم أخيه بجير وإسلامه ، حتى لم يجد - أى كعب - بداً من أن يقول قصيدته التي أسلفنا ذكرها وينشدها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، بعد أن استأمنه . وانتهى المؤلف من ذلك إلى قوله : « والذي تقول به في هذه القصيدة ، لم يقل به أحد من المتقدمين ، فقد اهتموا بها اهتماماً عظيماً وعدوها من أجل مامدح به الرسول ، وعنى بها الشعراء فشطروها وخمسوها وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال » .

ثم اقرأ ما كتبه الدكتور زكي ، عن دعبل الخزاعي ، وتعليله ما كان يبدو من ظاهر أمر هذا الشاعر من تناقض . فقد حل المؤلف هذه المشكلة ، ووفق إلى ما نحسب أن كثيراً من المتقدمين قد أخطأهم فيه التوفيق . فقد كان من أشهر قصائد دعبل في مدح آل الرسول ، قصيدته التي ترنم بها فحول الشعراء وزانت صدور كتب الأدب . وهي القصيدة التالية التي مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
والتي منها :

قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
ومنها :

ملاмок في أهل النبي فانهم أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتي
ولكن كيف جمع دعبل بين هذا الشعر الذي يفيض حزناً على آل بيت الرسول وينمّ على رقة العاطفة ، وبين بسط لسانه في أعراض الخلفاء والأمراء وجحود فضل الرشيد وحسن صنيعه به ؟

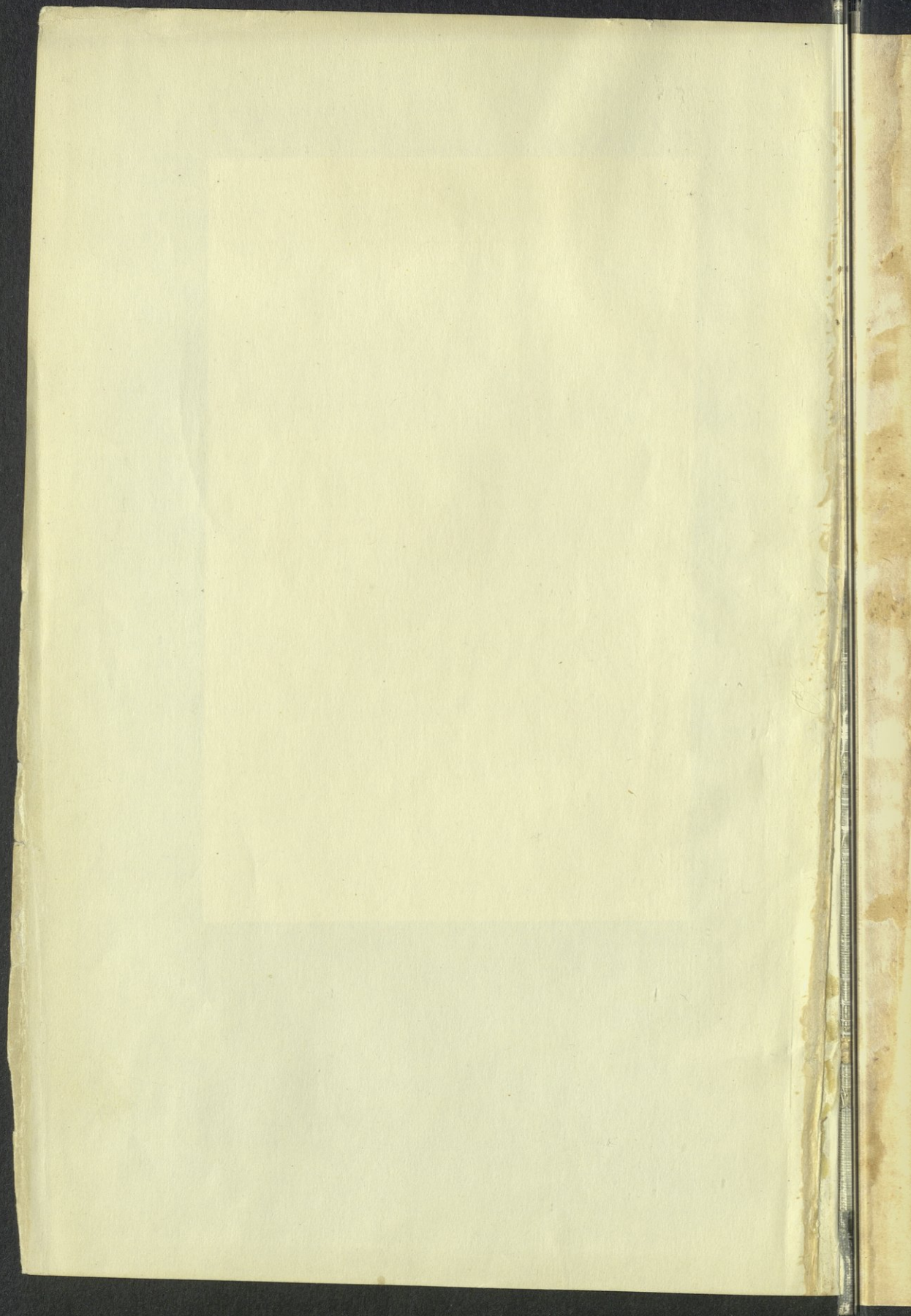
يقول الدكتور زكي مبارك في تحليل هذه المشكلة النفسية : كان ذلك الرجل - أى دعبل - شريراً ، وكان كلفاً بايذاء الناس ، فكيف يتفق له التصوف في حب أهل البيت ؟ وكيف يغرم بالنيل من أعراض الخلفاء والأمراء والوزراء وبأيديهم أسباب الأرزاق ، ثم يعطف على ناس أحت عليهم النوائب واثمرت بهم أحداث الزمان ؟ « يغلب على الظن أن الرجل تلقى في طفولته حب أهل البيت فصار حبهم كاللحم القديم الذي يسمعه الإنسان وهو طفل ، فيظل يلاحقه بأنغامه وهو كهل ، وهناك نفوس

لا تعرف غير هوى واحد في عالم السياسة ، ويتأصل فيها ذلك الهوى حين تنهزم ، ولا تزال
تحرص عليه حتى يتحول إلى تصوف ، وإذا انقلب الهوى إلى تصوف فلا نجاة منه ولا
خلاص ، ولو أن أهل البيت العهد دعبل استطاعوا أن ينتصروا وأن يزحزحوا السياسيين
لاستطاعت الدنيا أن تغير من نفسه قواعد ذلك الهوى ، ولكنهم ظلوا مدحورين
فبقي الاشفاق عليهم حيا في نفسه حياة قوية . . . »

ومن أمتع الفصول ما كتبه الدكتور عن حياة البوصيري الشاعر المصري
وأثر « بردته » الخالدة في الأدب العربي . وقد أفاض المؤلف فيما تناوله من البحوث
التي ضمها كتابه ، حتى انتهى إلى ما صارت إليه المدائح النبوية إذ استتحات مع
الزمن « فنا أدبيا رفيعا هو فن البديعيات الذي أذاع في الناس ألوانا من الثقافة » ، ثم
تكلم بعد ذلك عن « قصة المولد » ونشأتها ، وأبان أنها ليست قديمة العهد في التاريخ
الإسلامي وذكر أن دار الكتب المصرية تحتوي على نحو أربعين مولداً ألقت في عصور مختلفة .
وبعد فلنقصر عند هذا ، ومن شاء المزيد فليرجع إلى كتاب « المدائح النبوية »
فهو في الحق تحفة جديدة في عالم الأدب . م . ع . ج

- ٣ -

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى من كلمة نفيسة :
« إن قراءة الشعر في هذا الكتاب ليست كهيئة الطريقة القديمة ، ففي هذا الكتاب
تجد فنون الشعر وطرائق الأدب منظومة في أسماط الحكمة والعلم ، وهذه هي المزية التي
اختص بها عصرنا الحاضر ، والأستاذ الدكتور زكى مبارك هو الذى ابتكر طريقة جديدة
إذ جعل المدائح النبوية في كتاب خاص . إن قراءة هذا الكتاب تفيد أهل العلم فنونا
من الأدب وطرفا من تاريخ أسلافنا . وألوانا من الشعر السياسى . إن طريقة هذا الكتاب
هى الطريقة المثلى ، فليس الشعر فيه مقصودا لذاته : بل يتبعه الحكم للشاعر وعليه ، وله نتائج
كثيرة نستبين بها أحوال الدولة ونظام الأمة ، والعدل والجور ، وأخلاق الشعوب المستنتجة
من الشعر ، وهذا من خير ما يستفيده قارى هذا الكتاب » .
وقد ضاق المقام عن نشر كلمة الأستاذ محمد عبد القادر حمزة ، وكلمة الدكتور أبى شادى ،
وكلمة الأستاذ محمد جاد المولى بك .



808.1:M94mu2A:c.1

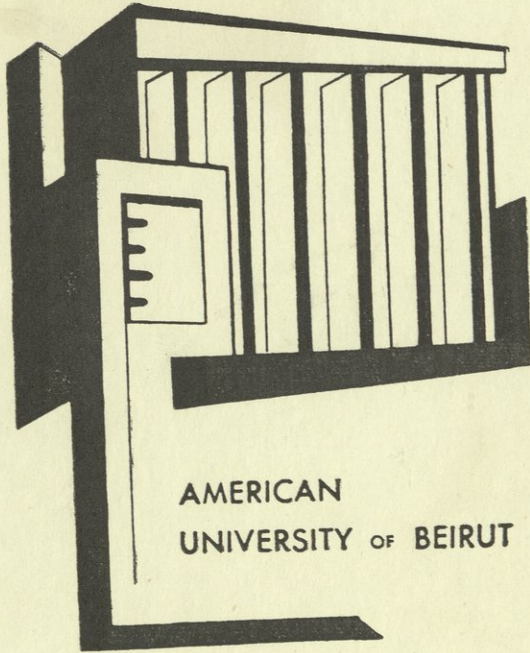
مبارك، زكي

الموازنة بين الشعراء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031179



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

808.1
M94mu2A
C.1